موسوعة المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء الثاني

مركز الشرق الأوسط الثقافي

موسوعة
المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء الثاني

مركز الشرق الأوسط الثقافي

الطبعة الأولى

مركز الشرق الأوسط الثقافي
للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

Middle East Cultural Center
For Printing, Publishing, Translating & Distributing

الإدارة العامة:

General Management:

بيروت ـ الحدث، هاتف: ٨٨٨ ـ ٤٦١٧٧٧ ـ ٥ ـ ٩٦١ ـ فاكس: ٤٦١٩٩٩ ـ ٥ ـ ٩٦١ ـ خليوي: ٦٤٠٤٩٠ ـ ٣ ـ ٩٦١
مصر ـ الدقي، هاتف: ٠٠٢٠٢٣٣٦٥١٥٢ ـ خليوي: ٠٠٢٠١٢٦٥١٠٥٦١
سوريا ـ دمشق، هاتف: ٠٣٠ ـ ٠٢٠ ـ ٠٠٩٦٣١١٤٦٤٤٠١٠ ـ خليوي: ٩٦٣٩٤٩٩٧٧٦٤

Beirut - Hadath, Tel: 961-5-461777 - 888 - Fax: 961-5-461999, Mobile: 961-3-640490
Cairo - Dokki, 002023365152 - Mobile: 0020126510561
Syria - Damascus, 00963114644010 - 020 - 030 - Mobile: 96394997764
Web site: www.lccpublishers.tk E-mail: lcc_ pub @ yahoo.com

حرف الألف

1 ـ أوبيت سانسم.

2 ـ أورسولا بيتشر.

3 ـ أورسولا همبرغر.

4 ـ أورسيل لورنزين.

5 ـ إيديث كافيل.

6 ـ إيريكا ماري شامبرز.

7 ـ إيرينا سولتانوفنا.

8 ـ إيڤا بتروفوكا.

9 ـ إيڤا توغوري.

10 ـ إيڤا دي بورنونفيل.

11 ـ إيڤا موللر.

12 ـ إيڤا وي.

13 ـ إلكا فالك.

14 ـ إيما إدموندز.

15 ـ إيميليا فون هـ.

أوديت سانسم(*)

(Odette Sansem)

(-   )

هي إحدى عميلات المخابرات البريطانية العاملة في فرنسا أثناء الاحتلال الألماني لها.

ولقد قامت أوديت سانسم بأعمال خطيرة إبان الحرب العالمية الثانية؛ ولكن تلك الأعمال تبدو أقلّ شأناً، إذا ما قيست بالبطولة التي أبدتها حين سقطت في يد العدو. كانت هذه الفرنسية بريطانية بالتبنّي؛ وقد استجابت لنداء الواجب في أحلك أيام الحرب؛ فانضمّت إلى زمرة الكولونيل موريس بكماستر، في القسم الفرنسي لوزارة الحرب البريطانية. وبعد أشهر من التدريب المرهق، أطلقت في فرنسا أثناء الإحتلال الألماني، لتقدم المعونة للحلفاء وللمقاومة.

وقضت ستة أشهر في إنجازات رائعة، ثم قبض عليها الألمان، فأظهرت إذ ذاك من الصبر والتضحية والجلد ما جعلها في مصاف الأبطال. وليس هناك شيء خيالي في كتاب (أوديت) الذي وضعه الميجر تَكِل، فهو بعد أن اطلع على المضانّ الرسمية، يصف بشكل

(*) **المرجع**: مدحت الجادر «غزاة في الظلام». مكتبة النهضة. بغداد. الطبعة الأولى 1987. ص49 ـ 62.

حيّ وأمين حياة هذه الفتاة من أوائل طفولتها، إلى مغامراتها في فرنسا، إلى معاناتها على يد الغوستابو.

إن الفقرات التالية ملخصة من الكتاب المذكور، وفيها الكثير من دواعي المرارة والألم؛ ولكن ما من شيء يجعلنا عظماء مثل ألم عظيم! :

في حوالى الساعة السادسة من ذات صباح، فتح باب الزنزانة 108، وصاح صوت: «محكمة»!.

فاضطرب قلب أوديت، وسحبت نفساً طويلاً مرتجفاً، لقد كانت تعلم أن استدعاء الغوستابو لها أمر لا بد منه، وكانت تتوقعه كل صباح منذ وصولها إلى فِرِسْن قبل أسبوعين تقريباً، وكانت قد وطّنت نفسها على تقبله بسكينة... ولكن مع ذلك كله، فإن مجرد علمها بأنه قد أصبح حقيقة واقعة، جرّدها من قوتها بصورة مؤقتة، لقد استدعيت نساء أخريات إلى رقم 84 في شارع فوش، فعاد قسم منهن دون أن يقلن شيئاً عما حدث هناك؛ ولكن أغلبهن لم يعدن، فحلّت نزيلات جدد في زنزاناتهن. وجلست أوديت في فراشها تستعرض القصة التي قررت أن تقدمها إلى المستجوبين، فاحصة كل كذبة لكيلا تكون فيها زلة. ثم صُبت لها القهوة من فتحة في الباب، فشربتها بشره إذ كان فمها جافاً. وهمست إلى جارتها ميشيل أنها قد استدعيت أخيراً «للمحكمة»، فقالت هذه أنها تأسف لأول مرة في حياتها لأنها غير مؤمنة... «فلو كنت مؤمنة لصليت من أجلك.. إني سأظل خائفة عليك طيلة النهار».

أُخذت أوديت من السجن في الثامنة صباحاً، وعادت في وقت متأخر بعد الظهر. وحين ابتعد حراس الـ S.S نصبت سلّمها فصعدت، فنادت بصوت هامس من فتحة التسخين:

ـ هالو، ميشيل.

ـ سيلين، هل عدت؟

ـ نعم، لقد عدت.

ـ أخبريني بما حدث... أخبريني بكل شيء... لقد كنت خائفة عليك كل النهار.

ـ لم يكن هناك من داع للخوف في هذه المرة. لقد أخذوني في «وعاء السلاطة» (أي حافلة السجن) إلى شارع فوش؛ ثم أودعوني في غرفة صغيرة، فأغلق عليّ الباب. وانتظرت هناك ثلاث ساعات، ثم قُدم إلي غداء فخم: لحم... وبطاطا... ومرق.

وتنهدت ميشيل، في حين استطردت أوديت:

ـ لقد عرفت القصد من هذه الوليمة... إنهم يريدون قبل الاستجواب أن يشيعوا فيّ الخدر والنعاس! فأخذت حذري، وأكلت نصف الوجبة. لقد أخفيت لك بطاطا واحدة، وسوف أحتال في إيصالها إليك.

ـ بطاطا... يا إلهي!.

ـ ثم استدعاني الكوميسيير. إنه شاب جميل، ناعم، يشعّ نظافة، ويفوح عطراً. وألقى عليّ كومة من الأسئلة بكل أدب، وأنفق في ذلك ساعتين كاملتين؛ ومع ذلك لم يستطع أن يكتب في ورقته الكبيرة شيئاً ذا بال سوى ثلاثة أسطر! وفي النهاية قال لي إننا سوف نلتقي ثانية... ثم عادت بي «ماريا السوداء» (المقصود حافلة السجن) إلى هنا. وهذا كل شيء. إني الآن سأتطلع من النافذة لأرقب غروب الشمس.

آه! يا لي من امرأة محظوظة... أذهب إلى شارع فوش ثم أعود كما أنا!.

❁ ❁ ❁

ـ محكمة!.

ـ ولكن... لقد ذهبت أمس إلى المحكمة؟!.

ـ ستذهبين اليوم ثانية... محكمة، محكمة!.

وأُغلق الباب بعنف. وهجس في نفس أوديت هاجس بأن الأمر في هذه المرة، سيكون عظيم الوطأة. لقد أخبروها في إنكلترا عن كوميسييريي الغوستابو: إنهم اللّب المنتقى من هذه الزمرة: شباب أنيقون، نظيفون، قد دُربوا تدريباً طويلاً دقيقاً في مدرسة هملر رقم 1. وهم لا يرتدون بزّة رسمية، ولا يشبهون الأدعياء العاديين من رجال الـ S.S ومهمتهم الأولى حمل الأشخاص على الكلام! والجسم البشري في نظرهم، ما هو إلاّ مادة خام تُقسم إلى مناطق للألم المبرّح. فالشخص، ذكراً كان أو أنثى، هو بالقياس إليهم موضوع... رقم... وحدة! أو هو مجرد شفرة قادمة من سجن فرسن: ولكنها شفرة ذات لسان وأعصاب حسّاسة. وهذه الأعصاب إذا شرّطتها، نطق اللسان بما يطلب من الكلام.

إنهم أخصائيون أكفاء للغاية، ويفخر بهم أسيادهم، ذلك أنهم لا يقبلون الصمت جواباً، ما دام «موضوع» استجوابهم يتنفس! وأحياناً يكون الموت أرحم راحم، فيتلقَّف الضحية من بين أيديهم... أما هم فيجرّ عليهم التوبيخ الشديد!.

وأخبرت أوديت صاحبتها بأنها ذاهبة إلى الغوستابو كرة أخرى، فقالت:

ـ أوه... إلى هناك... وفي يومين متعاقبين؟ ما أرى في هذا الأمر خيراً... إني سأكون قلقة عليك طوال النهار.

سيلين... إذا أتيحت لك الفرصة، فاجلبي لي بطاطا أخرى.

ـ ميشيل... لا أخالني اليوم أستطيع أن أصرف همي إلى البطاطا، ولكن إذا أتيحت الفرصة فسأفعل.

ـ حاولي يا سيلين... إن الجوع يفعل في معدتي فعل الرمح.

ـ إلى المساء.

ـ إلى المساء.

وشربت أوديت قهوتها، ثم راحت تتأمل دولاب ملابسها البائس. وأخيراً ارتدت ثيابها المتيسرة فيه، والجورب الحريري الوحيد الذي تمتلكه. وقبل الثامنة بقليل، أقبل حراس السجن فاقتادوها إلى «ماريا السوداء». وكان صباحاً جميلاً، رقّطت فيه الشمس أديم الساحة.

كانت الحركة في رقم 84 بشارع فوش، أشد مما كانت عليه بالأمس. وأُخذت أوديت إلى غرفة في الطابق الثالث، ثم استدعيت إلى حجرة الاستجواب على الفور، ووجدت نفسها ثانية أمام ذلك الكوميسيير الشاب اللطيف نفسه جالساً إلى منضدته، وقد بسط فوقها تلك الملاحظات القليلة التي دوّنها بالأمس. كان في أتم الحيوية والنشاط، فكأنه قد فرغ من الحمام البارد لتوّه؛ وكذلك شمّت رائحة ذلك العطر اللطيف. وأشار إلى كرسي في مواجهته، فجلست عليه وظهرها إلى الباب. قال بفرنسية تكاد تكون متقنة:

ـ ليز... لقد أضعت الكثير من وقتي بالأمس، ولن أسمح لك

بأن تضيعي منه المزيد. هناك ثلاثة أسئلة أريد جوابها. الأول: أين هو عامل اللاسلكي الذي يدعى آرنو؟.

فلم تجب.

ـ سوف نرى. لقد أرسلت الضابط البريطاني روجر من سانت جوريو إلى عنوان في جنوب فرنسا، فأريد أن أعرف هذا العنوان.

فلم تجب.

ـ سوف نرى مرة أخرى. إنك قبل إلقاء القبض عليك بيوم أو يومين، قد حصلت من خائن فرنسي على مخطط لأحواض السفن في مارسيليا. ولم يُتح لك بعد الوقت الكافي لإرسال هذا المخطط إلى إنكلترا؛ فأريد أن أعرف أين هو الآن؟.

فلم تجب.

ـ ليز، إن في تصرفك هذا شيئاً يهيّجني. هذه ثانية الأسئلة: أين آرنو؟ ما هو العنوان في جنوب فرنسا؟ أين مخطط مارسيليا؟ أمهلك دقيقة واحدة لإعطاء الأجوبة.

ثم نظر إلى ساعة يده؛ وكانت ساعة معقدة فيها الكثير من المعلومات الثانوية عن الأجزاء الفرعية للأوقات الأبدية. قال:

ـ حسناً يا ليز، أريد الآن أجوبة أسئلتي.

ـ ليس لديّ ما أقوله.

ـ هذا هو الحمق بعينه: فلدينا الوسائل التي تجعلك تتكلمين.

ـ أنا عليمة بوسائلكم. هل تظن أننا نأتي من إنكلترا إلى فرنسا دون أن نعرف الشيء الذي تستطيعون أن تصنعوه بنا؟ عليك أيها السيد أن تعترف لنا ببعض الفضل.

وتسلّل الآن إلى الغرفة رجل آخر، فوقف خلف كرسيها؛ فأمسك بذراعيها وجعلهما وراء الكرسي فتقدم إليها الكوميسيير، وجعل يفتح أزرار قميصها على مهله، فقالت:

ـ إني أشمئز من أن تقع يدك عليّ أو على ثيابي: فلو قلت لي ماذا تريدني أن أفعل، وأطلقت إحدى يديّ، فسأفعله.

ـ كما ترغبين. افتحي قميصك.

ففتحت زرّين من الأعلى، فسحب الرجل الذي خلفها القميص إلى الوراء، بحيث تنكشف ثنيات عمودها الفقري، ثم تناول قضيباً محمياً إلى درجة الاحمرار فوضعه على الفقرة الثالثة. فمالت أوديت إلى الأمام، فتحرّك فم الشاب الجميل، فجاءها صوته من بعيد:

ـ أين آرنو؟.

ـ ليس لدي ما أقوله.

ـ إنك أكثر من حمقاء.

وفتح علبة سجائره فقدمها إليها، ثم أشعل مقدحة. فهزت أوديت رأسها صامتة علامة الرفض، فقال وهو يبتسم:

ـ هذا حسن... ولكني أؤكد لك أن هذه السجائر ليست مسمومة، وها أنذا أدخن إحداها. هل أخبروك في مدرسة الهواة في نيوفورست أن تكوني حذرة من السجائر المسمومة؟... على كل حال، أنت تعرفين الآن الأسئلة الثلاثة، فهل أنت ـ بعد الفاتحة الشهية ـ مستعدة للإجابة، أم أنك تريدين الوجبة الكاملة؟

ـ ليس لدي ما أقوله.

فدنا منها وعلى شفتيه نصف ابتسامة، ففاحت منه رائحة الحمام والكولونيا. قال:

ـ لربما تفضلين أن تخلعي حذاءك وجوربك بنفسك، وإلاّ فإني خبير بفكّ الحمّالات النسائية؟

ـ سأخلعهما بنفسي . .

ذلك أن تعذيب هذا الألماني النظيف، المعطر، قد يطاق، أما مسّه إياها بيده، فهذا مما لا تطيقه على الإطلاق. فأخرجت قدمها من الحذاء، ولفّت جوربها إلى الأسفل، ثم لملمت تنورتها فوق ركبتيها.

قال الكوميسيير:

ـ ليز . . . إن زميلي هذا سيقلع أظافر قدميك واحداً واحداً، بدءاً بالأصبع الصغير للقدم اليسرى. وفي أثناء القلع سأكرر أسئلتي. وأنت تستطيعين في أية لحظة أن تضعي حداً لهذه العملية؛ وذلك بأن تجيبي على تلك الأسئلة. هناك من يغمى عليه بعد الظفر الثالث أو الرابع، ولكني ما أظنك من هؤلاء القوم. ومع هذا، إذا حدث أن أغمي عليك بالفعل، فإننا مستعدون لإنعاشك ثم نواصل الاحتفال! والآن قبل أن نبدأ، أين آرنو؟

ـ ليس لدي ما أقوله.

وانحنى زميله عند قدميها، كان شاباً دون الثلاثين، له جمال البحر المتوسط وسمرته: ولكن له سمة مريعة غير بشرية. نظر إليها بعينين زائغتين، فلم ير فيها امرأة. . . بل شيئاً حساساً يتصل بقدم حافية!.

تناول قدمها اليسرى، ثم راح بيده اليمنى يعمل كمّاشة فولاذية في ظفرها. . . فتدفقت شبه دائرة من الدم، ثم سقط الظفر على الأرض. قال الكوميسيير:

ـ هل يهمك الآن أن تخبريني بعنوان آرنو؟

فحاولت أن تجيب بالنفي، ولكن الصوت لم ينبعث من فمها. فاكتفت بأن هزت رأسها. فأومأ إلى الشاب الجاثي عند قدميها، بينما جلس هو على حافة المنضدة يأرجح قدميه. فأطبقت الكماشة على الظفر التالي بقوة، ثم راحت تتراجع ببطء: تارة إلى الوراء، وأخرى إلى اليمين، وثالثة إلى اليسار. وأخيراً أفلتت والظفر بين فكّيها، بينما أطبق على أوديت ألم فظيع جعل يتنقل في رجليها من أصبع إلى أصبع. ومن قدم إلى قدم، وهي لا تطلق صرخة واحدة. وفي غمرة ذلك كله، طن السؤال في أذنيها.

ومضت فترة كأنها الأبدية، نهض بعدها معذّبها والكماشة بيده؛ وجعل ينظر إلى الكوميسيير بخنوع، منتظراً المزيد من الأوامر. وحملقت أوديت غير مصدقة، في الفرن الدموي في قدمها، وفي الأظافر المبعثرة فوق الأرض ـ نتاج طب للأقدام من عمل الشيطان! وكانت أصوات أبواق السيارات في الشارع، تصعد إليها في الجو المشمس، هزيلة، مضطربة كالحشرجة، في حين راحت تشعر بألم إضافي في راحتي يديها.

وجاءها صوت الكوميسيير:

ـ حسناً يا ليز، أظن أنك ستجدين من المريح أن تمشي على كعبيك لبعض الوقت... والآن، أحب أن أقدم لك شراباً: قدحاً من النبيذ... قليلاً من البراندي... أو أفضل من ذلك، كوباً من الشاي...

ثم تبسم، فقال:

ـ في إنكلترا، البلد الذي تبنّوك فيه، يكون كوب من الشاي

علاجاً لجميع الشرور... سوف أسمح لك ببعض الشاي... إنك امرأة ذات تحمّل مذهل!.

وأخذت تشرب الشاي وجسمها يرتعد؛ في حين راح الكوميسيير يتحدث إليها في مراح، ولكنها كانت لا تكاد تسمع منه كلمة. كانت تشعر كأنها تغرق في موجات متعاقبة من الغثيان، فتحاول يائسة أن تبلغ الساحل. ثم انتهى الغثيان؛ فاستعادت جدران الغرفة شكلها وصلابتها. ومالت أوديت في كرسيها إلى الخلف، فأغلقت عينيها. ومع أن أصابع قدميها الممزقة، قد صارت عشرة مراكز منفصلة للألم المبرّح، إلاّ أنها قد شعرت بشيء من الزهو يطغى عليها ـ لقد كانت أوديت حقاً... وقد لاذت بالصمت المطبق. وكان لديها الآن دافع يكاد لا يقاوم لأن تتكلم بحرية، وأن تضحك، وأن تثرثر... بأي شيء يخرج أصواتاً بلسانها ومن فمها! ولكنها أدركت إذْ ذاك أن هذا الإحساس بالظفر هو الخطر بعينه؛ وهو ما كان رجال الغوستابو يريدونها أن تشعر به. فإن شعورها بالراحة وبالنصر، يمكن أن يكون في أيديهم سلاحاً أمضى من الكماشة الفولاذية! وجعل الكوميسيير يراقبها كالقط، كما لو كان عليماً بمجرى أفكارها. وفتحت عينيها فتطلّعت إليه. ومثلما كان هو يراها مجرد جهاز عصبي، كانت هي تراه الآن ليس كوميسييراً من الغوستابو، بل حتى ليس إنساناً البتة... لقد صارت تراه على حقيقته ـ مخلوقاً أفرغت منه كل رأفة إنسانية، وكل فهم بشري، ثم ملىء الفراغ الذي تُرك بالكفران، بعمد واتقان!.

وارتسمت على فمه نصف ابتسامة، ثم قال:

ـ حسناً... كيف تشعرين؟

ـ ليس لدي ما أقوله.

ـ إننا من ناحية الحديث صار كل منا يسأم الآخر. . . أنا أكرر الأسئلة نفسها، وأنت تكررين الأجوبة عينها. ولا مرية في أنك تخالين نفسك في هذه اللحظة بطلة. وتنظرين إليّ كوحش. أنا لست وحشاً، بل خادماً لسيدي الفوهرر، أدولف هتلر؛ ولا أأسف على ما أفعل. فينبغي أن تعلمي أني لن أقف عند شيء في سبيل الحصول على المعلومات التي أريدها. . . في الليلة الماضية ألقت القوة الجوية الملكية اللطيفة ألفي طن من القنابل فوق دورتموند. ولست أدري كم من الرجال والنساء والأطفال الألمان الطيبين، قد قتلوا أو شوّهوا أو أحرقوا. فإذا كان القتل بالجملة من قبل الطائرات المذكورة يعتبر عملاً مشروعاً من أعمال الحرب، فهل تظنين أني أقيم وزناً لما تعانيه امرأة فرنسية واحدة، عنيدة، مارقة؟!.

ـ إني يهمني يا سيدي أن أرى أنك تعتبر من الضروري أن تدافع عما فعلت منذ قليل.

ـ لا شيء من هذا القبيل. . . نحن الألمان ليست بنا حاجة للإعتذار عن أنفسنا إلى الأجناس الخاضعة لنا. فهل ستجيبين على أسئلتي؟

ـ كلا.

ـ إذن سأوعز بأن يفعل بأصابع يديك مثلما فعل بأصابع قدميك.

وحدقت أوديت في يديها، والأظافر الوردية، واللحم الحي المحيط بها؛ ثم انتقلت عيناها إلى أسفل. . . إلى الكتل المتخلفة عن العملية التي أجريت لقدميها؛ فتقلّبت معدتها من الخوف والتقزّز، وسمعت الباب يفتح، ثم صوت خطوات في الغرفة. فقفز الكوميسيير إلى وقفة الاستعداد وأدى التحية. وتقدم إلى المنضدة رجل في ملابس

مدنية، فنظر عرضاً إلى الحثالة الدموية على الأرض، ثم حدث الكوميسيير حديثاً قصيراً بالألمانية، ثم هزّ كتفيه وخرج.

قال الكوميسيير:

ـ يقول الميجور أني أضيع وقتي معك، فإنك لن تتكلمي مطلقاً. ويبدو أن لديه فكرة أسمى من فكرتي عن جَلَد الفرنسيين، وإِن كنت لا أتفق معه. أنت امرأة محظوظة يا ليز، فقد أمر الميجور أن تتركي الآن وشأنك. ولكن لست أشكّ في أننا سوف نلتقي مرة أخرى.

ثم أصدر أمراً، فوضع الرجل الأسمر الكماشة على المنضدة. وحين نطق هذا لأول مرة، أثار الرعب في نفس أوديت... فلقد قال بلغته الفرنسية الفصيحة:

ـ اسمحي لي يا سيدتي!.

ـ فتناولت حذاءها وجوربها، وسعت تتعثر في ألم شديد نحو الباب.

❀ ❀ ❀

وفي الزنزانة 108 في فرسْن، جعلت أوديت تصنع في وهن من ملابس السجن أشرطة، ثم تبلّلها وتعصب بها قدميها. ثم إِستلقت على ظهرها فوق الفراش، وسكنت كأنها جثة هامدة.

وسمعت ميشيل تناديها، فرغبت في أن تذهب إلى الكوّة لتعتذر عن عدم وجود بطاطا لديها؛ ولكنها عجزت عن تحريك عضلة واحدة. وراحت أشعة الشمس تتحول إلى اللون البرتقالي، والعتمة تطبق على زنزانتها.

وفي الفترة ما بين الغسق والظلام، فتح قفل الباب ودخلت

امرأة من الـ S.S تحمل وعاء الحساء، فوضعته إلى جانب الفراش. وكانت أوديت أضعف من أن تجلس ومن أن تشرب؛ فبقي الوعاء في مكانه لم يمسّ. وقد تذكرت وهي في سكونها وصمتها ما ملأ نفسها رعباً وغثياناً ـ تذكرت ما سمعته حول أشياء أخرى يفعلها الغوستابو بأجساد النساء!.

وفي وحدتها وسط وحشة الزنزانة، أخذت تشعر بانهيار قواها في النهاية.

أورسولا ديتشر(*)
(Orsolla Ditcher)
(-   )

هي إحدى الجاسوسات البولونيات التي حصلت على أهم وثيقة أميركية حول بولونيا من السكرتير الثاني في السفارة الأميركية في فرصوفيا «ايرفين سكاربك» إثر غرام في وارسو، كعشيق لها... فكيف حدث ذلك؟

كان ذلك في سنة 1961، وفي مرحلة دقيقة حسّاسة من العلاقات المتوترة بين الشرق والغرب، حيث كانت حركة خاطئة صغيرة تكفي لإلقاء العالم في أتون الدمار الذرّي.

ففي صباح 14 حزيران (يونيو) صدرت الصحف الأميركية الكبرى وعلى صفحاتها الأولى صورة «**ايرفين سكاربك**» السكرتير الثاني في السفارة الأميركية في فرصوفيا، يحيط به إثنان من رجال الأمن، ويداه مكبلتان بالسلاسل. كما حملت تلك الصحف في صدرها عناوين ضخمة عن هذا الدبلوماسي وتوقيفه في واشنطن بتهمة بيع أسرار بلاده إلى إحدى دول المعسكر الشيوعي.

(*) **المرجع**: نجدة فتحي صفوت «حكايات دبلوماسية». دار النهار. بيروت 1970. ص74 ـ 92.

ولم تنقطع تلك الصحف، خلال الأشهر الستة التالية، عن نشر تطورات قضية هذا الدبلوماسي، وسير محاكمته، إلى جانب تصريحات وريبورتاجات متنوعة عن كل من ظهرت له علاقة بها. **وكان سبب هذا الاهتمام الكبير من الصحافة والرأي العام بالقضية هو أنها كانت على ما ذكرته تلك الصحف، ما صرّح به وزير الخارجية دين رسك ـ أول حادثة يبيع فيها دبلوماسي أميركي أسرار بلاده إلى دولة أجنبية، فضلاً عن الظروف والملابسات التي أحاطت بالقضية واكتشافها.**

ولم يقم هذا الدبلوماسي المنكود بما قام به طمعاً في المال، ولا بسبب عقيدة سياسية، وإنما من أجل فتاة بولونية في الثانية والعشرين من عمرها، ذات عينين نجلاوين، وصوت ذي بحّة مغرية، وجسم نحيل دقيق الأعطاف. وكان من المحتمل جداً أن يتمكن من إخفاء فعلته هذه، فينجو بنفسه، لولا سلسلة من المصادفات الغريبة التي أدت إلى افتضاح أمره، وإلقاء القبض عليه.

عيّن ايرفين سكاربك سكرتيراً ثانياً في السفارة الأميركية في فرصوفيا في أواخر سنة 1958 فعهدت إليه أعمال السفارة الإدارية، كالإشراف على شؤون المستخدمين المحليين (وعددهم 135 شخصاً بولونياً)، وشؤون سكنى الموظفين وتسفيرهم، وصيانة أبنية السفارة، واستيراد حاجاتها وحاجات موظفيها من أطعمة ومشروبات. **وكان السفير الأميركي «جاكوب بيم» يشجع موظفيه ـ مهما كانت أعمالهم ـ على قراءة التقارير والمراسلات التي تتبادلها السفارة مع وزارة الخارجية** والسفارات الأميركية الأخرى في البلاد المجاورة، ليكونوا على صلة بشؤون البلد الذي يعملون فيه، واطلاع على الوضع الدولي والسياسة العالمية. ولكن واجبات «سكاربك» لم تتطلب شيئاً من ذلك، كما أنه لم يظهر من جانبه اهتماماً زائداً بالتقارير والمراسلات

السرّية في الإضبارة الخاصة التي كانت تدور على الموظفين الدبلوماسيين ليطلعوا عليها. وكان السفير يشجع موظفيه أيضاً على التمتع بإجازاتهم، ليبتعدوا من حين لآخر عن جوّ العمل، وجوّ فرصوفيا، ترفيهاً عنهم وتجديداً لنشاطهم.

وفي مطلع سنة 1961 لم يكن «سكاربك» ليعتزم الذهاب بإجازة إلى أي مكان، وكان أصدقاؤه يرونه مشمّراً عن ساعديه، ومنكباً على عمله حتى ساعات متأخرة من الليل، وقد تدلّت خصلة شعره الذي اختلط مسودّه بمبيضّه على أكوام المعاملات أمامه.

وكان «سكاربك» في الأربعين من عمره، وله زوجة ألمانية وثلاثة أطفال، وهي زوجته الثانية. أما زوجته الأولى فقد طلقها منذ سنوات، وهي تقيم مع زوجها في أميركا. وكان زملاء «سكاربك» يصفونه بأنه موظف دؤوب على العمل، بل إنهم لاحظوا أنه لشدة انصرافه لعمله لم يسافر مع زوجته وأطفاله الثلاثة لزيارة والدة زوجته في «دوسلدورف» بألمانيا. وقد لاحظ ذلك أيضاً ـ فيمن لاحظه ـ زميله «فيكتور ديكيوس» وهو الموظف المسؤول عن شؤون الأمن في السفارة، وكانا ـ هو وزوجته ـ صديقين لـ «سكاربك» وزوجته. فقد استغرب «ديكيوس» بقاء «سكاربك» بمفرده في فرصوفيا، بينما كان باستطاعته أن يسافر مع أسرته إلى ألمانيا، ولم يكن ثمّة ما يدل على أن العلاقات بين «سكاربك» وزوجته ليست على ما يرام.

وفي أوائل نيسان (أبريل) سنة 1961 جاء إلى موظف الأمن «ديكيوس» أحد موظفي الشعبة القنصلية في السفارة، فأبلغه بحدث صغير ولكنه غير اعتيادي، وهو أن «سكاربك» قد توسّط لفتاة بولونية في الحصول على سمة لدخول ألمانيا الغربية. وكان القنصل الأميركي

في ذلك الوقت مخوّلاً منح سمات الدخول إلى ألمانيا الغربية نيابة عن حكومتها بسبب عدم وجود تمثيل دبلوماسي بينها وبين الحكومة البولونية. وقد أفاد ذلك الموظف أن أحد مساعدي «سكاربك» اصطحب الفتاة البولونية إلى مكتب السمات، وأبدى أن «سكاربك» يرجو مساعدتها ومنحها السمة بأسرع ما يمكن، لأنها تريد السفر بصورة عاجلة، لتكون إلى جانب سرير أخيها الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة في فرانكفورت. وأبرزت الفتاة برقية وردتها من أخيها المريض يطلب فيها حضورها فوراً.

ولم يكن اهتمام «سكاربك» بحصول الفتاة البولونية على السمة هو الذي لفت نظر الموظف القنصلي، أو أثار استغرابه، بل إنه استغرب كيف استطاعت أن تحصل على جواز السفر. إن الحكومة البولونية لم تكن لتمانع في سفر العاجزين والمرضى، ولكنها لا تسمح عادة بسفر رعاياها الفتيان والفتيات إلى الغرب، لأنها ترى أن مستقبل البلاد يتوقف على سواعدهم.

وبينما كان هذا الموظف يتحدث، خطر لـ «ديكيوس» أمر، فكان ذلك أولى المصادفات التي رافقت هذه القضية. كان «ديكيوس» قد اطّلع صباح ذلك اليوم على قائمة طلبات الإجازات التي يقدمها الموظفون، وكان بينها طلب من «سكاربك» لإجازة أمدها أسبوعان يقضيهما في فرانكفورت، حيث كانت الفتاة البولونية ستذهب أيضاً.

وتذكر «ديكيوس» أنه سمع بأن زوجة «سكاربك» وأطفاله كانوا لا يزالون في دوسلدورف، فلعله ينوي أن يلتحق بهم هناك، ثم يصطحبهم إلى فرانكفورت. وقد ألقى هذا السؤال عرضاً على موظف في السفارة يسكن بجوار «سكاربك»، فقال الموظف:

«زوجة سكاربك؟ إنها حسبما فهمت في طريقها إلى فرصوفيا».

وسواء أكان ذلك الموظف ميالاً إلى الثرثرة، أم أنه شكّ في أن اهتمام «ديكيوس» بأمر «سكاربك» كان أكثر من اهتمام عرضي، فإنه تطوّع بملاحظة صعق لها «ديكيوس» إذ تساءل قائلاً:

«وعلى ذكر سكاربك، ما سبب هذا الاهتمام المفاجىء الذي يبديه بقراءة الملفات؟ لقد كنت أداعبه في ذلك قبل أيام..».

وكان يقصد إضبارة المخابرات السرية التي طالما تجاهلها «سكاربك» في السابق ولم يظهر كبير اهتمام بها.

وعاد «ديكيوس» إلى مكتبه ليفحص قطع المعلومات التي تساقطت أمامه فجأة، ويربط بعضها ببعض.

جواز سفر لشابة بولونية.. اهتمام مفاجىء بالملفات السرّية.. سفرة «سكاربك» إلى فرانكفورت، بينما توشك زوجته أن تعود من دوسلدورف التي تبعد عنها ساعتين بالسيارة.. رغبة الفتاة في الذهاب إلى فرانكفورت.. أهي جميعاً محض مصادفات، أم أن فيها أكثر من ذلك؟.

وتمتم «ديكيوس» لنفسه: «إن هذا كثير.. ولا بد أن أتحرّى ماذا يصنع «سكاربك» في فرانكفورت.

وفي مساء ذلك اليوم أرسل «ديكيوس» برقيتين سرّيتين، إحداهما إلى الموظف المسؤول عن الأمن في السفارة الأميركية في بون (واسمه كينيث نوف) يطلب إليه فيها أن يخرج عن القاعدة المرعيّة بعدم التعرّض للحياة الشخصيّة لموظفي الخدمة الخارجية ومراقبة «سكاربك» في فرانكفورت، والثانية إلى واشنطن لتأييد هذا الإجراء.

وفي دائرة الأمن بوزارة الخارجية في واشنطن جرى نقاش طويل حول برقية «ديكيوس»، وتقرر بنتيجته أن مراقبة «سكاربك» في فرانكفورت ليست اعتداء كبيراً على حريّته الشخصية، وليس من الضروري أن يعلم هو أو غيره بأنه مراقب، فإن كانت الإجازة بريئة فلن تترتب على الأمر نتيجة، وإن كان في أمر «سكاربك» ما يريب، فتلك خير طريقة لاكتشافه.

وغادر «سكاربك» فرصوفيا في 13 نيسان (أبريل) بسيارته، بعد أن حجز شقّة في دار الضيافة الأميركية في فرانكفورت، وهي عبارة عن شقق صغيرة أعدتها الحكومة الأميركية لموظفيها المارّين بفرانكفورت أو القادمين إليها بإجازة أو زيارة قصيرة في طريقهم إلى أماكن عملهم الجديدة في أوروبا. وفي اليوم نفسه حجز «نوف» ـ موظف الأمن في سفارة بون ـ شقة أخرى تطل على مدخل الشقة التي حجزت لـ «سكاربك». وبالرغم من أن كلا الرجلين كانا موظفين في وزارة الخارجية فلم يكن أحدهما ليعرف الآخر، ولم يسبق لهما أن التقيا.

وفي ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم وصل «سكاربك» إلى دار الضيافة، ورآه «نوف» يدخل شقته، ثم رآه يغادرها صباحاً. وأدرك «نوف» أنه لن يستطيع تعقّبه في فرانكفورت، فقرر الاستعانة بالشرطة الألمانية، فأعطاها أوصاف سيارته ورقمها.

وفي صبيحة اليوم التالي كان موظف الأمن «نوف» يترصّد شقة «سكاربك» من نافذته، فلما رآه يخرج أراد أن يتأكد من تعقب الشرطة الألمانية له، فخرج وراءه في هدوء، ورآه يخرج بسيارته من منعطف دار الضيافة، وخلفه سيارة ألمانية تتبعه. وبينما كان يعود إلى شقته

لاقى في الباب الرئيسي فتاة نحيفة تمرّ أمامه مسرعة، فلم يلق إليها بالاً.

وبعد مدة قصيرة كان أحد رجال الشرطة الألمانية يكلم «نوف» بالتليفون ليخبره بأن «سكاربك» لم يكن يتعقبه حتى النهاية، وأن سيارة الشرطة فقدت أثره في زحمة السيارات، ولكنه أخبره أيضاً بأن «سكاربك» عند خروجه من باحة الضيافة استدار بسيارته إلى اليمين ثم وقف في المنعطف، وهناك صعدت إلى سيارته فتاة نحيفة، ذات شعر قصير غامق، ووجنات غائرة، وكانت ترتدي بذلة ذات خطوط متقاطعة، سوداء وحمراء.

وتذكر «نوف» الفتاة التي صادفها في الباب، فهل كانت هذه أوصافها؟ وهل كان «سكاربك» أدخلها إلى دار الضيافة خلسة؟ وإذا صحّ ذلك فمن تكون؟ فوجّه استفساراً إلى «دائرة الهجرة» لتتأكد من سجلات الداخلين إلى ألمانيا عن وصول الفتاة البولونية «أورسولا ديتشر» التي حصلت على سمة الدخول من فرصوفيا بمساعدة «سكاربك». ولما كانت السلطات الألمانية تشترط أن ترفق طلبات سمة الدخول بصورة طالب السمة، فإن الشرطة قد تستطيع تمييز الفتاة من الصورة التي أرفقتها بطلبها. وإذا كانت الفتاة التي دخلت سيارة «سكاربك» هي «أورسولا ديتشر» فإن وجودها معه يدل على أن اهتمامه بحصولها على السمة الألمانية كان بلا ريب أكثر من مجاملة أو مساعدة عابرة، وأن الموعد في فرانكفورت كان بترتيب سابق.

وفي صباح اليوم الثالث كان «نوف» على شباك غرفته ينتظر خروج «سكاربك»، فلما رآه خارجاً أخبر الشرطة، ثم أخذ يراقب باب شقته. وبعد بضع دقائق رأى الباب يفتح بهدوء، ثم فتاة تتسلل

منه على أطراف أصابعها، فتاة نحيفة ذات شعر قصير غامق، ووجنات غائرة، وكانت ترتدي بذلة ذات خطوط متقاطعة، سوداء وحمراء. وعاد «نوف» إلى النافذة، فشاهد الفتاة وهي تخطر على الشارع مسرعة بكعبيها العاليين، ثم تستدير يميناً نحو المنعطف الذي ذكرت الشرطة أنها شاهدت «سكاربك» يتوقف فيه في اليوم السابق، ويأخذ الفتاة بسيارته.

وفي هذه المرة حرصت الشرطة الألمانية ألاّ تفقد أثر «سكاربك» فتعقبته إلى إحدى ضواحي المدينة، وتمكنت من التقاط صورته مع الفتاة وهما يتناولان الغداء على شرفة فندق مطلّ على نهر الراين. وبعد الغداء خرج الاثنان في جولة على طرق محاذية للنهر. وكان النهار جميلاً، وكلما توقفت السيارة في إحدى نقاط التقاطع بانتظار مرور القطار، كانا يميلان على بعضهما.. ولدى عودتهما إلى دار الضيافة شاهدتهما الشرطة يدخلانها منفردين.

ولم يعد ثمّة شك بأن الفتاة كانت تشارك «سكاربك» شقّته، واستطاعت الشرطة الألمانية فيما بعد أن تتأكد من هوية الفتاة بمقارنة الصور التي التقطت خلسة خلال الغداء على شرفة الفندق، بالصور المرفقة باستمارة طلب السمة.

ولمّا أبرق «نوف» بالأمر إلى واشنطن، أدرك المسؤولون في وزارة الخارجية أن قضية «سكاربك» من الأهمية بدرجة تستوجب عرضها على وزير الخارجية. وكان يستنتج منها أكثر من إهمال بسيط من جانب «سكاربك» أو مغامرة غرامية اندفع فيها. وطالما كانت العلاقة بينه وبين الفتاة قائمة قبل مجيئهما إلى فرانكفورت، **فلا شك أن الاستخبارات البولونية كانت على علم بها، وذلك يزيد في أهمية**

الفتاة بنظرهم، ومع ذلك فقد سمحوا لها بمغادرة البلاد، ومنحوها جواز سفر، فما تفسير ذلك؟.

لا بدّ أن هنالك مبادلة، وأن جواز السفر كان ثمناً لشيء ما. والفتاة إمّا أن تكون جاسوسة سلّطت على «سكاربك»، أو أن السلطات البولونية اكتشفت علاقتها بالدبلوماسي الأميركي فأجبرتها على التعاون معها.

على أن هنالك احتمالاً آخر، وهو أن يكون منح الفتاة جواز السفر مكافأة للدبلوماسي الأميركي على خدمات قدّمها.

واقترح مدير دائرة الأمن في وزارة الخارجية ـ حين رفع الأمر إلى الوزير ـ السماح لسكاربك بإكمال إجازته في فرانكفورت، وتركه يعود إلى فرصوفيا، إذ لم يكن من الإنصاف أن يستدعى إلى واشنطن دون أن يكون لدى الوزارة دليل ملموس على أحد تلك الاحتمالات، لأنه إذا أنكر أية علاقة مريبة له بأية جهة من الجهات فلن تستطيع إقصاءه عن الخدمة، وستظل ترافق «سكاربك» سحابة لم تنجل من الشك.

وكانت خدمة «سكاربك» في فرصوفيا ستنتهي في حزيران (يونيو)، أي بعد حوالي شهرين، ومن الممكن مراقبته حتى ذلك الوقت. واقترح أيضاً ـ تفادياً لمزيد من التسرّب في المعلومات ـ أن ترفع جميع المخابرات السرّية والحساسة من الإضبارة المخصصة لإطلاع الموظفين في سفارة فرصوفيا قبل عودة سكاربك.

ووافق وزير الخارجية «دين رسك» على مقترحات مدير إدارة الأمن، وأطلق يده في معالجة القضية بما يراه مناسباً.

وعلى ذلك اتخذت الإجراءات اللازمة في سفارة فرصوفيا،

فصدرت التعليمات الدقيقة إلى أمين المحفوظات وموظفي الشيفرة بما يترتب عليهما القيام به، وبكيفية الاستجابة لطلبات سكاربك دون إثارة شكوكه. ورفعت جميع المواد السرية المهمّة من التداول، كما تقرر أن تفحص جميع الإضبارات في فترات معينة للتأكد من عدم إخراج شيء منها خلال أوقات الدوام الرسمي، كما رُتب أن تُحصى أوراق تصوير الوثائق (الفوتوستات) بدقة، ويجرد ما يصرف منها يومياً، لعل سكاربك يستعمل تلك الأوراق في تصوير بعض الوثائق.

وكان «سكاربك» لا يزال في فرانكفورت، وكان قلق موظف الأمن «نوف» الذي يقوم بمراقبته يتزايد، لأن الشرطة الألمانية شعرت من طريقة قيادة سكاربك سيارته، ومن استداراته المفاجئة، أنه كان يشك بأنه مراقب أو ملاحق. وفي أحد الأيام بينما كانت الفتاة البولونية إلى جانبه، أوقف سيارته فجأة، ونزل منها، واندفع إلى السيارة التي وقفت خلفه غاضباً، وأخذ يتّهم سائقها بملاحقته، وقال له: «إنني دبلوماسي أميركي، من السفارة الأميركية في فرصوفيا، وهذه التي معي بولونية يتيمة مسكينة، وقد وقعت في غرامها، وسأتزوجها».

وبهت السائق الذي كان شرطياً سرياً ألمانياً، ثم اختفى بسيارته بعد أن تمتم ببعض عبارات الاعتذار. ولا شك أن «سكاربك» كان يظن أن الشرطة الألمانية تريد أن تعرف ماذا تصنع فتاة بولونية في ألمانيا بمفردها، فروى هذه القصة عن غرامه بها لتبديد شكوكهم. وقد استغل «نوف» هذا التبرير، فطلب إلى الشرطة أن تخفف رقابتها عليه، وتجعلها أكثر حيطة، لتوهم «سكاربك» بأن تفسيره كان مقنعاً للشرطة. **على أن «سكاربك» فيما يظهر أراد أن يزداد تأكداً، فزار مقرّ الشرطة الألمانية بصحبة شرطي ألماني يدعى «فريتز كوردز»، فأخبر هذا الضابط زملاءه أن سكاربك دبلوماسي أميركي، وصديق قديم له، وهو**

يشكو من أن هناك سيارات ألمانية تلاحقه أينما ذهب، وقدّم أرقام بعض السيارات التي دوّنها سكاربك، طالباً التحري عن أصحابها، ووقف هذه المضايقات. وقد أبدى ضابط الشرطة في الشعبة المختصة أنه لا يعرف عن الأمر شيئاً، واقترح على سكاربك ـ بصفته مواطناً أميركياً ـ أن يبلغ شكواه إلى القنصلية الأميركية.

وبهذه الشكوى دخل القضية عنصر جديد، وهو ضابط الشرطة «فريتز كوردز»، فماذا يمكن أن تكون صلة شرطي ألماني بدبلوماسي أميركي في فرصوفيا؟ ولكن اكتشاف ذلك لم يستغرق طويلاً، فقد ظهر في السجلات أن «كوردز» سبق له أن كان سائقاً في دائرة المندوب السامي الأميركي في ألمانيا، يوم كان سكاربك موظفاً في تلك الدائرة، وتعود معرفة بعضهما ببعض إلى تلك الفترة.

وقبل أن يحلَّ موعد عودة «سكاربك» إلى فرصوفيا، علم «نوف» من الشرطة الألمانية أنه يحاول استئجار غرفة للفتاة في فرانكفورت، ومعنى ذلك أنها لا تنوي العودة إلى فرصوفيا. وكان هذا تطوّراً له أهميته، خاصة وأن الشرطة الألمانية تأكد لديها بأن الأخ الذي زعمت الفتاة أنه على فراش الموت في فرانكفورت لم يكن له وجود، وأن البرقية التي أبرزتها كانت ملفقة، ومجرّد ذريعة للخروج من بولونيا.

إن نية الفتاة في البقاء في ألمانيا زادت الموضوع غموضاً، كما قللت من احتمال تعاونها مع سكاربك لخدمة الاستخبارات البولونية. وفي تلك الحالة لماذا منحتها السلطات جواز السفر؟.

وفي خلال هذه الفترة استعرض المسؤولون عن الأمن في سفارة فرصوفيا جميع المراسلات التي سبق أن وضعت في الإضبارة المعدة لاطلاع الموظفين منذ بداية تلك السنة ـ حيث بدأ اهتمام سكاربك بها

ـ حتى مغادرته فرصوفيا في منتصف نيسان (أبريل)، وذلك لتقدير الأضرار التي ترتبت في حالة إفشاء محتوياتها. على أن هنالك ما هو أهم من ذلك وأخطر. فالبولونيون كانوا ـ بلا ريب ـ يراقبون الرسائل التي تبرق من فرصوفيا بالشيفرة. فإذا كانوا قد حصلوا على نصوص كثير من تلك البرقيات، فسيكون بإمكانهم مضاهاتها بأصولها المرسلة بالشيفرة، وقطع مرحلة في سبيل فك رموزها. وأن ذلك سيتطلب تغيير الشيفرة في جميع سفارات الولايات المتحدة في العالم، بكلفة تبلغ ملايين الدولارات، فضلاً عما يعود على البلاد من أضرار لا تقدّر في معاملتها مع بولونيا ودول المعسكر الاشتراكي بأجمعها.

وفي 3 أيار (مايو) ترك «سكاربك» عشيقته في فرانكفورت وعاد إلى فرصوفيا. ولاحظ «ديكيوس» ـ موظف الأمن ـ أن سكاربك لم يقترب من الإضبارة السريّة بعد عودته. وكلما كانت الأيام تمرّ، دونما تطوّر جديد في الأمر، كان «ديكيوس» يزداد قلقاً، كما كان يخشى أن يبدر من أمين المحفوظات أو من كاتب الشيفرة ما يفضح الخطة، أو أن ينتبه «سكاربك» إلى خلوّ الإضبارة من المراسلات السريّة والمهمة، أو أن يلتجىء إلى الحكومة البولونية، فيفلت بذلك مما دبّر له. وكانت خدمته في فرصوفيا تقترب من نهايتها. وأخذ المسؤولون عن الأمن في وزارة الخارجية في واشنطن يشاطرون «ديكيوس» قلقه، فلما اقتنعوا بأن ليس ثمّة فائدة ترجى من الانتظار مدّة أطول، بل قد يكون فيه أضراراً كثيرة، رتبوا إصدار كتاب روتيني إلى «سكاربك» بواسطة دائرة «الذاتيّة».

وكان الكتاب الروتيني يتضمن الإيعاز إلى «سكاربك» بالتوجّه إلى وظيفته الجديدة التي نقل إليها في القنصلية الأميركية في «نابولي» بسبب انتهاء خدمته في فرصوفيا، بعد أن يقضي أسبوعاً واحداً في

واشنطن للمداولة (وهي الطريقة المعتادة عند نقل الموظفين من مكان إلى آخر) وبعد أن يتمتع بإجازته السنوية مع أسرته. وكانت في الكتاب الروتيني زيادة بسيطة، فقد طلب إلى «سكاربك» ـ وهو في طريقهِ إلى الولايات المتحدة ـ أن يتوقف في بون لمدة ثلاثة أيام للمداولة مع الموظف المسؤول عن الأبنية الأميركية في المنطقة. ولما كان الإشراف على أبنية السفارة الأميركية في فرصوفيا من جملة واجبات «سكاربك» فقد بدا من الطبيعي أن يرغب الموظف المسؤول عن أبنية المنطقة في مقابلته.

وكان القصد من الإيعاز إلى «سكاربك» بالذهاب إلى «بون» هو استدراجه إلى فرانكفورت، وتدبير مقابلات تجري في وقت واحد، وبصورة مفاجئة بين أشخاص ثلاثة هم «سكاربك»، والفتاة البولونية «أورسولا ديتشر»، والشرطي الألماني «فريتز كوردز». ولم يكن من الممكن أن يطلب إلى سكاربك الذهاب إلى فرانكفورت مباشرة، لأنه يعلم أن مقرّ الموظف المسؤول عن الأبنية هو في بون وليس في فرانكفورت.

وغادر «سكاربك» فرصوفيا مع زوجته وأطفاله الثلاثة بعد أن أقام زملاؤه في السفارة حفلات عديدة لتوديعه، وهم يجهلون كل شيء عنه، فذهبوا أولاً إلى «دوسلدورف» حيث تقيم والدة زوجته، وقد اقترح «سكاربك» على زوجته بأنها قد تفضّل قضاء الأيام الثلاثة مع أمّها بدلاً من انتظاره في بون حيث سيكون مشغولاً مع الموظف المسؤول عن الأبنية. وفي 4 حزيران (يونيو) ترك «سكاربك» أسرته في «دوسلدورف» واتجه مباشرة إلى عشيقته البولونية في فرانكفورت. وشاهدته الشرطة الألمانية وهو يغادر غرفتها قبيل الفجر ويستقلّ قطار الساعة الخامسة صباحاً إلى بون. وفي الساعة التاسعة كان يدخل

السفارة الأميركية في بون حسب الموعد المقرر. وكان بانتظاره أحد الموظفين، فاستقبله بسيل من الاعتذارات لأن مسؤول الأبنية الذي حضر «سكاربك» لمقابلته قد استدعي إلى «فرانكفورت» بمهمة طارئة، ولكنه كان لا يزال راغباً في مقابلته. وأضاف أن المستر «فابر» ـ أحد موظفي السفارة ـ قد تطوع لإيصاله بسيارته إلى فرانكفورت.

وعندما وصل الرجلان إلى القنصلية في فرانكفورت، فتح فابر الغرفة التي كان ينتظر فيها رئيسه «نوف»، وأشار على «سكاربك» بالدخول، ثم انسحب بخفّة، فذهب إلى الغرفة المجاورة التي سبق أن نصب فيها خطّان تلفونيان مباشران، أحدهما إلى إدارة الشرطة العامّة، والآخر إلى شرطة مدينة فرانكفورت. وأعطى «فابر» بواسطة الأول إشارة بجلب الفتاة البولونية «أورسولا» بحجة الاستسفار منها عن أمور تتعلق بسمة دخولها وإقامتها، وطلب بواسطة الخط الثاني إحضار الشرطي «فريتز كوردز».

وفي الغرفة التي جلس فيها «سكاربك» و «نوف» كان جهاز التسجيل الذي أخفي في أحد الأدراج يدور. وكان «نوف» وهو يواجه «سكاربك» يفكر بغير قليل من المرارة، أن جميع التحرّيات، وجميع البرقيات والحقائب الدبلوماسية التي تبودلت بين فرصوفيا وبون وواشنطن، والخطط التي رسمت خلال الشهور الماضية، قد اجتمعت الآن، وانحصرت في اللحظات القادمة، وفي هذه الغرفة الصغيرة. فإذا فشل في استجوابه ـ وأن فشله سيسجل بصورة واضحة على الشريط الذي يدور الآن ـ فإن الحكومة الأميركية لن تعرف إلى الأبد هل كانت قضية «سكاربك» مجرّد علاقة غرامية غير مشروعة، أم تهديداً خطيراً لسياستها الخارجية.

وكان «نوف» قانونياً بدراسته، ورجلاً كيّساً رقيق الحاشية بطبعه. فبدأ كلامه قائلاً إن لديه معلومات عن قيام «سكاربك» بتغيير العملة البولونية في السوق السوداء. وكانت مثل هذه المعلومات موجودة لديه فعلاً، فتعمّد أن يبدأ حديثه بهذا الموضوع ليسوغ بنظر «سكاربك» اهتمام موظف الأمن بأمره، ورغبته في محادثته.

وأطرق «سكاربك» قليلاً، ثم اعترف بأنه قام بشراء العملة البولونية في السوق السوداء أحياناً.

وخطا «نوف» خطوة أخرى، فسأل «سكاربك» في حذر شديد، هل يعرف الفتاة البولونية «أورسولا ديتشر»؟ فلم يستطع سكاربك أن ينكر أنه ساعدها في الحصول على السمة الألمانية. فسأله «نوف» هل له علاقة غرامية بهذه الفتاة، وهل أسكنها معه في فرانكفورت؟.

وبعد مزيد من الإطراق، اعترف «سكاربك» بذلك أيضاً. وكان من الواضح أنه استنتج بأن الشخص الذي كان يتعقب سيارته في فرانكفورت قد أخبر عن ذلك.

وسأله «نوف» أين رأى الفتاة للمرة الأولى، وكيف تعرّف عليها؟ فقال إنها اتصلت بالسفارة تلفونياً ذات مساء في أيلول (سبتمبر) سنة 1959 تسأل عن عمل، وأن الحارس الخفر أحال المخابرة التلفونية عليه، وكان لا يزال في المكتب يعمل، فاجتذبه صوتها، واتفق معها على موعد في الليلة نفسها، ثم تكررت المواعيد بينهما. وفي نيسان (أبريل) 1960 انتقلت الفتاة إلى شقّة صغيرة استأجرها لها «سكاربك»، ومنذ ذلك الوقت صار يقضي كل لياليه معها تقريباً. وكان يغادر عمله مساء، فيتناول عشاءه مع أسرته، ثم يعود إلى مكتبه في السفارة بحجة أشغاله الكثيرة، وبعد أن يعمل بضع ساعات يذهب

إلى شقة الفتاة، فيبقى معها حتى الساعة الثالثة صباحاً. وهكذا عاش ـ لمدّة سنة واحدة تقريباً ـ على ثلاث ساعات من النوم فقط.

وبعد هذه الاعترافات، كان «نوف» مستعداً أن يطرق صميم الموضوع، فسأل «سكاربك» كيف حصلت الفتاة على جواز السفر؟ ولمّا حاول أن يعلل ذلك بأجوبة عامّة مطاطية، ذكّره «نوف» أن السلطات البولونية لا تسمح لفتاة شابة صحيحة الجسم بمغادرة البلاد، خاصة وأنها تعلم بأن لها علاقة غير مشروعة بدبلوماسي أميركي. فأجاب «سكاربك» أن ذلك تمّ بسهولة كبيرة، وأن السلطات فعلت ذلك لأجله، ومجاملة له! ثمّ سرد ما حدث في ليلة 23 كانون الأول (ديسمبر) سنة 1960:

بينما كان «سكاربك» في شقّة الفتاة، اقتحم الشقة عليهما عدد من رجال الاستخبارات، وكان أول ما شاهده حين مداهمتهما آلة تصوير تلتقط صورتهما وهما في الفراش. وقال إنه تلقّى بعد ذلك تهديدا بإخبار زوجته وإخبار السفارة عن علاقته بالفتاة، وبنشر تصاويره، إن هو لم يتعاون مع الاستخبارات البولونية. كما ادّعى أنهم هددوه بإرسال عشيقته إلى سجن خاص ببائعات الهوى. حيث تكون أحياناً تحت تصرّف الجنود. ولكن «سكاربك» أكّد بأنه لم يعط البولونيين ما له أية أهمية، وقال «إذا زعم أحد بأنني أوصلت وثائق سرية أو ما أشبه، فإنه يحاول الإيقاع بي».

فألحّ «نوف» في السؤال، مذكّراً «سكاربك» أنه اعترف قبل قليل بأن السلطات البولونية وافقت على سفر عشيقته بقصد مجاملته ومساعدته، وقال:

«فماذا فعلت؟ هل خدعتهم؟ لا أقول إنك بعتهم شيئاً، ولكن

ماذا فعلت لتتفادى البيع؟».

فقال «سكاربك»: «لقد بدأت أغضب!».

فأجابه نوف: «إن غضبك لن يحل مشكلتك.. لقد أحرجت قليلاً!».

فقال «سكاربك»: «لا بل أحرجت كثيراً».

فذكّره «نوف» مرّة أخرى بأنه لا بدّ وأن قدّم شيئاً ثميناً لقاء جواز سفر الفتاة.

فتنهد «سكاربك» ثم قال: «نعم.. وثيقة سريّة».

وبعد ثلاث ساعات ونصف اعترف «سكاربك» بما كان يخشاه رجال الأمن أكثر من أي شيء آخر. وكانت الوثيقة التي اعترف بإخراجها من السفارة تقريراً كتبه السفير شخصياً عن سياسة الولايات المتحدة نحو بولونيا خلال السنوات الأربع الماضية، مع تقييمه الشخصي لها، ومآخذه عليها، واقتراحاته للمستقبل.

وبعد ذلك اعترف أيضاً بإيصاله معلومات من وثائق أخرى، بينها تقرير أعدّه، الملحقون العسكريون في السفارة بإشراف السفير عن تخميناتهم لمدى فعالية القوّات المسلحة البولونية، وتقرير سرّي عن مطار بولوني جديد قرب حدود تشيكوسلوفاكيا.

وكان «سكاربك» يؤكد في كل مرّة أنه لم يعط البولونيين شيئاً يسيء إلى أمن بلاده وسلامتها، وأنهم كانوا يضغطون عليه كثيراً للحصول على معلومات أخرى حساسة، وعلى مفاتيح الشيفرة، فكان يتهرّب من ذلك. ولكن رجال الأمن كانوا يرون غير هذا الرأي، فالمعلومات التي اعترف «سكاربك» بإيصالها تكفي لإلحاق أضرار

جسيمة بسياسة الولايات المتحدة، لأنها ستعرّف البولونيين بخطط السفير الأميركي ومقترحاته للتأثير في سياسة بولونيا، وبما يعرفه الأميركيون وما يجهلونه عن قوّاتهم المسلحّة وبمدى نفوذ وسائل الاستخبارات الأميركية وتغلغلها.

وبينما كان استجواب «سكاربك» مستمراً، تلقى «فاربر» في الغرفة المجاورة مخابرة تلفونية من الشرطة، حيث كانت الفتاة البولونية تستجوب أيضاً، وترفض الإدلاء بشيء. فاقترح أحد الموظفين الذين كانوا إلى جانبها أن يكلمها «سكاربك» فتناول التلفون، وفي صوت أشبه بالنشيج، طلب إليها أن تقول الحقيقة.

وفي المقرّ العام للشرطة، كان الشرطي «كوردز» ـ صديق «سكاربك» ـ يدلي بكل ما يعرف، ولكنه لم يعرف طبعاً علاقة «سكاربك» بالاستخبارات البولونية، فاعترف بأنه هو الذي أرسل البرقية الملفقة على لسان الأخ الوهميّ الذي كان على فراش الموت، واعترف بمساعدته «سكاربك» في بعض تدابيره الأخرى، لأنه فهم أن الدبلوماسي الأميركي كان يحب الفتاة، ويروم الزواج منها. وقال إنه قام بكل ما قام به لأن لسكاربك فضلاً كبيراً عليه في الأيام الماضية، عندما كانا يعملان في مكتب المندوب السامي، بما في ذلك شراؤه الحليب لطفلته من الحوانيت الأميركية.

أما استجواب «سكاربك» فقد استغرق عشر ساعات ونصفاً انقلب خلالها إلى متحدث لبق، ولم يترك شيئاً لم يذكره. وعندما فرغ من كلامه، اتّصل «نوف» بواشنطن تلفونياً، وقال لرؤسائه في وزارة الخارجية:

«إن صاحبنا اعترف بكل شيء، وتحقق أسوأ الاحتمالات، فماذا أصنع بعد هذا؟».

فكان الجواب:

«اجلبه إلى واشنطن واحضر معه».

ولما قيل لسكاربك إنه مطلوب في واشنطن وافق على السفر دونما تردد، وسافر معه «نوف» وموظف آخر، فوصلوا العاصمة الأميركية في 6 حزيران (يونيو) 1961، وفي 10 حزيران (يونيو) أصدر وزير الخارجية أمراً بسحب يده من الخدمة. وفي صباح 13 حزيران (يونيو)، بينما كان «سكاربك» خارجاً من الفندق الذي نزل فيه، وهو قريب من وزارة الخارجية، أوقفه في الشارع اثنان من رجال الأمن، وألقيا القبض عليه، ووضعا في يده السلاسل.

وبدأت محاكمة «سكاربك» في 3 تشرين الأول (أكتوبر)، وحين سئل في المحكمة أمذنب هو أم بريء أجاب أنه بريء.

وتليت مطالعة المدعي العام المعززة بوثيقة مكتوبة اعترف فيها «سكاربك» بالتهم الموجهة إليه، كما أبدى فيها أنه عاد إلى بلاده راغباً لا مكرهاً، وقال **«السجن في بلادي أحبّ إليّ من حياة رخيّة في بلد آخر»**.

إن التهم التي وجهت إلى «سكاربك»، وهي تزويد دولة أجنبية بثلاث وثائق سريّة على الأقل، كانت تقضي بمعاقبته بالسجن لمدة عشر سنوات، وغرامة قدرها عشرة آلاف دولار، عن كل منها، ويمكن أن تكون عقوبات السجن متداخلة أو متعاقبة حسب تقدير المحكمة.

واستدعي للشهادة السفير الأميركي في فرصوفيا «جاكوب بيم»، والفتاة البولونية «أورسولا ديتشر»، والشرطي الألماني «فريتز كوردز» وثلاثة من موظفي السفارة في فرصوفيا، إلى جانب «نوف»، كما حضرت من ألمانيا زوجة «سكاربك».

وقال السفير «بيم» في شهادته أن «سكاربك» كان موظفاً على درجة عالية من الكفاءة ودؤوباً على العمل.

وشهد زملاء «سكاربك» الثلاثة بأنهم شاهدوه يقرأ الوثائق في إضبارة السفارة السريّة، وأنهم لاحظوا أن اهتمامه بقراءتها بدأ في كانون الثاني (يناير) 1960.

وكرر الشرطي الألماني «كوردز» ما أفاد به في التحقيق الأوّلي في فرانكفورت.

أما الفتاة البولونية فقد سردت قصة علاقتها بالدبلوماسي الأميركي منذ بدايتها، حتى مداهمتهما، وما تبع ذلك من تهديدات وإغراءات لها ولعشيقها.

وبذل محامي «سكاربك» جهوداً كبيرة في الدفاع عنه، فادّعى أولاً أن موكله لم يرتكب المخالفات التي نسبت إليه راغباً، وأن الحكومة تحاول إظهار القضية بمظهر عملية بسيطة قام بها شخص عن عمد، لخرق الأنظمة والقوانين بصورة صارخة. وتحدّث عمّا تعرّض له موكله من ضغط لا يطاق، وعن العواطف والحالات النفسية التي تملي على الإنسان تصرّفاته، وتوجّه تجاربه في الحياة.

ثم ناقش المعلومات التي تضمنها تقرير السفير (وهو إحدى الوثائق السريّة التي اتهم «سكاربك» بإيصالها) فقال إن تلك المعلومات أمور معروفة لأي شخص مثقف حسن الاطلاع على الشؤون الدولية، وليس في إفشائها ما يسيء إلى مصالح البلاد. وطلب مناقشة التقرير صفحة صفحة، وفقرة فقرة، ليثبت للمحكمة أنه لا يتضمن أية معلومات سرية أو حقائق غير معروفة، أو معلومات يسيء تسرّبها إلى سلامة البلاد. وإن مجرّد وصف السفير تقريره بأنه سرّي، لا يكسبه

هذه الصفة بالضرورة. فاعترض ممثل الحكومة على هذا الطلب وأخذت المحكمة باعتراضه.

وأجاب المحامي عمّا أفاد به الشهود من اهتمام «سكاربك» بقراءة الوثائق، بأن السفير كان يحثّ الموظفين جميعاً على قراءة الوثائق والتقارير السريّة، وأن ما قام به موكله لم يكن بدعاً من الأمر، كما أن ما أفضى به لا يزيد عن المعلومات التي يتبادلها الدبلوماسيون في حفلات الكوكتيل.

وأخيراً قال إن «سكاربك» كان مدفوعاً بدوافع إنسانية لإنقاذ الفتاة التي أحبها، وأنه كان يحارب محاولات التهديد والتشهير. وإن مما يدل على حسن نيّته ووثوقه من براءته هو قبوله العودة إلى بلاده بمجرّد استدعائه، بينما كان في مقدوره أن يبقى في ألمانيا، أو يطلب اللجوء إلى بولونيا.

واستغرقت المحاكمة ثلاثة أسابيع، استمع المحلّفون خلالها إلى الشريط الذي سجّل في صوت «سكاربك» قصة غرامه وخيانته.

وفي 27 تشرين الأول (أكتوبر) 1961 أدان المحلفون «سكاربك» بالتهم الثلاث التي وجهت إليه ـ وهي إيصال وثائق سريّة إلى دولة أجنبية ـ وأصدرت المحكمة حكمها بأقصى العقوبة، وهي السجن لمدة ثلاثين عاماً، ولكنها لم تحكم عليه بالغرامة، فبادر محاميه وأعلن أنه سيستأنف الحكم.

وقالت زوجة «سكاربك» ـ التي كانت تصغي مطرقة إلى عشيقة زوجها وهي تصف ليالي غرامهما بتفاصيلها ـ إنها ستقف إلى جانب زوجها، لأنها واثقة من براءته وحسن نيته.

أما الفتاة البولونية «أورسولا» فقد خيّرت بين البقاء في أميركا أو

العودة فاختارت العودة إلى بلادها. هكذا ذهبت سدى جميع محاولات «سكاربك» لإخراجها من هناك، بما في ذلك خيانته بلاده من أجل جواز سفر.

وأبرم حكم المحكمة، ودخل «سكاربك» السجن، فنسيه الناس بعد أيام، ولم يعد أحد يسمع عنه شيئاً، أو يتحدّث عن قضيته التي ملأت الصحف وشغلت أميركا شهوراً..

وفي نيسان (أبريل) سنة 1966، نشرت جريدة «نيويورك تايمز» خبراً صغيراً متوارياً بين أعمدتها، لم يلتفت إليه الكثيرون، جاء فيه:

«تقرر إعفاء ايرفين سكاربك (45 سنة) عمّا تبقى من محكوميته. وقد مضت على «سكاربك» في السجن أربع سنوات ونصف، وقد حكم عليه بثلاث تهم عقوبة كل منها عشر سنوات، لتزويده دولة أجنبية بمعلومات ووثائق سريّة خلال عمله سكرتيراً ثانياً في سفارة الولايات المتحدة في فرصوفيا. وقد صدر هذا الحكم بعد محاكمة أثارت ضجة كبيرة، واستمعت فيها المحكمة إلى شهادة عشيقته البولونية».

وكان هذا الخبر آخر ما نشرته الصحف عن قصة الدبلوماسي الأميركي وغرامه.

أورسولا همبرغر(*)
(Orsolla Hamburger)
(- 1907)

هي إحدى جاسوسات المخابرات السوفياتية في سويسرا من أصل ألماني. وكانت تعرف تحت اسم «صونيا». ولدت في فريدينو في ألمانيا سنة 1907. انضمت مع زوجها رودولف إلى صفوف الحزب الشيوعي، وأصبحا عميلين من عملاء جهاز الاستخبارات السوفياتية أثناء الحرب العالمية الثانية في سويسرا، في وقت كلّف فيه زوجها رودولف بمهمة أخرى لمدة طويلة، فافترقا. كانت على علاقة مع أحد مسؤولي الشبكة في سويسرا، يدعى «رادو». وقد كلّفت بتجنيد عملاء جدد، حيث كان من أبرز مساعديها عميلان، الأول يدعى ألكسندر فووت (معروف باسم جيم)، بريطاني الجنسية، وخدم في الفرق الدولية في إسبانيا. كان منتسباً إلى الحزب الشيوعي في بريطانيا، حيث كلفه بالسفر إلى سويسرا للقاء أحد العملاء هناك في

(*) المرجع:
«Les grands espions de la seconde guerre mondiale». Tome premier. Sous la direction d'Albert Demazière. Éditions R.Y.B., Genève 1974. p.119 - 132.
«الجواسيس الكبار في الحرب العالمية الثانية». الجزء الأول. بإشراف ألبير دومازيير. جنيف 1974. ص119 ـ 132.

يوم محدد وساعة محددة في عام 1938. أما الثاني، وكان بريطاني الجنسية أيضاً، ومن قدامى المحاربين، يدعى ليون شارل بورتون، (معروف باسم جاك)، وقد وقعت صونيا في حبّه، وتزوّجا في 23 شباط (فبراير) سنة 1940. وفي حزيران (يونيو) من العام نفسه تمّ أول اتصال بالمركز عبر الموجات القصيرة من قبل فووت (جيم)، ونجح هذا، وكان المركز قد أرسل في شهر آذار (مارس) 1940 إلى «رادو» أحد عملاء الاتصال واسمه «كانت» (KENT)، وكان برتبة نقيب في الجيش السوفياتي. جاء إلى بروكسل حاملاً عدداً من الوثائق، لاسيّما الكتاب الذي سيستخدم في الشيفرة. وقد تمكن «كانت» من الهرب إلى فرنسا بعد أن نجح الألمان في تدمير شبكة بلجيكا. لكن الغستابو تمكن من اعتقاله. وبما أنه يعرف كثيراً من الأسرار، فقد أجبر على الاعتراف. وكانت خسارة كبرى لشبكة «رادو».

إضافة لذلك، وبناء على أوامر المركز في موسكو، نجحت «صونيا» (أورسولا همبرغر) في الاهتداء إلى صاحب متجر في جنيف اسمه «أدمون هامل» وهو مقاتل يساري، ومعروف بأفكاره الثورية... كذلك الحال بالنسبة لزوجته أولغا، وليس لهما أولاد. ومن خلال هذا المتجر سيكون «بريد الشبكة» ومنطلق اتصالاتها مع المركز، خصوصاً بعد أن رافق جيم صونيا، وأوضح لأدمون هامل طبيعة المهمة والعمل لمصلحة الاتحاد السوفياتي. كما قال له أيضاً أن «المسؤول سيحضر غداً إلى هنا برفقتي واسمه «ويبر»» (ويبر هذا لم يكن سوى «رادو» نفسه).

وعندما تم ذلك، أصبح «هامل» يعمل تحت اسم «إدوارد»، كما أن زوجته «أولغا» أصبحت «مود»... أما «رادو» فأصبح تارة «ويبر»

وتارة أخرى «ألبير»... وكلمة السرّ مع المركز كانت «دورا».. وفي نهاية العام 1940، تركت صونيا سويسرا إلى فرنسا، بينما بقي زوجها في جنيف ليتابع تعليم هامل وتدريبه.

وهكذا، أصبح لهذه الشبكة مراكز في لوزان، وفي جنيف، وفي برن، وجميعها في اتصال مع المركز في موسكو...

وكل ذلك كان بفضل جهود صونيا (أورسولا همبرغر) التي قدمت خدمة كبرى للاتحاد السوفياتي وزودتها بكثير من المعلومات عن الألمان وتحركاتهم النازية ضد السوفيات. ولم يعرف عن نهايتها شيئاً.

أورسيل لورنزين(*)

(Orsell Lorenzin)

(-   )

مساعدة مقربة من مسؤول عالٍ في حلف الأطلسي. اختفت في بروكسيل في 5 آذار (مارس) 1979، ثم عادت وظهرت من جديد بعد ثلاثة أيام على شاشة التلفزيون الألماني الشرقي حيث أخذت تشجب المخططات الحربية لحلف الأطلسي. ويُقال إنها كانت تتلقى التعليمات من عشيقها «ويتر ويل»، عميل الاستخبارات الألمانية الشرقية الذي كان يعمل موظفاً في فندق هيلتون.

(*) **المرجع**: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية» ترجمة مروان بطش. دمشق 1998. دار الفاضل. ص322.

إيديث كافيل(*)
(Idith Kavil)
(1915 -   )

هي إحدى أشهر جواسيس الإنكليز في الحرب كما في عالم المخابرات والتجسس.

ففي خلال الحرب العالمية الأولى، لم تحلّ النساء محل الرجال في المكاتب والمصانع فقط. فكثيرات منهن ساهمن في العمليات السرية من أجل الحفاظ على استقلال بلادهن. وهكذا لعبت بعضهن دوراً هاماً في هذا المضمار. في العام 1914، وفي غمرة الغزو الألماني للأراضي البلجيكية، خلفت وراءها الجيوش الحليفة، التي اكتسحتها القوات الألمانية، بعضاً من جنودها الجرحى. وقام المواطنون البلجيكيون بمعالجة وإخفاء هؤلاء الجنود الفرنسيين والبريطانيين الذين نجوا من المعارك التي وقعت بين قطعاتهم وجيوش الجنرالين «فون كلوكه» و «فون بولوي»، كما أخفوا أولئك الأعداد الكبيرة من الأسرى الفارين. ومنعاً لوقوع عدد منهم بين أيدي العدو، أقامت المقاومة البلجيكية آنئذٍ،

(*) **المرجع**: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». ترجمة مروان بطش. دار الفاضل. دمشق 1998. ص222 ـ 226.

وبالرغم من التهديدات الألمانية، منظمة خاصة لإطعام هؤلاء الجنود وإيوائهم ونقلهم. وقد سارعت إيديث كافيل إلى الانضمام إلى هذه الشبكة.

وصلت إيديث كافيل، وهي من أصل إنكليزي ومن مواليد مدينة سواردستون، إلى بلجيكا في العام 1907 وشرعت بإدارة مؤسسة بيركيندال الطبية التي أقامتها في بروكسيل، بمبادرة من الدكتور «أنطوان دوباج»، في البناء رقم 149 من شارع الثقافة، حيث يتم تدريب ممرضات شابات جئن من أنحاء أوروبا كافة. ومع اندلاع الحرب، شرعت كافيل، وبمساعدة أصدقائها، ومن بينهم المهندس المعماري من بروكسيل ذو الشهرة الدولية فيليب بوك، والأميرة «دوكروا» والفرنسية لويز توليبز، تبحث عن الجنود الجرحى التائهين في الغابات وتأتي بهم إلى العيادة لمعالجتهم بالسر، دون معرفة الموظفين. أما الأسرى الفارّون، فكانت تخفيهم في الأقبية. وقد تكلّل هذا المشروع بالنجاح وأخذ عدد الهاربين يزداد على مرّ الأيام. ولكن بالرغم من مساعدة كثير من أهالي بروكسيل، ازدادت عملية إطعام هؤلاء الفارين وإخفائهم صعوبة وخطورة. كان من الضروري مساعدتهم على اجتياز الحدود في الخفاء، وأضحى الحل الوحيد لإيصالهم إلى جبهة الحلفاء الهروب عن طريق الأراضي الهولندية بغية تجنُّب اجتياز الخطوط الألمانية. وهكذا شُرع بتنظيم الجنود الفارين المرتدين ثياب العمال في جماعات من عشرين إلى ستين رجلاً وتوجيههم بوساطة أدلاء حتى بلدة «فليسينغ»، حيث ينطلقون من هناك إلى إنكلترا. وخلال 11 شهراً، أفلح ما يقرب من 1500 جندي فرنسي وإنكليزي في الهروب إلى بلادهم. إلاّ أن الشابة البريطانية مارست أيضاً نشاطات سرية تتعلق بشكل مباشر

بالاستعلام. وبفضلها استطاعت الاستخبارات البريطانية تجنيد العبقري في الاتصالات اللاسلكية «ألكسندر زيك» الذي كان يعمل في بروكسيل لحساب القيادة الألمانية.

ذات يوم، وإذ أخذ يشكو من اضطرابات قلبية، تقدم ضابط فرنسي يدعى «غاستون كيني» إلى إيديث كافيل. وبعد عدة أسابيع من المعالجة والعناية، طلب هذا الضابط تزويده بجواز سفر مزيَّف وكمية من المال من أجل الفرار. بيد أن الشبكة فضلت مساعدته في اجتياز الحدود ضمن قافلة، أسوة ببقية الجنود الآخرين الذين تحميهم هذه الشبكة. وقد وافق الضابط على هذا القرار صاغراً. لكنه، وأمام دهشة الممرضة، عاد وظهر ثانية في مدينة بروكسيل بعد عدة أسابيع من فراره. وقد زعم بأنه عاد إلى المدينة لتصريف أعماله. وشرع منذ ذلك الحين يطالب بتزويده بأموال وأوراق جديدة للسفر، ولكن عبثاً. وعندئذٍ أخبر عضواً في شبكة «إيديث كافيل» بأن الألمان على أهبة القيام بعملية تفتيش في منزل «فيليب بوك» الذي كان يخفي عدداً من الجنود في قبوه، في شارع «رودبيك». وهبت الشبكة على الفور لإنذار فيليب بوك، لكن الوقت كان قد تأخر، إذ قام رئيس الجاسوسية الألمانية في بروكسيل «بيرغون» باعتقال المهندس والسيدة لويز توليبز وأودعا سجن «سان جيل». وما لبثت إيديث كافيل أنْ لحقت بهما، ذلك أن اسمها وأسماء ثلاثين عضواً في شبكتها وجدت في دفتر عناوين لويز توليبز. أما «الضابط الفرنسي»، فلم يكن سوى محتال عثر عليه الألمان في زنزانة في سجن «سان كوانتان» ثم وافق على العمل لصالح الاستخبارات الألمانية مقابل إطلاق سراحه.

ومثُلت إيديث كافيل في الثامن من آب (أغسطس) من العام

1915 أمام «جماعة الشرطة ب» التابعة للحكومة العامة وواجهت رجال شرطة من الألمان تحوّلوا إلى قضاة ادِّعاء. وإذ اطمأنت إلى وعد بإطلاق سراحها وسراح أعوانها في وقت قريب، فقد وقعت في الفخ الذي كان «بيرغون» نصبه لها؛ فاقتناعاً منها بأن أعوانها الذين كانوا في قبضة الشرطة الألمانية قد اعترفوا بقيامهم بإيصال جنود إلى العدو، فقد أدلت بأسمائهم كافة، ولم تكتفِ بذكر الأعوان الذين سبق أن وردت أسماؤهم في لوائح الأشخاص الملاحقين، بل أولئك الذين لا تحوم حولهم أية شبهة. بيد أنّ من الواجب هنا أن نوضّح بأن جلسات الاستجواب قد جرت باللغة الألمانية وأن المترجم لم يكن سوى موظف في الشرطة الجنائية يقوم، إلى جانب عمله، بدور المتهم والشاهد في آن واحد. وهكذا وقّعت إيديث كافيل على محضر شهادةٍ محرّر بلغة لا تعرفها ـ إذ لم نجد أي أثر لشهادات أصلية محرّرة باللغة الفرنسية ـ ثم جرى تعديله على الأرجح في أثناء الترجمة.

في خلال النصف الثاني من شهر أيلول (سبتمبر)، حبس سكان بروكسيل أنفاسهم بسبب شائعة حول احتمال قيام الحلفاء بهجوم كبير في الغرب. وبينما كان أمل البلجيكيين بوقوع هذا الهجوم ينمو ويكبر، انتاب الألمان حالة من التوتُّر فقرروا توجيه ضربة قاصمة إلى معنويات الحلفاء وإعطاء مثل لا ينسى. ولذا، أخذ عدد الاعتقالات يزداد يوماً بعد يوم، وما أن حلّ يوم السابع من تشرين الأول (أكتوبر) حتى مَثُل الخمسة والثلاثون متهماً أمام هيئة المحكمة العسكرية في قاعة مجلس الشيوخ. فوُجّهت إليهم تهمة إيصال جنود إلى صفوف العدو، وتولّى الدفاع عنهم محامون لم يلتقوا بهم قط من قبل، ولم يسمح لهم بالإطلاع على ملفاتهم وتوجب عليهم المرافعة باللغة

الألمانية، وهي اللغة الرسمية المفروضة على بلجيكا المحتلة.

«لا رحمة بهم!» كان الشعار الذي أطلقه أمام القضاة الجنرال «فون سوبرزفيغ» الذي عُيّن حاكماً عسكرياً لمدينة بروكسيل. لم تدم هذه المحاكمة الكبرى الأولى التي جرت في الحرب العالمية الأولى أكثر من يومين. ولم يُبلَّغ المدانون بالحكم بالإعدام الذي أنزل بحقهم في التاسع من تشرين الأول (أكتوبر) إلاّ في ظهيرة الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، وقبل عدة ساعات من تنفيذ الحكم.

وتلا المقرّر العسكري باللغة الألمانية نص الحكم، وتكررت خمس مرات عبارة «الحكم بالموت» الرهيبة بعد النطق باسم كلٍّ من فيليب بوك وإيديث كافيل والصيدلاني لويس سيفران والبروفسورة لويس توليز والكونتيسة دو بلفيل. أما صاحب المقهى موريس بانسير، فقد حكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات، لكنه كان قد شنق نفسه في زنزانته...

في صبيحة اليوم التالي، وفي الساعة الخامسة تماماً، اقتيدت إيديث كافيل، بعد أن عُصبت لها عيناها وغُطّي رأسها بوشاح أسود، من زنزانتها التي احتجزت فيها سراً منذ عشرة أسابيع، إلى حقل الرمي الوطني (الذي سمّي بعدئذٍ بميدان الشهداء) ووقفت أمام فرقة الإعدام المؤلفة من ستة رجال وضابط. لم يحضر أي شاهد عملية الإعدام ولم تصدر الحكومة الألمانية فيما بعد أي تقرير رسمي حولها. وبالرغم من وساطة سفير الولايات المتحدة في بروكسيل السيد براند وايتلوك، أصر الألمان على موقفهم بعدم نقل جثمان كافيل إلى مدرسة الممرضات. وبانتهاء الحرب تم نقل رفاتها بكل مظاهر التكريم إلى إنكلترا، إلى مقبرة «لايف غاردن» في كاتدرائية

«نورويتش» الرائعة ذات الطراز المعماري الروماني الغوطي، حيث كان والدها قسيساً أنجليكانياً يخدم فيها. وعرف فيليب بوك مصير الممرضة نفسه، إذ بعد أن واسى زوجته وأولاده، عانق القسيس ورفض أن تُعصب له عينيه. أما الأحكام الثلاثة الأخرى بالموت، فقد تأجل تنفيذها ثم خففت إلى الأشغال الشاقة بفضل تدخل البابا بناءً على رغبة البعثتين الإنكليزية والبلجيكية.

أثار إعدام إيديث كافيل الاستنكار في كل أنحاء العالم. بيد أن بإمكاننا أن نتساءل عما إذا كان الإنكليز قد ضحُّوا بهذه البطلة الشجاعة بشكل متعمد من أجل حثّ الشبان على التطوُّع وتسجيل أسمائهم في لوائح الجنود المتجهين إلى الجبهة (ذلك أن التجنيد لم يكن إجبارياً في إنكلترا في ذلك الحين). وقد كتب رئيس الشبكة الفرنسية في روتردام، جوزيف كروزييه، يقول بهذا الخصوص: «في وقت كان الناس قد كفوا فيه عن التطوُّع، أثار نبأ هذا الإعدام انفعالاً شعبياً كبيراً استغلّته الجيوش البريطانية من أجل تطويع الرجال الذين كانت هذه القوات تفتقر إليهم». ولربما كانت هناك أسباب أخرى دفعت بحكّام لندن إلى التصرُّف على ذلك النحو. وعلى كل حال، يبقى هنا أمر مؤكَّد: وهو أن جوزيف كروزييه قد بذل كل ما في وسعه لإطلاقه سراح إيديث كافيل ولكن عبثاً. كان كروزييه هذا رجل أعمال، من مواليد مدينة ليون بفرنسا، ومقيماً في بروكسيل. ثم تطوَّع في صفوف المكتب الثاني للجيش الفرنسي وانتقل إلى هولندا حيث عاش حياة مزدوجة محفوفة بالمخاطر: إذ كان يعمل في الظاهر مديراً لشركة تجارية ولا يتوانى عن إظهار حبه وإعجابه بالألمان وبالعنصر الجرماني. لكنه كان، تحت اسم بيير ديغرانج المستعار، يدير شبكة تجسس اقتصادي قوية تقوم بتزويد باريس بمعلومات عن وضع الصناعة

الحربية الألمانية. وإذ تأثر كورزييه بمصير شابة بروكسيل الإنكليزية، فقد أعدّ مشروعاً للفرار توفرت له كلُّ فرص النجاح. لكن الإنكليز لم يوافقوا على تمويله قط... فهل كانت تلك رغبة دنيئة منهم في التضحية بمواطنتهم الإنكليزية لغايات الدعاية كما اعتقد كروزييه أم ضرورة لمحو أثر الأشخاص الذين كانوا شهوداً على قضية زيك المخجلة؟ لقد بقي هذا السؤال بلا جواب...

إيريكا ماري شامبرز(*)
(Irika Marie Chamberz)
(- 1943)

هي إحدى عميلات الإستخبارات الإسرائيلية التي كان لها الدور البارز في اغتيال «أبو حسن علي حسن سلامة» في بيروت باعتباره من أبرز قادة الأمن في الثورة الفلسطينية، ومن أهم مساعدي ياسر عرفات (رئيس منظمة التحرير الفلسطينية). وكان ذلك في شهر كانون الثاني/ يناير سنة 1979.

فمن هي إيريكا شامبرز هذه؟ كيف وصلت إلى بيروت؟ أين سكنت؟ وبم كانت اهتماماتها الظاهرة؟ وما الدور الذي قامت به في عملية اغتيال علي حسن سلامة؟

في هذا الإطار، يؤكد الباحث الإسرائيلي ميشال بار ـ زوهار (الرئيس السابق لمكتب الصحافة لدى موشي دايان) وإيتان هابر، بالقول أنه:

منذ أن مزّقت الحرب بيروت، بدأ سكان الأحياء الإسلامية

(*) **المرجع**: ميشال بار ـ زوهار وإيتان هابر «الأمير الأحمر ـ كيف اغتالت الأجهزة السرّية الإسرائيلية أبو حسن سلامة، الدماغ المخطط لأيلول الأسود». ترجمة فارس غصوب. دار المروج. بيروت 1986. ص217 ـ 225.

يتجنّبون كل الغرباء. فكل الغربيين، بالنسبة لهم، هم عملاء سرّيون أو جواسيس لإسرائيل؛ لكن، إيريكا ماري شامبرز، فتاة عمرها 35 سنة، لقّبها جيرانها «بينيلوب» كانت غريبة الأطوار، وكل الذين عرفوها اعتبروها مختلّة العقل، وغير مؤذية أبداً. وصلت السيّدة شامبرز إلى بيروت في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1978. وكانت قد أمضت من قبل أربع سنوات في ألمانيا وهي تسافر بجواز بريطانيّ بتاريخ 1975. استأجرت شقة في الطابق الثامن في مبنى يقع على مثلث شارع فردان الأنيق، تشرف نوافذه على شارع مدام كوري الضّيّق الذي يغصّ بالناس.

مبعثرة الشعر دائماً، مهملة اللّباس، تخرج «بينيلوب» إلى الشارع حاملةً صحوناً مليئة بالأكل لتطعم القطط التائهة، ويزعمون أن شقتها مليئة أيضاً بالقطط. كانت هوايتها الرسم والتصوير، تقضي ساعات طويلة أمام النوافذ ترسم المدينة، والمآذن، والتّلال الخضراء القاتمة، والخليج المشعّ. وتظهر، باعتزاز، لوحاتها للجيران الذين تعرّفوا إلى مواهبها المحدودة، وتبدو هذه الإنكليزية منعزلة متنسّكة، وبائسة، ولو زعمت أنها مسرورة، فليس لها أصدقاء، ولا تخرج إلا نادراً من شقتها التي تسجن فيها حياتها. واعتاد كل الناس في الحي على رؤيتها تلاحق القطط في الشارع، أو تقف قرب النافذة، ترتدي قميصاً مهلهلاً، وبيدها لوحة لمزج الألوان وأكثر من فرشاة.

يجهلون طبعاً أن منظر بيروت لا يجذبها أبداً، ولا تملك مواهب الرسام، كل ما يهمها هو حركة الشارع، وخاصة، الذهاب والإياب اليومي لسيارتين فقط: واحدة شيفروليه تتبعها دائماً سيارة لاند ـ روفر. وتُسجّل السيدة شامبرز مرور العربات، وبعد شهرين، اتضح لها جلياً من خلال خربشاتها المبهمة أن السيارتين تتّبعان نفس

الطريق مرتين كل يوم: تأتي من حيّ الصنوبرة وتدخل شارع مدام ـ كوري باتجاه الجنوب حيث يوجد المركز العام لمنظمة «فتح»، تعود أثناء الغداء، ثم تعود في أول بعد الظهر في نفس المسيرة.

عندما تناولت **إريكا شامبرز** منظارها عرفت، بدون عناء وجه علي سلامة وهو يجلس على المقعد الخلفيّ في سيارة الشيفروليه، بين حارسين مسلحين. وركاب اللاند ـ روفر مدجّجون بالسلاح، فهم من فدائيي فتح طبعاً.

وما من شك أن زواجه من جورجينا رزق جعل من سلامة رجلاً يحافظ على عاداته. فمنذ سنة يسكنان شقة جميلة في حي الصنوبرة، ويبدو أن الأمير الأحمر نسي أن **الروتين هو ألدّ عدو للعمل السرّي**. لقد نسي القواعد المقدسة التي طالما التزم بها: عدم التأخر عن نفس العنوان؛ عدم سلوك نفس الطريق مرتين؛ عدم الالتزام بالعادات. سيطرت عليه الحياة الهنيئة الخطرة، ورغبته للقاء زوجته التي أصبحت نقطة ضعف آخيل.

في أول كانون الثاني (يناير)، كانت إريكا شامبرز جاهزة.

في 13 كانون الثاني، في الساعة العاشرة صباحاً، تلقّت وكالة تأجير السيارات «لوناكار» في بيروت، مكالمة هاتفية، مصدرها زيوريخ، وصاحبها **بيتر سكريفر**، يطلب حجز سيارة في 18 الجاري.

وصل بيتر سكريفر مطار بيروت الدولي في 17 كانون الثاني، بعد رحلة مباشرة من زيوريخ، على متن «سويس ـ إير». تصفّح الموظف، في قسم المراقبة، جواز سفره البريطاني، رقم 260896، أُعطي في لندن بتاريخ 15 تشرين الأول (نوفمبر) 1975، قبل أن يسأله:

«هدف إقامتك؟».

ـ «أعمال».

يرتدي ملابس أنيقة، مع ربطة عنق ملونة، وعلى شفتي سكريفر بسمة حارة قصيرة.

ـ «إقامة طيبة في بيروت».

استقل سيارة تاكسي إلى «أوتيل مديترانيه» الواقع على شاطىء البحر. وفي اليوم التالي، في الساعة العاشرة تماماً، كان حاضراً في وكالة «لوناكار»، شرب بكل سرور فنجان قهوة تركية على مهلٍ بينما يسطّر الموظف عقد الإيجار، وينقل العنوان ـ 11 بارونسميد رود، لندن 13 ـ المسجل على رخصة السير. وعندما انتهت الشكليات، أعطاه مفاتيح سيارة فولكسفاغن ـ غولف ـ استقلّها وانطلق باتجاه بيروت الغربية.

وقبل أن يصل إلى الأوتيل، توقف في وسط المدينة، حيث ينتظره رجل غريب. وصل أيضاً ليلة أمس، هو **رونالد كولبرج** الذي يسكن في «رويال غاردن أوتيل» حيث قدّم جواز سفره الكندي رقم 104227، لموظف الاستقبال، شارحاً له أنه سيسافر إلى نيويورك، وقد استأجر أيضاً سيارة سيمكا ـ كرايزلر، من وكالة «لوناكار».

يبدو أن الوكالة تحظى باهتمام كبير من العملاء الأجانب. وفي نفس ذلك الصباح، وصلت سيدة طريفة إلى مكتب الشركة لتستأجر سيارة داتسون، وقد أسرّت للموظفة الشابة أن أعصابها متعبة وترغب في الراحة والهدوء، فحددت لها أماكن متنوعة، بكل محبة ولطف. استمعت إليها السيدة شامبرز بانتباه كلّي ووعدتها بأن تتبع نصائحها. وبدل أن تذهب باتجاه الجبل، اجتازت بالسيارة مئة متر تقريباً،

وأوقفتها، ورجعت إلى شقتها في الطابق الثامن، وحملت فرشاة التصوير ولوحة مزج الألوان.

يوم الأحد 21 كانون الثاني (يناير)، ترك بيتر سكريفر «أوتيل مديترانيه» وأثناء دفع حسابه، قال إنه ذاهب إلى عمّان، لكنه لم يذهب أبعد من شارع مدام ـ كوري حيث أوقف سيارة الفولكسفاغن تحت نافذة إريكا شامبرز، ثم استقل سيارة تاكسي إلى المطار ومن هناك ركب الطائرة إلى نيقوسيا، ولو أنه لم يلتقِ سكريفر وإريكا شامبرز فهو يعرف السيارة ولماذا تركها هناك.

في 22 كانون الثاني، هواء بارد يعصف من البحر حيث ظلال بعض البواخر المجهولة تبرز في السماء الرمادية اللون، فيما وراء خليج بيروت المتآلف مع هذه اللوحات. واقفاً منذ الفجر، دفع رونالد كولبرج حسابه في الأوتيل بعد أن التهم بسرعة فطوره، ثم اجتاز المدينة، من شارع فردان مروراً أمام المبنى الأنيق الذي يسكن فيه سلامة مع زوجته، ورأى أن الرجال الذين يقومون بحراسته الدائمة هم في أمكنتهم. ثم تابع طريقه باتجاه الأحياء المسيحية في بيروت الشرقية، ومنها إلى جونيه، المرفأ الذي يبعد عشرين كيلومتراً إلى الشمال. وبعد ربع ساعة كان في المكان المحدد، توقف أمام «أوتيل مون مارتر»، واستأجر غرفة لليلة واحدة.

في دمشق، حيث ينعقد كل سنتين، مؤتمر الجمعية الوطنية الفلسطينية، افتُتح ذلك الصباح. ياسر عرفات ينتظر علي حسن سلامة، بعد الظهر، لقد وعد الشاب أن يكون في دمشق ليحضر جلسة المساء.

في شقتها في بيروت الغربية، كانت أم علي العجوز، والدة

سلامة، تنتظر هي أيضاً ابنها. فاليوم عيد مولد جهاد، ابنتها، وقد وعد علي بأن يأتي ليقبل أخته قبل الذهاب إلى سوريا. أم علي تنتظره بفارغ الصبر، كانت فخورة بموقعه الهام في منظمة التحرير الفلسطينية، وفي نفس الوقت، دائمة القلق على سلامته. وقبل يومين، تحدث معها عن عمله، وعن المنظمات العديدة الجديدة في فتح التي وُضعت تحت إمرته: «كوني فخورة بابنك» قال لها.

هزّت برأسها، فخورة به، لقد كانت دائماً فخورة به، لكن عليه أن يكون أكثر حذراً. فهي تعرف أنّ الأجهزة السرية الإسرائيلية تلاحقه. وعندما التقته قبل يوم أمس، طلبت منه اتخاذ كل الاحتياطات الخاصة، ربما يجب تبديل السيارات، قالت، وعدم سلوك نفس الطريق إلى العمل، ولماذا لا يضع في سيارته جهازاً مرسلاً - مستقبلاً ذا موجات قصيرة؟

ضحك علي، ولكي يطمئنها، كذب عليها: «سأعيش مئة سنة؛ لا تقلقي يا أمي».

في الساعة الثالثة و 45 دقيقة، استأذن من جورجينا، كانت حاملاً في شهرها الخامس، وضع يده على بطنها مداعباً إياها: «ستكون بنتاً».

- «أريد صبياً»، قالت جورجينا، «أريد صبياً يشبهك، أريد علياً آخر».

- «وأنا أريد بنتاً تكون جميلة مثلك، هي أيضاً».

ترك سلامة شقته واتجه إلى سيارته يحيط به أربعة من حرسه الخاص، فتح السائق جميل الباب، وجلس عليّ على المقعد الخلفي بين حارسين، بينما ركب الآخران في اللاند - روفر مع باقي الحرس.

مشت العربتان باتجاه شقة أم علي، حيث تتابع من هناك طريقها إلى دمشق.

على بعد كيلومتر جنوباً، إريكا شامبرز، أغلقت نافذتها وبقيت مسمّرة هناك، عيناها ملتصقتان بسيارة الفولكسفاغن الزرقاء المتوقفة تماماً تحت نافذتها.

وعندما انعطفت سيارة الشيفروليه، عند زاوية شارع فردان، لتدخل إلى شارع مدام ـ كوري، كان السير خفيفاً ونادراً. وعلى مسافة عشرة أمتار تقريباً التي تفصل ما بين سيارة سلامة وسيارة «الغولف» المستأجرة، المتوقفة الآن بين العربتين.

ثمانية أمتار، ستة، أربعة، اثنان.

وهي تحدق في الشارع، فتحت إريكا فمها، استعداداً لموجة الصدام، ثم ضغطت على الزر الذي أحدث الانفجار.

في اللحظة التي كانت فيها سيارة سلامة تماماً على نفس المستوى، تحولت «الغولف» إلى كتلة ضخمة من النار. وانفجرت الشيفروليه بين ألسنة النار فوراً، وتطايرت نثرات المعدن والزجاج وقطع من الأجساد البشرية، تطايرت ممزقة في الهواء وسط الدخان الكثيف، بينما قطع الحديد تتساقط مشتعلة في كل اتجاه كوابلٍ من الرصاص. وقد رفع الانفجار بالسيارة ثم سقطت على الرصيف بكل ثقلها، وأسرع المارة، مذهولين يفتح الرعب عيونهم، واقتربوا من الأجسام التي ما زال بعضها يتحرك بين الأنقاض.

وبينما كانت الجموع تتسارع إلى مكان الانفجار، وصلت عدة سيارات للإسعاف، وعربات الشرطة، قُتل كل ركاب اللاند ـ روفر، وجُرح عدد من المشاة، وسقط من المارة بعض القتلى.

سمعت أم علي ضجة الانفجار، وبشعور غامض، استدارت نحو ابنتها وقالت: «أطلبي أخاك».

طلبت جهاد رقم علي: «لا جواب»، وبدت شاحبة اللون كقميص أبيض، عندئذ أسرعت الأم إلى الشارع، بعد عشر دقائق، وصلت أمام بيت ابنها. على المدخل، مجموعة من فدائيي فتح تنتظر، وإذا بالمرأة العجوز تغرق في دموعها.

أوقفت جورجينا سيارتها أمام مدخل مستشفى الجامعة الأميركية، وأسرعت إلى الداخل. كان مسعفو الصليب الأحمر يفرغون آخر ضحايا الانفجار: 16 جريحاً و 8 قتلى.

أثناء تلك الفوضى العامة التي سيطرت على مثلث شارع فردان وشارع مدام ـ كوري، لم ينتبه أحد إلى إريكا شامبرز تخرج من شقّتها وتستقل سيارة الداتسون المستأجرة.

بعد 15 دقيقة، كانت سيارتها تنهب الطريق باتجاه مرفأ جونية، حيث رونالد كولبرج قد ترك «أوتيل مون مارتر»، واتجه هو أيضاً نحو الشاطىء.

في نفس اللحظة، في مستشفى الجامعة الأميركية، خرج الجرّاح من الغرفة وهز بكتفيه خائباً. لقد استقرت قطعة من المعدن في نخاع الجريح الذي جيء به إليه، كان الرجل مصاباً بشكل خطير جداً، يتعذّر إنقاذه. ودقائق بعد الساعة الرابعة، لفظ علي حسن سلامة أنفاسه على طاولة العمليات.

عندما هبط الليل وصلت باخرة بالقرب من مرفأ جونية، وأنزلت في المياه زورقاً مطاطاً. وفي اليوم التالي اكتشفت الشرطة المحلية سيارتين مستأجرتين: الأولى داتسون والثانية سيمكا ـ كرايلزر،

متوقّفتين بالقرب من الشاطىء، ولم يرَ أحد رونالد كولبرج وإريكا شامبرز.

في دمشق قدم المبعوث، أكثر من مرة، أوراقه الشخصية، قبل أن يسمح له حرس «فتح» بالدخول إلى قاعة الاجتماع الكبيرة في فندق «ميريديان». ثم اقترب من المنصّة وقدّم «تلكس» إلى ياسر عرفات. ولما عرف بما حدث، رفع رئيس منظمة التحرير وجهه باتجاه المبعوث مذهولاً: «تحقّق من الأمر»، أمره بصوتٍ أجشّ. وبعد بضع دقائق، عندما وصل «التلكس» الثاني، انفجر بالبكاء. ترك الفندق وراح يختبىء، خشية أن يكون اغتيال سلامة يشكّل جزءاً من خطة صهيونية للقضاء على كل قادة منظمة التحرير الفلسطينية.

أعلن التليفزيون الإسرائيلي الخبر في نفس المساء. ولم تتمكن، في تل أبيب، أرملة جو رومانو، بطل الأثقال الذي قتلته منظمة أيلول الأسود في ميونيخ، أن تحبس دموعها: «أنتظرُ هذا اليوم منذ سنوات»، قالت متنهّدة بعمق، ولما وصل بعض الصحافيين إلى شقتها المتواضعة، صرحت بصوت خافت: «باسمي وباسم كل الأرامل الأخريات، أشكر الذين قاموا بهذا العمل».

وبعد قليل، خرج عرفات وأصدقاؤه من مخابئهم ليشاركوا في مأتم سلامة. ذلك اليوم، رافق أكثر من خمسين ألف فلسطيني نعش الأمير الأحمر إلى مدافن الشهداء. ومشى فدائيو فتح، بلباس الميدان، يلفّون وجوههم بالكوفية الحمراء، يلوّحون بالكلاشينكوف فوق رؤوسهم، يُهدّدون بقبضاتهم المصوّبة باتجاه آلات التصوير التليفزيونية، وألوف الوجوه التي شوّهها الحقد تتحدى الصحافيين الأجانب الذين وصلوا لتغطية الجنازة. شارك عرفات في المأتم، ولما

خرج من الجامع المجاور محاطاً بحرسه الخاص، ليلقي خطاباً ضجت كلماته كالرعد وسط هدير الجماهير الثائرة: «ندفن شهيداً!» صاح عرفات، «وداعاً يا بطلي! سنتابع مسيرتنا على درب فلسطين!».

وظهر النعش الأسود وكأنه محمول على أمواج مدّ بشري مزمجرة. ولما رأى الفدائيون صورة سلامة الموضوعة على مقدمة النعش، أطلقوا الرصاص غزيراً مجنوناً في الفضاء. ومشت زوجته الأولى وبقربها ولدا سلامة وراء التابوت يحمله كبار رجال فتح، ولم يُسمح لجورجينا بالاقتراب من جثة زوجها.

وعندما وصل الموكب المهيب إلى المقبرة، جلس عرفات على الأرض، ينظر محدّقاً بالنعش. مات علي حسن سلامة، عمره 38 سنة، نفس العمر الذي سقط فيه الشيخ حسن، والده، وعانق عرفات، الفتى حسن، حفيد الشيخ حسن والابن البكر لعليّ؛ كان الشاب في اللباس الفدائي، على كتفيه كوفية، وبين يديه بندقية.

كان عمره 13 سنة، ويستعدّ للسير على خطى أبيه.

إيرينا سولتانوفنا(*)
(Erena Soltanovna)
(- 1916)

هي خريجة مدرسة ستيبنايا التابعة للمخابرات السوفياتية وسجلت فيها تحت اسم مدموازيل جرمين.

والواقع أن قضية مدموازيل جرمين كما سجلت في الملفات الرسمية تبدو وكأنها من إبداع مخيلة واسعة.

لم تكن مدموازيل جرمين ذات الطابع الفرنسي الأصيل فرنسية. كانت ابنة أب روماني وأم جيورجية. جاء الأب سولتان كورنسكو إلى أوديسا في سن الشباب عام 1913 أملاً منه بأن ميناء البحر الأسود الزاخر بالنشاط والحركة سوف يؤمن له فرص عمل أفضل من بلده الأصلي. وحظي بوظيفة في شحن السفن وتزوج بعد سنة من ماريا كاليتزي، ابنة مدير المؤسسة الجيورجي.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) عام 1916 ولدت ابنتهما ايرينا سولتانوفنا. وبعد واحد وعشرين عاماً دخلت ايرينا مدرسة ستيبنايا التجسسية التابعة للمخابرات السوفياتية تحت اسم مدموازيل جرمين.

(*) المرجع: «الجاسوسية في العالم». تأليف مجموعة من المؤلفين. دار الحسام. بيروت 1988. ص348 - 352.

وكانت الفرنسية هي المادة المفضلة لدى ايرينا، فدبر أمر دخولها كطالبة في جامعة موسكو حيث تخرجت عام 1937 حاملة دبلوماً بالفرنسية.

وكانت وظيفتها الأولى هي الترجمة إلى الفرنسية في دار نشر اللغات الأجنبية في موسكو، وسرعان ما نقلت إلى العمل في القسم الفرنسي في إذاعة موسكو. ونقلت بعد ذلك إلى القسم الفرنسي في الكومنترن. وعندما شنت ألمانيا النازية الهجوم على الاتحاد السوفياتي في حزيران (يونيو) 1941 عينت إيرينا في وزارة الخارجية السوفياتية. وانتهت مهمتها الديبلوماسية عام 1945. وبعد انتهاء الحرب، قرر ستالين إعادة بناء شبكة التجسس في العالم. وكان من نصيب إيرينا سولتانوفنا العمل في فرنسا.

معهد ماركس انغلس

وكانت ايرينا قد وضعت قيد التدريب على أعمال التجسس في معهد ماركس انغلس وفي معهد لينين التقني. وكان عليها أن تمر في مرحلة تدريبية خاصة لدى قيادة الاستخبارات السوفياتية ومن ثم تولت شؤون قسم تكلم الفرنسية التابع لمعهد التجسس في ستيبنايا. وعندما أصبحت جاهزة للعمل توجهت الجاسوسة اللامعة ذات الحادية والأربعين من العمر (كانت تبدو أصغر من ذلك) إلى فرنسا باسم مدموازيل جرمين.

وبعد فترة تأقلم أمضتها في باريس عملت مربية أطفال فرنسية. ولم تستطع مؤسسة فرنسية إعطاءها أكثر من عمل لدى صاحب بنك كمدبرة منزل حيث لا تستطيع الحصول على أية معلومات، ولدى تاجر منسوجات حيث رفضت العمل للسبب نفسه، ولدى رجل أعمال

في تولوز حيث كانت شديدة البعد عن حقل عملها الحقيقي، ولدى بلجيكي يعمل في صناعة الفولاذ وهو عمل غير مناسب كذلك. ولكنها ارتضت به كي تتمكن من بناء الغطاء الكافي لعملها الحقيقي.

ولكن العيش مع تلك العائلة كانت له مساوئه. فقد كان من المستحيل على إيرينا إبقاء معدات التجسس في غرفتها خوفاً من إمكان اكتشافها. وكانت تملك مبلغاً كافياً من المال كما كانت لديها لائحة بأسماء الأشخاص الملائمين للتجنيد كعملاء ومخبرين.

وهكذا أصبحت قادرة على إيجاد مخبأ للمعدات التقنية. كما جندت عملاء وأقامت أول شبكة تجسس لها.

ولحسن حظها وجدت العائلة البلجيكية من خيرة أرباب العمل. فقد عوملت كواحدة من الأسرة. كما أقامت حفلات كثيرة وكان ضيوفها من الفرنسيين المدنيين والضباط وحتى أفراد من الهيئات الديبلوماسية. وهكذا وبمحض الصدفة، أصبحت إيرينا جرمين قادرة على التقاط مقتطفات هامة من الإخباريات السرية عن الأوضاع الصناعية والسياسية الحيوية.

السفر إلى بروكسل

وبعد انقضاء أربعة أشهر، في خدمة العائلة قرر مستخدمو جرمين العودة إلى بروكسيل والسكن هناك. وأوعزوا إليها بوجوب مرافقتها لهم. ولكن مقر قيادة الإستخبارات في موسكو كان يريدها في فرنسا ولم يكن باستطاعتها تغيير مركزها دون اتفاق. ولذا بعثت برسالة شيفرة عالية السرعة إلى مقر القيادة في موسكو وتلقت الإذن بمرافقة مستخدميها وتركيز نفسها هناك كعميلة مقيمة لشبكة تجسس.

وفي بروكسل أكمل مستخدموها سيرتهم الأولى فاستطاعت جرمين الحصول على معلومات غاية في الأهمية بواسطة ميكروفونات لاصقة وشرائط تسجيل ومن ثم إرسالها إلى مقر قيادة الاستخبارات في موسكو.

ولكن ذلك المورد كان ضئيل الفوائد. فقد كانت مهمتها الأولى إقامة شبكة تجسس تتسلل إلى داخل محطات الأبحاث والمراكز العسكرية البلجيكية، وقد فعلت ذلك. فبعد ستة أسابيع من وصولها إلى بروكسيل كان لها شبكتا تجسس عاملتان والعديد من العملاء والمخبرين يزودونها بالنسخ والتصاميم والتقارير العسكرية وغيرها من الوثائق الحيوية.

وكان يليها في القيادة بلجيكي يدعى بول فيكن وهو ظاهرياً رجل دين متعصب. ويبدو أن جرمين كانت تستطيع لقاءه بكل اطمئنان عندما تدعو الحاجة. ولكن بالرغم من المهنة التي تسترت بها والاحتياطات التي اتخذتها والتي جعلتها في مأمن لسنوات عديدة، فإن علاقتها مع بول فيكن أدت إلى افتضاح أمرها. فقد ارتضت بلقاءاتهما في البارك [المنتزه] حيث كانت تصطحب أولاد مخدوميها كل يوم فتلاعبها بالكرة وتتحدث إلى فيكن الذي تمادى إلى حد مجالستها على البنك [مقعد المنتزه]. وكانت القضية تبدو وكأنها قصة حب خادمة. ولكنهما ارتكبا غلطة لوحظت في النهاية، ذلك أن فيكن لم يكن يواعد صديقته الخادمة في أيام عطلتها، وكانت بادرة ذكاء منها أن تأتيه بسندويشات. ولكن لم يكن ذكاء منه أن يأكل واحدة منها وأن يضع البقية (المحتوية على الميكرو أفلام) في جيبه. كما كان من غير المعقول ألاَّ تأكل جرمين والأولاد كل الفطائر اللذيذة التي كان يأتيهم بها فيكن بالمقابل. حيث كانت مدموازيل جرمين تضع

بعضها في حقيبتها. أما عملاء مكافحة الجاسوسية الذين كانت شكوكهم قد استيقظت فقد وضعوا جرمين تحت المراقبة ولاحظوا تلك الأخطاء البسيطة. وألقوا القبض عليهما.

كما ألقي القبض على معظم عملاء ومخبري شبكتها التجسسية وصودرت أحدث وأكمل معدات التجسس السرية.

شوكولا بيار وإيفيت

وهناك جاسوس رئيسي روسي آخر عمل بنجاح في فرنسا سنوات عديدة تحت اسم بيار.

فبعد سبع سنوات من التجسس في أفريقيا الفرنسية أمر بيار واسمه الحقيقي ديمبان ميرونوفيتش شايكوف بترك تونس والتوجه إلى فرنسا حيث أقام اتصالاً برئيسة شبكة تجسس سوفياتية وتدعى إيفيت. وكانت مهمته تشكيل شبكة جاسوسية إضافية.

اختار بيار أن يعمل كسائق أوتوبيس وهي مهمة خولته لقاء عملاء ومخبري إيفيت دون إثارة الشبهات. فسائق الأوتوبيس يلتقي بالناس ويتكلم معهم طوال اليوم.

وعمل بيار مدة ست سنوات بالتجسس في باريس قبل أن يفتضح أمره.

فقد صدف أن لاحظ مخبر بوليس أن سائق الأوتوبيس نفسه يشتري صنفاً غالياً من الشوكولا في مناسبات عديدة. وهي ظاهرة غير مألوفة لدى سائقي الأتوبيس مما أثار شكوكه وجعله يقتفي أثره ذات مرة. وكانت حصيلة ما جمعه من معلومات أن بيار يقوم بشراء الشوكولا من قلب باريس ثم يذهب إلى شقة في الضواحي فيغيب فيها

زهاء ساعة ثم يعود إلى لقاء صديقته فيغيبان طويلاً داخل شقتها ثم لا يخرجان سوية على الإطلاق.

وبعد القيام بزيارة سرية إلى شقة الفتاة بينما كانت خارجها، تبين أنها تحوي العديد من علب الشوكولا، كل منها تنقص حبتين فقط، وكل حبتين ناقصتين كانتا من النوع نفسه فوضع بيار وإيفيت تحت المراقبة إلى أن جمعت مكافحة التجسس المعلومات الكافية لإلقاء القبض عليهما. وألقي القبض على الجاسوسين وبحوزتهما علبة من الشوكولا وكانت حبتان تحتويان على «ميكروفيلم».

ماريا كنوت «الصدمة المريعة»

أما ماريا كنوت فقد كانت جاسوسة سوفياتية مدربة اتخذت لنفسها شخصية ممثلة ألمانية حيث كانت تستدرج الضباط الأميركيين والإنكليز إلى شقتها الفخمة في ضاحية من ضواحي كولوني. ولكنها لم تستطع الإفلات على الرغم من كونها جاسوسة سوفياتية رئيسية. فقد ألقي القبض على العديد من صغار الجواسيس في ألمانيا الغربية ولكن نادراً ما استطاعت مكافحة التجسس الألمانية بمساعدة مكافحة التجسس التابعة للحلفاء إلقاء القبض على جاسوس سوفياتي رئيسي من مرتبة ماريا كنوت. فخلال سنوات عديدة أمدت شبكة التجسس التابعة لها موسكو بالتقارير الرسمية، وبالتفاصيل الاستراتيجية العسكرية وبإنشاءات مهابط الطائرات وبتشكيلات البوليس الألماني الغربية وحرس الحدود وبتصاميم الجيش الألماني الغربي العسكرية.

وكان أحد أهم عملائها المفتش برمان وستبولد من شرطة فرانكفورت. وكان ضابطاً وثق الحلفاء بولائه. واعترف وستبولد لدى اعتقاله في النهاية بأنه كان عميلاً سوفياتياً سنوات عدة وأنه كان يقبض

شهرياً زهاء 45 جنيهاً استرلينياً على الأقل ثمناً لخدماته.

وألقي القبض على ماريا كنوت داخل مكتب البريد المركزي في كولوني. وقيل بأن المستندات التي عثر عليها بحوزتها قد أصابت قادة الحلفاء «بصدمة مريعة». كما ألقي القبض على أربعة من أعضاء شبكة ماريا التجسسية، كما صودر مرسل ولاقط موجات راديو قصيرة بالإضافة إلى معدات تجسس أخرى هامة.

ولكن أفراد الشبكة الآخرين أخطروا بالأمر ولاذوا بالفرار وكان من بينهم رئيس ماريا الذي لم تعرف هويته بعد ذلك على الإطلاق.

إيڤا بتروفوكا(*)

(Eva Betrovoka)

(-)

هي إحدى عميلات جهاز الاستخبارات الألمانية النازية.

وكانت إيڤا بتروفوكا فتاة خجولة في صغرها، هادئة رصينة ومحتشمة. وحين أصبحت تلميذة في المرحلة الثانوية كانت تؤدي وظائفها وتحفظ دروسها وتطيع أوامر والدها الصارمة، الذي كان عضو مجلس شورى المدينة.

وقبل نشوب الحرب العالمية الثانية كان استعداد الألمان كبيراً لها. ولهذا كانوا يفتشون بين الذكور والإناث من طلاب المدارس والجامعات على من يضطلع بدور الجاسوس خدمة لبلده.

وانتخبت إيڤا في عام 1938 من بين مئات من زميلاتها في المدرسة لتتلقى تدريباً في الجاسوسية لدى (الابوير). ووجدت في ذلك فرصة لها في أن تمنح وطنها بعض المساعدة.

كان التدريب المبدئي على عمل الجاسوسية شاقاً لإيفا، ولكنها

(*) **المرجع**: سمير عبده «التحليل النفسي للجاسوسية». دار الكاتب العربي. دمشق. الطبعة الأولى 1989. ص288 ـ 299،

كانت متفوقة، شهد لها معظم أساتذتها. ومن ثم تم تحويلها إلى مدرسة أدميرال كناريس للجاسوسية في برلين، حيث تخصصت بنقل الرسائل بالراديو، واستعمال الشيفرة وحلها والنواحي الفنية في صنع الراديو، وكيف يصنع جهاز إرسال من لا شيء تقريباً، بحيث يكون بحجم صندوق السيكار. وتصاميم هذا الجهاز معقدة، فكان التلاميذ يزودون بطبعة التصميم الزرقاء مصورة بالميكروفيلم، ويكون هذا الفيلم متناهياً في صغر الحجم وبالإمكان لصقه في ظهر ساعة اليد. وكان المنهاج يتضمن إلى جانب دراسة الراديو، تعلم اللغة الإنكليزية، والتشيكوسلوفاكية وإجادتهما.

وألمت إيڤا بالتقاليد العسكرية البريطانية ومعرفة الوحدات والتشكيلات. وعندما بدأت حملة غزو شمال أفريقيا حفظت عن ظهر قلب صورة وجوه مئات الضباط البريطانيين الكبار وأحوالهم.. هؤلاء الضباط الذين يرجح تسلمهم قيادة جيوش الحلفاء في الصحراء. ودرست أيضاً تاريخ شمال أفريقيا ونيوزيلندا وطبيعتهما، وأشكال البذلات الرسمية وأوسمة الضباط ورتبهم وغير ذلك.

ولما انتهت من دراستها للجاسوسية، أدخلت في أحد أيام شهر كانون الثاني (يناير) من عام 1940 إلى مكتب الأدميرال كناريس (مدير المخابرات الألمانية) الذي هنأها على سجلها الرائع ثم قال: «أيتها الآنسة بتروفوكا لقد أنيط بك عمل في غاية الأهمية. إن الفيلد مارشال رومل يرسم الخطط للاستيلاء على القاهرة قبل نهاية الصيف القادم، ويجب أن يكون لدينا جواسيس عاملين داخل المدينة لكي يزودوه بالمعلومات التي يحتاج إليها. وستكونين واحدة بين عملاء عديدين من الجنسين يعملون هناك، ولكن لا أحد يعرف هوية الآخر

وذلك لأسباب واضحة. إن الجيوش البريطانية قد أوهنت عزمها الهزائم التي ألحقها بها رومل وفيلقه الأفريقي إلا أنها ظلت بعيدة عن الإبادة والفناء. فلا زال البريطانيون يحتفظون بالرجال والعتاد، ومهمتك هي أن تزودي الجنرال رومل بمعلومات عن قوة الجيوش التي سوف يقذفون بها في المعركة وإحاطته علماً بمعداتها وبالمواقع التي ستنشىء فيها خطوطها الدفاعية إن أمكنك ذلك. وسيكون من المفيد لو عرف رومل عدد الوطنيين الأحرار داخل الجيش المصري وما إذا كان عددهم كافياً لإحداث ثورة تهب لنجدته عند ابتداء المعركة في الدلتا عند النيل».

وبعد أن فرغ كناريس من كلامه استوضحته إيفا فيما إذا كانت اتصالاتها اللاسلكية ستكون مع محطة لاقطة في الصحراء، وليس في برلين، فكان أن أجابها.. «في الصحراء. وستستعملين شيفرة خاصة، وستغادرين برلين في شهر نيسان (أبريل) القادم بعد أن تمضي ثلاثة أشهر أخرى في التدريب والتمرين. وتعني التمارين لنا بالنسبة لمهمتك كيفية أن تكونين امرأة فاتنة، وكيف ترتدين الثياب وكيف تتحدثين وتتخطرين بأناقة وإغراء. بالاختصار كيف تفوزين بحب الرجل وبهذا تكسبين ثقته». ولا أقصد بكلامي هذا إهانتك، بل أقول ذلك لأنك فتاة جميلة ذات قوام رائع، ولست بحاجة كما أرى إلى كثير خبرة لاجتذاب الرجال. حتى أنني لواثق أنه حالما تنتهي تلك التمارين سيكون بمقدورك الفوز على الجنرال ويفل نفسه» وتبع كلامه بضحكة مجلجلة.

أما المناهج النهائية التي تلقتها إيفا فقد كانت غريبة في نوعها حقاً، حيث لقنت كيف ترتدي العباءات الباريسية، وكيف تضع المكياج بأساليب فنية تزيد من فتنتها الطبيعية. وتعلمت كيف تتدلل

وتتغنج وتغازل وكيف تأرجح ردفيها بإغراء عندما تمشي عبر الغرف. تعلمت الرقص، وفن محادثة الرجل الذي يكون اهتمامه الوحيد هو الحرب والأمور العسكرية، تعلمت كيف تمسك كأس الشراب برشاقة وترتشفه بأناقة.

وفي ليلة تخرجها أخذت إلى أحد فنادق برلين يرافقها شاب وسيم فارع الطول خبير بفنون الحب. وفي التقرير الذي قدمه في صباح اليوم التالي أكد أن الآنسة إيڤا قد اجتازت الامتحان بتفوق عظيم وزاهي الألوان.. مزركش.

ولم تمض بضعة أيام حتى استلمت إيڤا وثائق شرعية تثبت بأنها كانت يوماً مواطنة تشيكية، وهي اليوم من رعايا بريطانيا. وخاطبها مدير المخابرات قائلاً: «إنك ستغادرينا إلى بودابست ومن هناك تبرقين إلى السفير البريطاني في أنقره تطلبين فيزا بوصفك لاجئة بريطانية».

وبعد أيام كانت إيڤا في بودابست لبضعة أيام حين وصلتها الفيزا من تركيا. وفي أنقرة اتصلت بالقنصل البريطاني الذي وافق على منحها مبلغاً من الجنيهات شهرياً. وكانت رحلة قصيرة قطعتها في أنقرة إلى القاهرة حيث استقرت لمهمتها الجديدة في حقل الجاسوسية.

❀ ❀ ❀

استأجرت إيڤا شقة متوسطة في الطابق الثامن عشر من عمارة الملكة فريدة، وهي عبارة عن شقق مفروشة للإيجار في وسط المدينة حيث تكون قريبة من الشخصيات الحليفة. ففي الطابق الذي تحتها مباشرة كان يقيم ضابط من الجيوش النيوزيلاندية والأسترالية.

كانت مهمة إيڤا واضحة.. التعرف على الضباط الإنكليز أو

على المفاتيح التي تقود إلى الأسرار الحربية. لهذا بعد أن استراحت في اليومين الأولين في القاهرة نزلت بعدها إلى الشوارع وارتادت المتاجر والمحلات لشراء الملابس الفاخرة وخزانة للثياب أنيقة، ثم استقرت للعمل. ولم تلق أية مشقة للاتصال بالضباط المقيمين في عمارة الملكة فريدة، إذ إنها كانت واحدة من نسوة قلائل يعشن هناك مرتبطات أو عالقات بحب شخص معين، وبالتأكيد كانت أكثرهن جمالاً وجاذبية، وسرعان ما أصبح هاتفها لا ينقطع عن الرنين من المعجبين والمدلهين.

المهمة الثانية لإيفا كانت إيجاد مكان تضع به جهازها اللاسلكي المرسل واللاقط الذي تخفيه في الوقت الحاضر في تجويف سري بإحدى حقائبها، بعيداً عن بيتها لأن المكان غير مناسب وسيفتضح أمره بسرعة.

بعد أسابيع صارت تعرف الكثير من الضباط الإنكليز وبعض الأشخاص المصريين، ومن هؤلاء أخوين توأمين مصريين كانا لا يكفان عن ملاحقة الفتيات الأجنبيات المزروعات في نوادي وفنادق القاهرة، قسم منهن جاء ليتجسس، وقسم آخر جاء لكسب المال من العمل في الملاهي، والقسم الآخر يطمعن في أن يتزوجن من شاب أسمر.

ومن خلال الخطط التي كانت ترسمها إيڤا، تظاهرت في إحدى المرات أنها غابت عن الوعي لدى تناولها للمشروب في أحد نوادي القاهرة مع أحد هذين التوأمين المصريين، وذهبت معه إلى بيته، حيث استردت وعيها (وهي تكذب) لترى شقة ولا أفخم من ذلك، فيها ثلاثة حمامات، حنفياتها مصنوعة من الذهب الخالص،

وكان هناك مغسلة ومغطساً رخامياً، وزجاجات بديعة اصطفت على الأرفف البلورية ملأى بالعطور وماء الكولونيا الثمين. غسلت الفتاة وجهها بالماء البارد، وكانت على وشك الجلوس على طرف المغطس لتجفيف وجهها عندما لمحت، صندوق سيفون المقعد، المصنوعة من البورسلان. فقامت إليه ورفعت غطاءه ثم هزت رأسها دلالة الارتياح والرضى، إنه مكان مناسب لإخفاء جهاز إذاعة لاسيما وأنه سيفون جديد لن يتعطل ويصبح بحاجة إلى تصليح قبل مضي بعض الوقت.

وحيث إن الشقيقان كانا يقيمان العديد من الحفلات في شقتيهما فبوسعها أن تحضرها جميعها. وبما أن الطقس حار في شهر حزيران (يونيو) فستجعل دخولها إلى الحمام لأخذ دوش منعش عادة لديها. فصوت المياه المناسبة سيطغي بكل سهولة على أي ضجيج يصدر عن جهاز الإرسال أثناء قيامها ببث الرسائل والمعلومات إلى مقر الجيش الأفريقي في الصحراء حيث تمركز رومل.

كثيراً ما سئلت إيڤا بتروفوكا عن أصلها فكانت ترد بالقصة التي علمها إياها معلمها في مدرسة الجاسوسية فتقول عن نفسها أنها من الرعايا البريطانيين، ولدت في تشيكوسلوفاكيا، وتزوجت من رجل إنكليزي. وعندما مات زوجي تبناني رجل أعمال إنكليزي أيضاً ولكنه متقدم في السن، كانت مكاتب أعماله في مدينة براغ. وعندما اندلعت نيران الحرب اعتقل هذا الرجل.

بعد 24 ساعة كانت إيڤا قد وضعت جهازها اللاسلكي في حمام الأخوين المصريين.



من الغنائم التي فازت بها إيڤا في رحلتها الجاسوسية التعرف على ضابط بريطاني برتبة ميجور يدعى بوريس بورتر كان متيماً بحبها بشكل قوي. فقد ظل طوال أسابيع يتملقها ويمطرها بالزهور والهدايا، وذهب به الغرام إلى التحدث عن الزواج بعد انتهاء الحرب. ولما كانت إيڤا تركن إلى الغريزة وتعول عليها، فلم تمحضه سوى بوادر الود التمهيدية. فقد كان من ضباط الأركان مزوداً بمعلومات وأسرار حربية ثمينة، فإذا كان عليها استخلاص أية حقائق منه، فمن الضروري أن تكبح جماح عواطفه ريثما تصبح تلك المعلومات والأسرار في يده، وحينها يتم لها ما خططت لأجله.

ولم يطل هذا الوقت، ففي أصيل الثامن عشر من تموز (يوليو) 1941 طرق الميجور بوريس بورتر باب شقة إيڤا، وكان يرتدي لباس المعركة، ويحمل حقيبة جلدية تحت إبطه فتلقته محيية ودعته إلى الدخول، ولكنه قال لها إنه يستطيع لدقائق، وفي أثنائها أخرج من جيبه علبة صغيرة فتحتها إيڤا لتجد عقداً ماسياً يبهر الأنظار هدية لها.

وأخبرها في هذه الأثناء أنه في طريقه إلى مركز قيادة الجنرال كامبل قرب سيدي رزق لتوصيل رسائل هامة ولا يدري إن كان سيعود من هناك، فأجلسته وحضرت له كأساً من الشراب ثم ثان وثالث، ثم مضى في نوم عميق من أثر المخدر الذي وضعته إيڤا بشرابه.

ثم تناولت حقيبة رسائله واطلعت على محتوياتها، فشهقت لما وقع عليه نظرها. فقد كانت تحمل كلمة سري جداً. وكانت الرسائل تذكر اسم وتصنيف لواء حربي جديد في طريقه إلى الجبهة لمساعدة القوات البريطانية ودعم موقفها. وكان التقرير مؤرخاً بالثامن عشر من تموز، ويذكر بإسهاب المعدات والذخائر والمدافع التي يحملها.

ويشير إلى الاستراتيجية البريطانية بشأن عملية (كروسيدر) أي الحرب الصليبية التي عليها أن تتحرك عرضاً عبر الحدود من مادلينا بقصد عزل جحافل رومل في سوليم وبارديا. وإذا وصلت هذه المعلومات إلى رومل فسيكون بوسعه سحق هجوم الحلفاء والقضاء عليه.

لم تهمل ثانية من الوقت، فأنشأت على عجل تنسخ المعلومات، ثم أعادت الرسائل إلى الحقيبة. وفي غضون ساعة استفاق بوريس بورتر وهو يحس ألماً ممضاً يمزق رأسه، وبعد حمام بارد، ووداع عاجل، أخذ حقيبته وأسرع إلى مركز قيادة كامبل ليسلم الوثائق والأوراق الرسمية التي بين يديه.

أما إيڤا فقد كان عليها الانتظار ثلاثة أيام أخرى حتى يحين موعد إقامة حفلة الأخوين التوأمين. وعند الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة أعلنت إيڤا أن الطقس حار وأنها ستدخل الحمام لأخذ دوش منعش. وأغلقت الباب خلفها بإحكام، وفتحت الدوش على آخر مدى، ثم رفعت غطاء صندوق السيفون البورسلان وأخرجت جهاز اللاسلكي الموضوع في صندوق مانع لتسرب الماء، وأسرعت تدق إشارة المناداة.. وانتظرت ولكنها لم تتلق جواباً، فكررت نداداتها، وهنا سمعت طرقاً على الباب وتناهت إليها كلمات غير واضحة بفضل صوت المياه المنسابة من الدوش. فتقدمت من الباب ودفعت برتاج السلسلة فانصرف الرجل عندما سمع صوت المياه المتدفق.

وعاودت مناداتها للمرة الثالثة ولا من جواب، والرابعة والخامسة. وظلت تدق جهازها بيأس وقنوط. وقرع باب الحمام للمرة الثانية. وكان القادم هذه المرة أحد التوأمين، وقد ساوره القلق

عليها فجاء مستطلعاً الخبر. فأقفلت إيڤا حنفية الدوش وهتفت به بصوت فرح: ألا تستطيع فتاة الاستمتاع بدوش لذيذ فترة طويلة في عز الصيف من غير أن يساورك القلق من احتمال غرقها؟

وبعد ثوان خرجت، ولم يطل مكوثها في الحفلة بعد ذلك. ولاقت اعتراضات من السكارى الموجودين على عزمها ترك الحفلة باكراً، ألم تأخذ دوشاً استغرقها وقتاً طويلاً؟ فالمفروض أنها انتعشت واستعادت نشاطها مما يخولها قضاء ساعات أخرى في الحفلة. ورغم كل ذلك غادرت إيڤا الشقة وأشارت إلى سيارة أجرة، واستقرت على المقعد الخلفي وهي تعض شفتها: ماذا حدث بحق السماء؟ هل فشلت في إجراء اتصال مع مركز تلقي المخابرات اللاسلكية بسبب خطأ ناتج عنها؟ هل ثمة عطل في جهازها اللاسلكي؟ أم أن مهندسي رومل متهاونون في أداء عملهم؟ لم تعرف الجواب إلا قبل ساعة من موعد اتصالها بمركز الإصغاء المقام على سيارة متحركة.

لقد التقت به دورية حليفة وفتحت عليه نيران رشاشاتها، واستطاع معظم الألمان الذين كانوا بداخل السيارة الهرب تحت جنح الظلام، ولكنهم تركوا وراءهم معداتهم. ومن سوء حظ رومل أنه لم يتسلم تلك المعلومات القيمة، التي كانت كفيلة بإفساح المجال أمامه لكسب معركة مهمة للغاية.

ففي غضون أيام قلائل احتل البريطانيون سيدي رزق، المنطقة الحيوية التي تقع جنوب شرقي طبرق، وأصيب البريطانيون بخسائر طفيفة كان من ضمنها الميجور بوريس بورتر.



نهاية قصة الجاسوسة إيڤا بتروفوكا كانت على يد صحافي مزعوم قدم نفسه إلى إيڤا على أنه نرويجي يدعى نيلز بورنستاد. وما أن انقضى يوم على هذا التعارف حتى اتصل بها ثانية، وأرسل لها الزهور، وراح يغازلها باستمرار ويوليها اهتمامه. ولم تجد إيڤا في تصرفه أي غضاضة حيث إنها صادفت معجبين غيره كانوا أكثر منه انجذاباً لفتنتها وحسنها.

لم يكن هذا الصحافي بالرجل المرغوب لدى إيڤا، فجفون عينيه السميكة في وجهه النحيل الكئيب جعلها غير مرتاحة تنتفض للمس يديه اللزجتين، وكأن ثمة شيء في لكنته يثير ملاحظة مرتجة في ذهنها. ومع أنها نادراً ما كانت تلتقي به إلا أن ذلك الصحافي كان متيقظاً للغاية من نجاحه النهائي في كسب ودها وتحداها قائلاً لها في مرة من المرات: كل امرأة رغبت فيها استسلمت لي إن عاجلاً أم آجلاً. وردت عليه قائلة: سأكون صادقة معك يا نيلز، ليس في نيتي أن أتورط جدياً مع أي رجل كان. لماذا لا تحاول مع واحدة غيري؟ والله يعلم كم امرأة توجد هنا في القاهرة تتشوق للتعرف برجل في مثل جاهك وجاذبيتك. فابتسم نيلز بمكر قائلاً: لماذا يتعين علي أن أرضى بفلاحة إذا كنت سأتوصل يوماً إلى إقناع أميرة بأن نيلز بورنستاد رجل يستحق أن يعامل بلطف؟ وكما تقولين أيضاً فإنني رجل أناني وصبور، أنا أعرف أنك طارحت الغرام العديد من الرجال ممن لا يستأهلون تلميع حذائي، وسأنتظر حتى تتفهمين هذا الغبن الذي يلحقني عن يديك. وسألته فيما إذا كان يعرف أشياء أخرى عنها. فأجابها نعم أعرف الكثير.. الكثير.

لم تتمكن إيڤا من إجراء الاتصال مع مركز الصحراء للأسبوع الثاني، فيما ظلت تزود المركز طوال شهرين بنتف المعلومات الهامة

التي تحصل عليها. وكان التوأمان في غاية السعادة لحضور إيڤا جميع حفلاتهما. وقد اصطحبت معها الصحافي بورنستاد إلى شقة التوأمين مرة أو اثنتين. وأبدى اهتماماً كبيراً بفترات غيابها الطويلة داخل غرفة الحمام، فادعت أنها لا تملك مثل هذا الحمام في شقتها فهي تنتهز فرصة وجودها هناك للاستحمام. وبعد ذلك امتنعت عن اصطحاب الصحافي معها إلى الحفلات. فكانت تذهب بمفردها وتصطحب رفقاء أقل ارتياباً منه، لا يسببون القيل والقال.

وشاء القدر أن تلمح إيڤا في إحدى الليالي وهي في فندق شيبرد الصحافي نيلز وهو يجلس مع فريق من الضباط البريطانيين ذوي الرتب العالية. فساورها الشك بأمره، واستأجرت مخبراً خاصاً لملاحقة تحركات النرويجي. ولم يمض وقت طويل حتى كشف تقريره بأن نيلز بورنستاد مواطن نيوزيلندي يدعى ماكيندر، ويعمل في الاستخبارات السرية برتبة ميجور، واشتهر بأنه رجل داهية لا يرحم. وهذا ما جعل الرعب يستولي على إيڤا وتقرر قطع علاقتها بالصحافي المدعي بتاتاً، ولما فاتحته بأن لا مستقبل يرتجى لعلاقتهما، انفجر ماكيندر قائلاً: أيتها الحمقاء الصغيرة.. لقد نفذ صبري! أنت لا تعرفين من أنا، أنا بوسعي أن أحيل حياتك إلى جحيم، أو أن أضعك بالسجن؟ فمن الأفضل يا إيڤا أن تغيري فكرك! وكان وعيده وتهديده مضافاً إلى حالة التوتر التي كانت تعانيها مؤخراً أكثر من أن تتحمل أعصاب إيڤا، فأقدمت على طرده من شقتها وهي تصيح في وجهه إنني لا أبالي بما تقول أو تفعل! هل تسمع؟ افعل ما يحلو لك فكل ألاعيبك لا تؤثر علي!.

قالت ذلك وهي ترتجف، فليس من السهل اللعب في مثل هذه المواقف. ولم تمض ساعات، حتى لاحظت في اليوم التالي أنها

كانت مراقبة، وأن شخصاً هزيلاً أبيض الشعر، يتبع خطواتها أينما ذهبت. . إلى المحلات التجارية، إلى دور السينما، إلى الفنادق والنوادي الليلية. وفي إحدى الليالي ذهبت بمفردها إلى السينما، وسارت بطريق طويل متعرج، وفيما هي تقترب من شباك قطع التذاكر لمحت الرجل على بعد عشرين قدماً منها يقف بالصف. واشترت تذكرتين ثم قفلت عائدة إلى حيث يقف الرجل، ومدت يدها إليه بإحدى التذكرتين قائلة: إنك رجل مسن ولا يليق أن تقف على قدميك طويلاً، فمن عادتي أن لا أطيل المكوث في قاعات السينما، ومن الأرجح أنه في الوقت الذي تصل به شباك التذاكر أكون أنا قد خرجت من السينما. . وبدون أن تختلج عضلة واحدة في وجهه انحنى الرجل احتراماً، وسار في الشارع مهرولاً.

ولم تكد تمضي ليلتين لاحقتين على هذه الواقعة مع ماكيندر، حتى اكتشف أنها أقامت حفلة دون أن تدعوه إليها. وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل حضر إلى شقتها وتعمد إحداث جلبة في ردهة المدخل مما اضطرها إلى إدخاله. ووقع نظره على جاكيت عشيقها لتلك الليلة. . جاكيت ضابط بريطاني من سلاح الدبابات، كان قد تركها فوق ذراع أحد المقاعد! وصاح بها: أيتها الطائشة. . لا تظنني أنني غير عالم بلعبتك! لقد حصلت على مبالغ طائلة كفيلة بأن تجعلك تحيين كامرأة شريفة، وأعتقد أنك جاسوسة نازية، ولن أقف مكتوف اليدين حيال هذا الموضوع.

وما هي إلا ثوان حتى خرج كابتن في سلاح الدبابات من مخدع النوم، وسار نحو ماكيندر متوعداً. فركضت إيڤا وحالت بينهما قائلة: لا يا روبرت، قل له فقط أن ينصرف. ولكن ماكيندر الذي تولاه الجزع كان قد أصبح خارج الباب. ولم يكن أمام إيڤا إلا أن تفعل

شيئاً واحداً وهو أن تتخلص من الدليل الوحيد الذي يكشفها، أي جهاز الإرسال. وفي الليلة التالية، وفيما كانت الحفلة في أوجها في شقة التوأمين أقفلت عليها باب غرفة الحمام وفتحت الدوش، وأخرجت جهاز اللاسلكي من مخبئه، وفتحت نافذة الحمام وقذفت بالجهاز بكل عزمها فوق رؤوس الأسطح، وأتبعته بالصندوق الواقي من الماء. ولم تكن، في الواقع، قد تسرّعت في عملها هذا. إذ إن في وقت لاحق من ذلك الأسبوع داهم رجال الشرطة شقة التوأمين. ومع أنهم فتشوا المكان جيداً بما فيه غرف الحمام وتركيباتها إلا أنهم لم يعثروا على أي شيء يدينها.

بيد أن الشبهة قائمة ولا ينقص سوى الدليل، لهذا سمعت إيڤا في نفس تلك الليلة باب شقتها يقرع. ولما فتحت الباب دخل الميجور سانسوم رئيس المخابرات البريطانية في القاهرة تتبعه ممرضة وشرطي حربي. وخاطبها سانسوم بلهجة مؤدبة: أيتها الآنسة إيڤا بيتروفوكا، يؤسفني أن أثقل عليك في مثل هذا الوقت، ولكن يجب أن نجري تفتيشاً دقيقاً لمسكنك ومتاعك. وكان سانسوم دقيقاً في عمله.. فقد قلب المكان رأساً على عقب، حتى أنه فتح وسادات نومها وخلع أكعاب أحذيتها. وقامت الممرضة بتفتيش إيڤا ولم تترك جزءاً من جسدها إلا جسته. وعندما انتهت مهمة التفتيش طلب سانسوم من إيڤا أن تضع عليها معطفها قائلاً: سنأخذك إلى مركز الاستجواب في المعادي لطرح بعض الأسئلة عليك، وتنتهي الأمور.

في هذه الأثناء تذكرت على حين غفلة تذكرة هويتها ورقمها المسلسل وقطعة الميكروفيلم الملصق بظهر ساعة يدها، فقطعاً سوف يجردونها من الساعة في مركز الاستجواب، وعليها أن تتخلص من الدليل الذي قد يعني براءة موتها، وأن تتخلص منه على أسرع وجه.

واستأذنت الميجور بدخول الحمام قبل مغادرتها البيت فسمح لها على شرط أن تترك بابه مفتوحاً، وطلب إلى الممرضة مرافقة الآنسة إيڤا. واستطاعت هذه بالرغم من وجود الممرضة بباب الحمام، أن تتخلص من الميكروفيلم وتذكرة الهوية بأن أسقطتهما في المجاري، وذهبت من ثم للتحقيق مع الميجور.

وهناك في المعادي تم استجوابها في الجولة الأولى لمدة ست ساعات وبطاقم خاص، ومن ثم تولى استجوابها فريق آخر لمدة ثلاث ساعات أخرى. ورغم كل هذا الاستجواب لم يفلح المحققون في العثور على أية أدلة، ولكن يقينهم بقي قائماً في أن هذه الفتاة تعمل جاسوسة للحكم النازي. ولكن مع اقتراب رومل من القاهرة، ما كان يسمح لأحد تقع عليه الريبة بالتجسس أن يظل في المدينة، فأرسلت إيڤا إلى مدينة حيفا بفلسطين، وأدخلت السجن حيث بقيت هناك إلى نهاية الحرب، وأطلق سراحها عام 1945 حين وضعت الحرب نهايتها.

وبقيت قصة إيڤا بتروفوكا معروفة. فحين أطلق سراحها انتقلت إلى بيروت وحصلت على وظيفة سكرتيرة، وهناك التقت بالرجل الذي أصبح زوجها.. إنه جون هولند وهو أسترالي يعمل في الاستخبارات برتبة كابتن. وبعد عام تزوجا في أستراليا، وترقى هو في وظائفه إلى أن أصبح عام 1952 وكيلاً لرئيس المخابرات الأسترالية، مستعيناً في كل ترقية بوظيفته بخبرة زوجته الجاسوسة!!

❀ ❀ ❀

مهمة إيڤا بتروفوكا فشلت، هذا ما تطالعنا به نهاية قصتها. ولكن هل كانت هذه الجاسوسة تعمل بوحي عن عقيدة أم عن مغامرة

من المغامرات التي أحبت أن تضطلع بها وهي بعد طفلة ومن ثم مراهقة، ولم تكن لتستطيع ذلك، نظراً لصرامة مراقبة والدها لها؟.

نحن لا نعرف سوى قضية واحدة من هذا النوع، وهي ليست صحيحة فحسب، بل هي تمثل الطبيعة البشرية أصدق تمثيل، وهي أن الناس يتصرفون دائماً بوحي من المصلحة الذاتية.. فعندما نرى تصرفات شخص ما نعلم علم اليقين ماذا يعتقد أنه مصلحته، بل إنه يعتنق لاشعورياً الفرض بأن جميع الدوافع نتيجة لهدف سبق تصوره.

إيڤا توغوري(*)
(Eva Togory)
(-)

هي إحدى جاسوسات اليابان ضد بلدها (الولايات المتحدة الأميركية)، وقد عملت في هذه المهمة تحت اسم «وردة من طوكيو».

فكيف كان ذلك؟

مما لا شك فيه، أن الإغراء للسير في طريق الخيانة لا يجتذب إليه ضعاف النفوس فحسب، بل يجتذب إليه أيضاً أولئك الذين يحملون في رؤوسهم الأفكار الخيالية الشاعرية، لاسيما الشبان العاطفيين منهم.

وقد رأيت (يقول كيرت سنجر) أكثر من شاب مهذب، وفتاة صبية يركبون المركب الخطر الذي يتلاعب به الشيطان في مجال الجاسوسية، وذلك لأن قصة ماتا هاري لا تزال حية تعيش في الأذهان، وأن مشاهد حياتها المغرية تغطي وتحجب مصيرها القاتم، وإنني في كل مرة كنت ألقي فيها المحاضرات أو الدروس، كنت على يقين بأن هناك واحد أو واحدة من أولئك الطلبة سيحضر لمقابلتي فيما

(*) **المرجع**: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». ترجمة بسام العسلي. دار اليقظة العربية. بيروت 1965. ص561 ـ 569.

بعد لكي يسألني بمنتهى الجدية عن ذلك العالم ويقول لي:

ـ «وكيف أستطيع التطوع للعمل في المنظمات السرية للاستعلامات؟ . . .» وكأن ذلك العمل يعتبر بمثابة حرفة يمكن اختيارها.

ولكن هناك حالات استثنائية لتلك الأوضاع التي عرفتها، أوضاع تخلو من الناحية المغرية في الطرقات المتعرجة والملتوية، وأوضاع مجردة، كما يقال من النواحي العاطفية المثيرة التي يمكن أن تلعب دورها في تلك الأمور الحاسمة.

وقد تعرفت (يضيف كيرت سنجر) على إحدى هذه الحالات الاستثنائية ذات يوم، عندما حضرت إحدى المحاكمات في سان فرانسيسكو لمحاكمة سيدة تبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً، اسمها إيفا توغوري وقد خيل إليَّ فجأة بأنني أفهم وضعها تماماً، ذلك أنها كانت قد دفعت إلى معسكر الخونة لأنها كانت لا تستطيع أن تفعل شيئاً غير ذلك، وكان مرتبها من هذا العمل ضئيلاً، ولكنه يكفيها لسد نفقات احتياجاتها.

لم يكن هناك أية مؤامرة حقيقية وراء قصتها، فقد كان هناك رجل ياباني عرض عليها القيام بذلك العمل وكانت مجبرة لقبوله، إذ كان وطيس المعارك محتوماً في تلك الفترة، ولم يكن في مقدور تلك الفتاة العودة إلى أميركا، وكانت بحاجة ماسة للنقود، كما أنها لو لم تقبل القيام بذلك العمل لألقي بها في إحدى معسكرات الاعتقال وعوملت كمواطنة من مواطني بلاد العدو، ولقد كان من المحتمل أن تبدو لها الأمور أكثر تعقيداً لو كانت تعرف شيئاً من السياسة ولكنها هل كانت تعرف ما هي السياسة؟ . . . كلا . . مطلقاً.

لقد كان اهتمامها ينحصر في المسرح، وبالمؤثرات الصوتية، ولقد شجعها إلى ذلك ما قامت به من دراسات في جامعات كاليفورنيا ولوس أنجلوس كما كانت من مواليد أميركا. لذا فقد كانت مولدة من اليابانيين قبل جيلين اثنين من الجيل الذي ولدت فيه.

في عام 1941 وجهت إليها الدعوة للسفر إلى اليابان، لرؤية عمتها المريضة التي كانت تقطن مع عمها في طوكيو وكانت إيڤا راغبة في زيارة اليابان، ولم تكن أميركا في تلك الفترة قد دخلت الحرب، ولكن مؤسسات الدولة كانت قد حذرت الأميركيين من الذهاب إلى اليابان، كما كانت السلطات المسؤولة ترفض تزويد المواطنين الأميركيين بجوازات السفر، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكنت الفتاة إيڤا من السفر بدون هذه الوثيقة الهامة والتي لا غنى عنها لكل مسافر، ثم كان لا بد لها بعد ذلك من مواجهة الحقيقة المرة، إذ أصبح من المستحيل عليها أن تعود إلى الولايات المتحدة الأميركية.

وفقدت كل أمل في ذلك بعد أن أقلع آخر مركب من الشواطىء اليابانية، حاملاً على ظهره آخر مجموعة من الأميركيين، وكانت منهمكة بشكل دائم في البحث عن وسيلة للنقل تستطيع أن تحملها وتعيدها إلى مسقط رأسها في أميركا، حيث كان كل من أبويها يعملان في إدارة دكان لبيع السلع المختلفة في شيكاغو.

وما أن انفجرت القنابل في بيرل هاربر حتى اندلعت نيران الحرب في اليابان، واندفع أبناء الشمس وهم يعملون لتحقيق مثلهم في أن تكون آسيا للآسيويين ليسيطر عليها حكم ديكتاتوري ياباني.

وقد صرحت أمام المحكمة فقالت عندما جاءت على ذكر تلك الفترة:

ـ «لم أكن لأصدق ذلك، ومرت أيام عديدة وأنا كذلك، وبقيت كالصماء في قلب تلك الدوامة ثم عمل اليابانيون على اعتقالي كمواطنة من وطن الأعداء، ولكنهم أطلقوا سراحي بعد ذلك».

واشترت إيڤا حريتها، ولكن الثمن كان غالياً، فلقد اشترت حريتها بالخيانة.

وأصبحت الطالبة القديمة ذات شهرة معروفة في جميع أوساط المقاتلين على جبهة الباسيفيكي تحت اسم «وردة من طوكيو».

ابتدأت إيڤا عملها بالإذاعة على موجات الأثير، في برنامج بعنوان «آن» وهو اسم مختصر للمذيعة. ثم عملت على تغيير اسم برنامجها وأصبح اسمه «اليتيمة آن، رفيقتكم في الطفولة». وكانت تبدأ إذاعتها بالجمل المثيرة مثل: مساء الخير من جديد أيها الرجال المنسيون، من المقاتلين الأميركيين. ويتبع ذلك النشرات الدعائية اليابانية، الممتزجة بألحان السوينغ والأغاني الشعبية والأناشيد الأميركية.

وكانت تتقاضى مرتباً زهيداً في البداية لا يزيد عن مئة ين أي ما يعادل العشرة دولارات ثم أُضيفت إليه زيادة مقدارها 47 ين.

وقد ادعت إيڤا بأنها كانت مجبرة للقيام بذلك العمل، كما أضافت إلى ذلك بأن هناك قصة حب يمكن إضافتها إلى ذلك الموضوع، إذ كان الرجل الذي أجبرها للقيام بمهمة الخيانة تلك، يهيم بها حباً، ولم يكن في مقدورها دفع حبه عنها، وأنها ذات القصة القديمة تقريباً، إذ اختارت إيڤا أسهل طريق وهو ذات الطريق الذي سبقتها إليه «القطة» والذي سارت فيه أكثر من امرأة أثناء سير مجريات الحروب المختلفة.

صرحت إيڤا في بداية محاكمتها بأنها لم تكن أكثر من مذيعة لتقديم الموسيقى، وأن مهمتها تتلخص في وضع أسطوانات الأغاني والموسيقى، وقراءة النصوص التي يعدها ويحضرها رجل اسمه شارلز كوزان وهو نقيب أوسترالي وقع في قبضة الأسر أثناء معركة سنغافورة بالتعاون مع نقيب أميركي اسمه اينس.

تمكنت إيڤا أو وردة طوكيو في بداية معركة الباسيفيكي من اجتذاب عدد ضخم جداً من المستمعين، إذ كانت أجهزة المذياع التي يحملها المقاتلون الأميركيون معهم تعجز عن التقاط محطات البث المتمركزة في أميركا، ونتيجة لذلك كانت إذاعة طوكيو هي المحطة الوحيدة التي يمكن أن يستفيد منها المستمع، لاسيما فيما يتعلق بالبرامج الموسيقية، وكان اليابانيون يعرفون ذلك.

ولما كان الجنود يموتون رغبة في الاستماع إلى الموسيقى الراقصة الأميركية، لذا كانت وردة طوكيو تؤمن لهم ذلك وتقدم لهم في ذات الوقت الدعاية اللازمة، والنداءات المحطمة للروح المعنوية، والتي كان أعداء الديمقراطية يحرصون على إعدادها بمهارة فائقة. وفي ذات يوم وبينما كان نحل البحر يعملون بحماسة في إعداد أكبر عملية سرية في إحدى القواعد الجوية الواقعة في جزر مارشال سمع صوت وردة طوكيو عبر موجات الأثير، وكان حديثها موجهاً إلى سكان الجزيرة لإنذار الجنود بأنهم سيتعرضون لضرب القنابل عما قريب، ثم تلاعبت بالألفاظ لكي تقول لهم بأن أرض قاعدتهم الجوية بعيدة عن الأنظار، وأنهت إذاعتها بافتعال ضحكة مجونية وقحة.

بتاريخ الرابع عشر من حزيران (يونيو) عام 1944 تقدمت لإذاعة

برنامجها واستهلته بعنوان: «صديقتكم المفضلة اليتيمة آني تقدم لكم...» ثم أعلنت لهم نبأها التالي:

- «تحية أيها الجنود، هنا صديقتكم القديمة، ولديّ أنباء جديدة مثيرة أحب أن أقولها لكم:

لقد وصلتم حديثاً من الولايات المتحدة، وعليكم أن تستفيدوا من وجودكم هنا أكثر ما تستطيعون وأن تستمتعوا بحياتكم، لأنكم غداً وفي الساعة السادسة صباحاً ستنقلون بحراً إلى سايبان، وإننا ننتظركم هناك، وطالما أنكم لا زلتم على قيد الحياة. فاستمعوا إلينا...».

وتبع ذلك إذاعة نداءات مماثلة ومن هذا النوع.

وفي ذات يوم، وفي ساعة السفر لإنزال بعض القوات الأميركية في الباسيفيكي انطلق صوت وردة طوكيو لتنادي:

- «يا عصابة الحمقى والبلهاء في الباسيفيكي، إذا كنتم تأملون العودة إلى بلادكم، فإنكم تفعلون حسناً لو بدأتم الآن، ألم تسمعوا بما وقع لأسطولكم الذي لم يبق منه أية قطعة.. والذي تم تدميره عن آخره؟...

إنني أتساءل: ترى مع من تقضي زوجاتكم وعشيقاتكم أوقاتهن في هذه الأمسية؟.. ربما مع هذا أو ذاك... من المتأنقين».

لقد أضاع الأميركيون كل مراكبهم وبواخرهم في خليج لايت وهم لا يعرفون الآن كيف سيتمكنون من العودة إلى بلادهم.

وكان كل من عمل في الجاسوسية، وجميع الخونة يعرفون بأن دول المحور سوف تغنم الحرب، ولكنهم جميعاً وبالتأكيد لم يفكروا بما ينتظرهم في المستقبل.

أما بالنسبة لوردة طوكيو فكانت على ثقة تامة بأنه لا يمكن كشف القناع الذي كانت تختفي وراءه، فقد كان هناك آخرون من

الأميركيين والكنديين ممن عملوا في هذه الإذاعة، ولم يكن صوتها إلا واحداً من بين سبعة أصوات أخرى.

وبعد أن استسلمت اليابان، وبينما كانت تجلس في صالة مطعم فخم للغاية اسمه باندا هوتيل طوكيو عمل اليابانيون على خيانتها، كما خانها صوتها العذب الجميل، وكانت تعقص شعرها على شكل ضفائر كما تفعل الفتيات الصغيرات، كما كانت ترتدي ثوبها المدرسي، وتبتسم ابتسامتها العريضة، عندما نظرت فجأة ثم تحولت نظراتها إلى دهشة وحيرة، وهي ترى ثلاثة من الجنود الأميركيين يتقدمون لاعتقالها فما كان منها إلا أن قالت لهم:

- «إنني بريئة، ولم أرتكب أي عمل».

وبعد ذلك قال لها واحد من الجنود:

- إذا لم تكن قد ظهرت على شاشة التلفزيون، فإنها لن تعتقل لأكثر من أسبوع واحد.

ولم تكن لتصدق مطلقاً أو تعتقد بأنها قامت بأي عمل ضار أو مسيء.

وتقدم أحد قدامى المراسلين الحربيين واسمه كلارك لي فأدلى بشهادته أمام المحكمة وقال بأنه كان قد قابل وردة طوكيو في شهر أيلول (سبتمبر) من عام 1945 وسألها فيما إذا كانت تشعر بأي إثم أو ذنب عندما كانت تذيع نشرات العدو الدعائية فأجابته بقولها:

- كلا.. إنني لا أشعر بأي شعور خاص.

وربما كان ما تقوله حقاً لأنها صرحت أمام ذات الصحفي بقولها:

ـ لقد كنت بحاجة إلى المئة ين والتي كنت أتقاضاها منهم.

وقد اتهمتها حكومة الولايات المتحدة الأميركية بالخيانة في زمن الحرب، وكان معنى ذلك بأنها ستتعرض لعقوبة الإعدام حتى الموت، ولكن إيڤا بقيت عاجزة دائماً عن إدراك السبب الذي يدفعهم لتعليق تلك الأهمية الكبرى على ما أقدمت عليه.

أما شقيقها فريد فقد صرح بقوله:

ـ إننا لم نكن نعلم شيئاً حتى طالعناه في الصحف، إنها ليست إلا طفلة.

واستمرت المحاكمة لمدة اثني عشر أسبوعاً، وكان مجموع الكلمات التي ضبطتها الحكومة لأقوال الشهود في تلك المحاكمة يصل إلى مليوني كلمة، كما تكبدت الحكومة مبلغ خمسة عشر ألف دولار كنفقات لجلب الشهود والبالغ عددهم تسعة عشر شاهداً من اليابان إلى الولايات المتحدة الأميركية على متن الطائرات. وكان من بين الشهود كبار الضباط اليابانيين، ولذا كانت الأدلة ضدها دامغة وقوية.

وكررت إيڤا أقوالها بأنها بريئة، وأنها كانت مجبرة على القيام بذلك العمل ولو أنها أرادت أن تعمل على خيانة بلدها، لأصبحت مواطنة يابانية، كما أنها لم تحاول مطلقاً تحطيم الروح المعنوية للجنود الأميركيين، كما أنها لم تعمل على إذاعة نصوص أو أنباء مختلقة، أو أخبار كاذبة أو رسائل سرية رمزية، وإضافة إلى ذلك فإنها كانت قد تزوجت في عام 1945 برجل برتغالي، وهذا ما يجعل منها مواطنة برتغالية، فإذا ما عوملت كأجنبية، فإنها لا يمكن أن تكون خائنة للولايات المتحدة الأميركية، وكان هذا الدفاع المشوش

المضطرب بمثابة تأكيد على أنها لا تزال في مفاهيمها بمثابة طفلة صغيرة وأنها اقتيدت إلى درب الخيانة دون أن تشعر بذلك.

عندئذ ما كان من الحكومة الأميركية إلا أن أحضرت التسجيلات المحفوظة لإذاعاتها وبذلك وقع الدفاع عن وردة طوكيو في حرج كبير، لأنه لم يكن يتوقع ذلك، وسيطر جو حربي على قاعة المحكمة عند الاستماع إلى تلك التسجيلات.

وبعد أن أعلن بأن وردة طوكيو غير مذنبة، وأنها لم تلحق الأذى بأحد وأنه لم يكن لأقوالها أية قيمة، أعادت هذه التسجيلات كامل أقوالها بما فيها من خيانة وتهجم: يا يتامى الباسيفيك كيف ستعودون إلى بلادكم.. الآن بعد أن تم تدمير جميع بواخركم، ومراكبكم؟... كل هذا بالإضافة إلى ضحكات إيڤا المجونية والتي كانت تختتم بها كل برامجها جميعاً.

وتم الاستماع إلى تلك التسجيلات جميعها واحداً بعد الآخر، وكان كلٌّ منها بمثابة دليل جديد على خيانتها، بل كان كل تسجيل يتضمن شيئاً من كل ذلك: الخيانة، الدعوة إلى الثورة والتحريض عليها، الدعوة إلى العصيان، إثارة روح التفرقة وكمثال لها: يجب ألا يموت السود فداء الرجال البيض، وهكذا حسب الأسلوب الفاشي التقليدي.

وحافظت إيڤا باستمرار على هدوء أعصابها، وثبات جنانها، وقد أعلنت المحكمة بأن إيڤا ليست الوحيدة التي عملت في هذا المضمار، وأن هناك ستة أشخاص قد عملوا على مساعدتها والعمل معها. كما أن اكسيس ساللي وميلورد إليزابيث غيلارس قد لعبا ذات الدور مع ألمانيا النازية، وأن هذا العمل لا يمكن تفسيره بغير

الخيانة، ونتيجة لذلك، فيجب أن يكون الحكم عليها منطقياً مع العقاب على جريمة الخيانة. وأخيراً ترك أمر اتخاذ القرار إلى المحلفين.

وطال أمد المشاورات والمناقشات بين المحلفين، وكانت وردة طوكيو قد تركت عقص شعرها وجعله كالضفائر، فأصبحت تعمل على تسريحه على الطراز الأوروبي، كما تخلت عن لباسها المدرسي، وأصبحت ترتدي قميصاً مفتوحاً وتنورة ذات لون فاتح.

وعندما عاد المحلفون إلى القاعة، نظرت إليهم نظرات كلها تساؤل:

ترى هل سيصدرون حكمهم عليها بالموت؟.. وأجابت على سؤالها بنفسها فقالت: كلا.. لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك.

لقد كانت تعتقد حتى آخر دقيقة بأنه سيتم إطلاق سراحها، ذلك أنها قامت بذلك العمل مكرهة ومجبرة، بالإضافة إلى أن أقوالها التي كانت تحملها موجات الأثير لم تقتل أي إنسان، ثم بعد ذلك فإنها لم تكن أكثر من حجر الشطرنج في تلك اللعبة الكبيرة.

وكان قول القاضي عندما نطق بالحكم بمثابة صدمة عنيفة أصابتها:

«السجن لمدة عشرة سنوات مع غرامة نقدية قدرها عشرة آلاف دولار».

وصرخت وهي تسمع ذلك:

ـ كلا، هذا غير ممكن، إنني لا أصدق بأنكم ستعملون على إرسالي إلى السجن.

ولكنهم عملوا على إرسالها...

إيڤا دي بورنونفيل(*)
(Eva Bornonvil)
(-   )

جاسوسة ألمانية، وهي أسوجية من أصل فرنسي مثقفة ثقافة رفيعة وتجيد لغات عديدة ومعارفها كثر. اشتغلت مدبرة شؤون عائلة ألمانية من منطقة البلطيك بعد أن ساءت أحوالها المالية. ثم حاولت الاشتغال بالتمثيل ففشلت. استطاعت بعد بحث طويل أن تجد عملاً في إحدى السفارات. اشتغلت بعدئذ في مستشفى عسكري إنكليزي في فرنسا. ولكن الحظ لم يؤاتها في هذه المهنة، فرجعت إلى أسوج وقصدت السفارة الألمانية وأطلعت السفير على الأخبار التي عرفتها صدفة في فرنسا. وبالرغم من أن هذه الأخبار لم تكن قيّمة، فقد استرعت المرأة انتباه الألمان. ولا غرو فقد كانت دوائرهم السرية بحاجة إلى أعوان.

وأرسلت إلى إنكلترا بعد حين ولم تلقَ صعوبة في دخولها لأن جواز سفرها الأسوجي (معلوم أن أسوج التزمت الحياد في الحرب) والشهادات التي تثبت أنها اشتغلت في مستشفى عسكري إنكليزي أبعدت عنها الشبهات.

(*) **المرجع**: جان بردان «جاسوسات ألمانيات». ترجمة باسيل دقاق. دار المكشوف. بيروت 1947. ص103 ـ 104.

على أنها أظهرت استهتاراً لفت إليها أنظار رقباء دوائر مكافحة التجسس. فقد ألحّت في طلب الاشتغال بالرقابة البريدية. ولم تحرص على حفظ لسانها، وأكثرت من السؤال والاستيضاح، فضبطت رسائلها إلى أسوج وهولندا. وانتهى الأمر باعتقالها في الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) 1918. وقد روى سير باسيل طومسن ما جرى بعدئذ في مذكراته، قال:

«كان اعتقال المرأة مفاجأة أدهشتها، فما توقعت أن يفتضح أمرها. ورفضت الاعتراف. وحاولت في اليوم التالي، لما مثلت أمامي في مكتبي، أن تثبت لي براءتها. وظلت تدافع عن نفسها إلى أن أريتها إحدى رسائلها وقد اكتشفنا العبارات المستورة بين سطورها والمكتوبة بالحبر الخفي. وحدّقت في السطور المفضوحة واتسعت عيناها كأنها رأت ثعباناً، وتمتمت تخاطب نفسها بذهول: «إنها رسالتي. وهذا هو خطي، ولكن...» ونظرت إليّ وسألتني: «ولكن كيف وقعت الرسالة في أيديكم؟»».

«أجبتها أن عندي شواهد أخرى. فطلبت حينئذ أن تخاطبني بمفردي. فخرج معاوني وتركونا وحدنا. فقالت لي: «قد يدهشك مقالي. ولكن ثق أنني أردت أن أشتغل لكم لا للألمان لأنني أحببتكم أنتم والبلجيكيين منذ زمن بعيد، وكرهت الألمان ولم أنس ما فعلوه في الدانمرك في العام 1864. وكنت أنوي، بعد وثوق الألمان بي وتثبتهم من أنني أخدمهم، أن أعرض عليكم خدماتي. واعلم أنني لم أفعل كل هذا إلا حباً بالمغامرة»».

كانت الشقية تتلقى من الدوائر السرية الألمانية ثلاثين استرلينية كل شهر أجراً على تجسسها لحسابها. وقد حكمت عليها المحكمة

العرفية بالموت شنقاً. ولكن الإعدام أبدل بالشغل الشاق مدى الحياة لأن الإنكليز لا يعدمون النساء لجريمة التجسس.

بقيت المرأة في السجن سبع سنين. وفي العام 1922 أعيدت إلى أسوج وقد غدت عجوزاً مهدودة القوى.

كانت هذه الجاسوسة تدعى **إيڤا دي بورنونفيل**.

إيڤا موللر[*]
(Eva Muller)
(1937 - 1901)

هي إحدى عميلات الاستخبارات الألمانية، ورئيسة إحدى فرق الجواسيس الألمان في بولونيا. فمن هي «إيڤا موللر» هذه؟ وماذا عن مهمتها؟

في العام 1901 ولدت «إيڤا موللر» من موظف ألماني أبى أن يغادر بلاد الالزاس مع من غادرها من أبناء قومه بعد هزيمة ألمانيا في العام 1918 بل ظل مقيماً فيها، وظل يشغل وظيفته بعد أن عادت الالزاس إلى الفرنسيين. ولم يقف حظه عند هذا الحد بل واتاه أيضاً، فعين ابنته سكرتيرة خاصة لدى موظف فرنسي كبير في الإدارة الفرنسية يدعى م.ب. كان يشغل في تلك الحقبة من الزمان، وظيفة عالية في مديرية البوليس في «ستراسبورغ».

وما لبث م.ب. ذو الأربعين من الأعوام، وذو الزوجة الجميلة والعائلة الكبيرة أن وقع قتيل هوى «إيڤا موللر» سكرتيرته الخاصة، تلك الفتاة التي لم تحمل من الجمال سوى طراوة العود، وسلامة

(*) **المرجع**: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. دار الكاتب العربي. بيروت. الطبعة6 الأولى 1992. ص89 ـ 94

الجسم، وصفاء اللون وإشراقه وشعر أشقر كثيف، وعينين ذهبيتين فيهما فتنة وإغراء..

وكانت «إيڤا موللر» ألمانية ملتهبة العاطفة والجسد فما طال بها الزمان حتى استجابت لنداء عاطفتها وجسدها، ولبت نداء رئيسها ورغبته فارتمت بين ذراعيه وطاب لها أن تكون خليلته!..

ولم تكن عين الجاسوسية الألمانية لتنام وعلى رأسها الكولونيل «نيقولاي» فأبت أن تفوتها الفرصة، ورأت أن تفيد من وضع «إيڤا» ما استطاعت إلى الإفادة سبيلاً، فأوفدت أحد رجالها في برلين يحمل إلى والدها أوامر وتعليمات معينة، ويأمره أن يدل ابنته على الطريق التي ينبغي لها أن تسلكها لتنفيذها..

ولم يفكر والد «إيڤا» في أن يعترض على «مندوب» برلين، أو يثور لكرامته، أو ينضب لتطفل برلين والتدخل فيما لا يعنيها من حياته الخاصة وحياة ابنته.

فالألماني تعود الخضوع والاستسلام لكل ما يأتيه من فوق، وقد أطاع أبو السكرتيرة العاشقة صاغراً، وراح ينذر ابنته بما أنذرته به برلين وما أرادته من مراقبة رئيسها م.ب. مراقبة شديدة وإحصاء كل حركاته وسكناته وأقواله، وسرقة كل ما تصل إليه يدها من تعليمات ووثائق سرية!..

وما كادت إيڤا تسمع هذا الكلام حتى رأت من الشهامة أن تطلع من تهوى ومن أباحت له روحها وجسدها، على ما تضمره له برلين، وهرولت إليه تسأله الرأي والتدبير فيما عساها أن تفعل بعد هذه الأوامر التي تلقتها: أترفضها رفضاً باتاً، أم تخادع برلين وتزودها بأخبار وتعليمات لا أساس لها من الصحة؟!..

وفي هذه الأثناء كان م.ب. يتخلى عن منصبه في مديرية البوليس ليتولى إدارة إحدى المؤسسات الخاصة، فلحقت به «إيڤا» إلى منصبه الجديد. وإذا أخفق فيه إخفاقاً تاماً قرر أن يغادر «ستراسبورغ» سراً ويهجر زوجته وأولاده و.. خليلته أيضاً!.. فلا يدري بمصيره أحد!..

وجن جنون «إيڤا» وقضت أياماً وليالي طويلة في نواح وبكاء لا تنضب لها دمعة ولا يغمض لها جفن، فكانت طوال أسابيع، تعترض سبيل موظفي شارع «فويه بلو» الذين عرفتهم، وكل من عرف عاشقها عن قرب أو عن بعد، فتتوسل إليهم تارة وتتهددهم أخرى ليرشدوها إلى مقر حبيبها.. فذهبت كل محاولاتها أدراج الرياح!..

وفي نهاية العام 1921 اختفت «إيڤا موللر» من ستراسبورغ كما اختفى من قبل، عاشقها م.ب. وظلت مختفية لا يدري الناس من أمرها شيئاً، من شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة 1921 حتى الثلاثين من شهر حزيران (يونيو) سنة 1935، إذ شوهدت إيڤا في «فارسوفيا» عاصمة بولونيا، وكانت لا تزال تلك المرأة الشقراء التي لم يكن وجهها ليفقد الكثير من طراوته ونضارته لو عالجته بالمحسنات التي تعرفها كل امرأة!.

ولقد كان ذا نظر ثاقب دقيق ذلك الذي عرف عشيقة ستراسبورغ بعد تلك السنوات الطويلة التي مرت، وبعد أن صارت خادمة في مطبخ الكولونيل «بيك» وزير خارجية بولونيا!..

وماذا تفعل «إيڤا موللر» في فارسوفيا بذلك الهندام المهمل الذي لا يخفي على عين البصير حقيقتها، فشعرها الأشقر، وعيناها الذهبيتان وقسماتها التي سمنت قليلاً ما زالت هي هي!..

وماذا تفعل عند الكولونيل «بيك» بالذات، ذلك الرجل الذي كان يبتسم للفرنسيين، وينازل البريطانيين، بينما هو في الوقت نفسه يخطب ود هتلر ويسترضيه؟!..

وكان لا بد لدوائر الاستخبارات البولونية من تحقيق طويل شاق دام حوالي ثلاث سنوات، للتثبت من حقيقة «إيڤا موللر» وحقيقة ما كانت تفعله في فارسوفيا وعند الكولونيل «بيك». فإذا هي ملحقة رسمياً بدوائر الاستخبارات الألمانية، ورئيسة إحدى فرق الجواسيس التي جردتها ألمانيا للتجسس على بولونيا..

وكان يبدو على إيڤا التي نسيت حب م.ب. ونواحها وبكاءها عليه حين فقدته، أنها تحب الحب كله الهرشنيدوبير، فوهرر المكتب الثالث الذي كان يأتي إلى «دنتزيغ» كل شهر، ليلتقيها ويقضيا معاً أربعة أيام بلياليها..

وكانت إيڤا إذا ما قدمت «دنتزيغ» قدمتها ذات اطمار، مشعثة الشعر لا مساحيق على وجهها، فتذهب أول ما تذهب إلى بيت في «بوستستراس» يؤدي أحد أبوابه إلى «لانغاس» فكانت تدخل في «بوستستراس» خادمة تافهة لا تلفت النظر ولا تملأ العين، لتخرج من «لانغاس» بعد ساعتين، وقد انقلبت إلى امرأة أنيقة ترتدي آخر زي من أزياء باريس فتتوجه إلى فندق برلين حيث ينتظرها فوهررها ومعه في أحيان كثيرة، رجل صغير وهو ذو شاربين أشهبين، تعرفه خير معرفة جميع مصالح الجاسوسية الأجنبية التي تهتم اهتماماً خاصاً بألمانيا..

ولقد كان من أخطاء إيڤا موللر الفاضحة أن تنقلب من حال إلى حال وتبدل من نفسها هذا التبديل الجذري فتصير في ساعة سيدة صالون بعد أن كانت خادمة مطبخ، ولعلها كانت تفعل كل هذا لترضي

من تهوى.. فيسترعي هذا التغيير المفاجىء أنظار من يطاردونها منذ شهور طويلة للاطلاع على دخيلة أمرها وكشف النقاب عن نشاطها، فكان أن نم الحب عليها وفضح شأنها!.

وكم مرة قدمت «دنتزيغ» قبل المرة التي افتضح فيها أمرها، فاختفى أثرها عن عيون مطارديها في حال دخولها منزل «بوستستراس» إلى أن خطر للرجل الذي كان يقتفي خطواتها، أن يكمن في زاوية «لانغاس بوستستراس» فإذا به بعد انتظار طويل، يشاهد والدهشة تستولي عليه، سيدة تخرج من «لانغاس» في قسماتها وحركاتها ومشيتها ما يشبه تلك الخادمة التي يقتفي آثارها فهرول في اتجاهها ليتحقق من صدق ما رأى فإذا نظره لم يخدعه، وإذا تلك السيدة هي نفسها خادمة المطبخ التي يجدّ في أثرها، وقد تحولت هذا التحول العجيب، فسار وراءها حتى بلغت الفندق..

وفي الرحلات الثلاث التالية التي عقبت هذه الرحلة كان رجال دائرة الاستخبارات البولونية قد تثبتوا من حقيقة النشاط الذي كانت تبذله هذه المرأة، وما كانت نزهتها الشهرية العاطفية إلى «دنتزيغ» لتلتقي على موعد مع حبيبها «شنيدوبير» رجل الجاسوسية المعروف، إلا لتعجل في افتضاح سرّها. ولولا هذه النزهة لظل سرّها مكتوماً إلى أجل أطول. ومما حمل الدوائر المقاومة للجاسوسية في بولونيا على الريبة في نشاطها المشبوه نزولها ببناية يختلف مخرجها عن مدخلها، وتحولها العجيب في هذه البناية من خادمة مطبخ إلى سيدة صالون..

وفي 20 كانون الأول (ديسمبر) من العام 1937 تناولت إيڤا موللر عشاءها في مطعم «غامبرنيوشال» مرحة طروباً ومن حولها رفاق مرحون طربون، وما كادت تخرج من المطعم حتى انتابت معدتها

أوجاع حادة عنيفة فحملت إلى المستشفى حيث لفظت أنفاسها في تلك الليلة نفسها!.

وشرّحت جثة إيڤا موللر، وجرى التحقيق الدقيق وصمتت الجرائد عن ذكر التشريح والتحقيق، وعن نشر خبر الحادثة، ولم يعرف الكولونيل «بيك» أو على الأقل رئيس خدمه، ماذا حمل إحدى خادمات مطبخه على ترك خدمته دون أن تطالب بمعاشها أو تأخذ أمتعتها الخاصة!.

لقد عرفت أمرها دوائر الاستخبارات البولونية فقضت على حياة امرأة رأت في بقائها على قيد الحياة خطراً على سلامة بولونيا دون أن يدري الكولونيل «بيك» ولا أي مسؤول آخر في الدولة بما جرى!.

ومن المبادىء الأولية عند جميع الدول أن العسكريين الذين يحملون هذا الاسم عن جدارة واستحقاق، لا يقفون مكتوفي الأيدي إذا ما هدد البلاد خطر فيقطعون دابر هذا الخطر من أيسر الطرق ومن أنجع الوسائل دون أخذ ولا ردّ.. فيشطبون في لحظة، بقلم أحمر اسماً ورقماً من أحد السجلات ليمنحوه إلى طالبة جديدة، وكم من الجاسوسات الصغيرات اللواتي دفعن ويدفعن حياتهن طمعاً في كسب بعض الدريهمات، وكانت إيڤا موللر الجاسوسة العاشقة إحدى هؤلاء النساء الشقيات!.

إن الجاسوسية والحب كالحياة والموت يتبع أحدهما الآخر وينتظمان في سلسلة لا نهاية لها!..

إيڤا وي(*)
(Eva We)
(-   )

هي إحدى جاسوسات الاستخبارات الصينية الوطنية (قوات تشانغ كاي شيك) ضد القوات الشيوعية في الصين الشعبية أيام الرئيس ماوتسي تونغ. ومع أنها خضعت لمراقبتهم واعتقلت، إلا أنها نجت من قبضتهم وتمكنت من الهرب إلى مكان آمن وهي تحمل لقب «الأقحوانة الحمراء».

فكيف كان ذلك؟

في مطلع كانون الأول (ديسمبر) عام 1955 كان العالم بأكمله يصطبغ باللون الأحمر، لاسيما بعد أن احتل الشيوعيون الصينيون جزر تاشين. وسافر داغ همرشولد من الولايات المتحدة إلى الصين محاولاً دفع شوآن لاي لإصدار أوامره بوقف إطلاق النار على حدود فورموزا. كما صرح السير انتوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا بدعم كندا بأن بريطانيا العظمى سوف لن تدخل الحرب للدفاع عن جزر ماتسي وكيموي اللتين كانت تحتلها قوات الجنرال تشانغ كاي شيك، وفي

(*) المرجع: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». ترجمة بسام العسلي. دار اليقظة العربية. بيروت 1965. ص547 ـ 558.

ذات الوقت طلب بعض أعضاء مجلس السيناتور من المتطرفين، القيام بأعمال عسكرية ضد القارة الصينية، وذلك لتحطيم قوة الشيوعين، ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة النووية إذا ما اقتضى الأمر.

وأعلن السير وينستون تشرشل الذي بلغ الشيخوخة وهو لا يزال يحافظ على قدرته وقوته بأنه سينسحب من ميدان السياسة نهائياً، كما قرر الرئيس أيزنهاور القيام باتخاذ أوضاع تساعد على خلق جو من التفاهم بهدف تجنب التورط في متاعب مزعجة في آسيا.

وكان كل طرف من تلك الأطراف يعمل بمنتهى الحذر والحيطة، وكان النضال الخفي يحتدم بين ألوية هامة من الجواسيس الذين يعملون بحماسة واندفاع. وكانت كل البوادر تؤكد بأن القسم الأخير سيلعب دوره بين لحظة وأخرى في أوساط 600 ستمائة مليون صيني، سحقتهم أقدام الشيوعية، كما كانت هناك قوات من جيش تشانغ كاي شيك تدافع عن جزيرة فورموزا الصغيرة، وفي هذه الأثناء وخلال تلك الأزمة نضجت قصة إيڤا وهي في مجال الجاسوسية، وكانت قصتها بمثابة فصل هزلي بدائي، على الرغم من طابعه العام الذي كان وكأنه من عمل منتجي الدرجة الثانية في هوليوود.

كانت إيڤا وي تقيم في هونغ كونغ تلك المستعمرة التي كانت ملك التاج البريطاني، هي وما جاورها من الأقاليم الصينية مثل كولون. وكان كل من هذين البلدين مركزاً من المراكز الرئيسية للتجسس في الشرق الأقصى، شأنها في ذلك شأن برلين، وستوكهولم وفيينا، وغيرها من عواصم أوروبا، وكان يتم تبادل المعلومات في هونغ كونغ بطرق ملتوية، كما كانت هذه المدينة تشهد وباستمرار مولد المؤامرات التي تحاك كل يوم تقريباً، وينتج عنها اختطاف وقتل عدد

من الجواسيس على حساب الدسائس العالمية وباسمها أيضاً.

وقد اشتبك بصورة طبيعية أنصار كل من تشانغ كاي شيك وماوتسي تونغ بذلك النضال الصامت والعنيف في ذات الوقت، وكان العالم بأجمعه يطالع عناوين الصحف بين وقت وآخر، وهو يتساءل فيما إذا كانت ستتطاير شرارة من آسيا لتثير الحريق في موضع آخر من الأرض، وعن احتمال امتداد هذا اللهب ليشمل من جديد العالم بأجمعه.

وهنا يجدر ذكر قصة إيڤا وتلك الراقصة التي تزاول الرقص الشرقي ذو الطابع المحلي والتي تمكنت من النجاة حديثاً من مخالب الشيوعيين. فعلى الرغم من المراقبة الدقيقة جداً والتي قام بها عناصر من الشيوعيين العاملين في مكافحة الجاسوسية، تمكنت إيڤا ولمدة عدد من الأشهر من نقل المعلومات واستخلاص الأنباء من الصين الحمراء.

ولكي نعود إلى بداية قصتها، يجدر بنا التنويه بأن إيڤا كانت مثالاً للجمال الشرقي بكل ما فيها من إثارة وفتنة، وكانت قد وقعت عقداً للعمل لمدة عدد من الأشهر مع إحدى المؤسسات المتحضرة والتي توجه الحياة الليلية في هونغ كونغ. وكانت إيڤا تزاول رقصها في كل مساء في صالة يحتشد فيها عدد من الرجال والنساء القادمين من جميع أنحاء الأرض، وكانت رقصاتها من ذلك النوع القديم والذي اشتهر بتقاليده الدينية المقدسة.

وكان لنجاحها الرائع أثره في أنها أصبحت تعيش حياتها بشكل محترم، مرموق، إلى أن أتى ذلك المساء من عام 1954 عندما أسرعت للوصول إلى منزلها كالمعتاد بعد أن قامت بآخر رقصة لها

حيث استمعت إلى صوت عميق وكأنه قادم من الأبدية:

ألا تريدين أن تعملي لمصلحة بلادك؟...

وشعرت الراقصة بالخوف لمدة ثوان قليلة فقط لأن صوت ذلك الرجل كان يحمل معه ما يوحي بالثقة والاطمئنان، وبدأت عيناها تعتادان على الرؤية في الظلام شيئاً فشيئاً، إلى أن شاهدت الرجل صاحب الصوت وكان يرتدي الثياب على الطراز الأوروبي، كما كان يعرج بصورة واضحة تماماً، وقالت في سرها: «آه.. إنه من جرحى المحاربين القدماء» وشعرت باندفاع عاطفي يجذبها نحوه، وشعرت بروح الفضول تستيقظ في ذاتها، كما شعرت بأنها لا تحمل أي خوف منه، فتبعته بدون أي تردد وجلست إلى جواره فوق مقعد يقع في قطاع مظلم من قطاعات رصيف الطريق.

وكان صوت الرجل دافئاً، وذو رنين محبب، وهو يتكلم بلهجة أهل كانتون وبأسلوب يدل على أنه ابن عائلة عريقة، ولم تتظاهر إيڤا بالحياء والاحتشام، ولكنها لم تكن في ذات الوقت من ذلك النوع الذي يسهل اقتياده على كل إنسان، ولكن الظروف كانت صعبة في تلك الفترة، وكان شأنها شأن الآلاف الذين شردتهم تلك الظروف، فقدت وطنها، وأصبحت كضائعة في هذه الحياة.

كان السيد ليو وي والد إيڤا يعمل طبيباً في كانتون وكان له خمسة عشر ولداً، وعلى الرغم من العبء المالي الثقيل الذي يتطلبه وجود مثل هذه العائلة الكبيرة، فقد تمكن من تقديم ما يتوجب عليه لكي تتم ابنته دراستها الجامعية وكانت ابنته جديرة بذلك. وعندما احتل الشيوعيون البلاد قسماً في أثر قسم آخر خشي ليو وي على أمن عائلته وطمأنينتها، فأعطى ابنته إيڤا بعض قطع ذهبية لتستخدمها في

اجتياز البلاد، والوصول إلى هونغ كونغ. وكانت ذات الأسئلة تطرح نفسها باستمرار وتتردد في مخيلة إيڤا، ترى ماذا أستطيع أن أفعل لكي أكون مفيدة؟.. وكيف أعمل في سبيل إنقاذ بلادي من هذه النائبة النازلة بها؟.. وقد خطر في مخيلتها وهي تصغي إلى الرجل المجهول الذي كان يكلمها في الظلام بأنه ربما كان يحمل الجواب على تساؤلاتها، بل ربما استطاع أيضاً أن يحمل لها أنباء عائلتها وأشقائها.

ولم يكن أمراً مفاجئاً بالنسبة لإيفا عندما استمعت إلى رفيقها وهو يحدثها عن ذاتها. فقد كان يعرف من أين قدمت، وأنها كانت في الأصل من المقيمين في كانتون كما كان يعرف أين تقيم عائلتها في الوقت الحاضر، وكان يتكلم بهدوء، وبدون أي تردد، وكان وكأنه يريد أن يظهر للراقصة معرفته بها، وإلى أي مدى تصل معلوماته تلك، وأخيراً قاطعته بقولها:

ـ ولكنك تتحدث عن الخدمات التي أستطيع القيام بها، فماذا تعتقد بإمكاني أن أفعل؟...

ـ إنني أعرف بأنك تذهبين بين الفينة والفينة إلى المدينة الصينية، لتأمين مشترياتك: وهذه رسالة أريد منك أن تحمليها إلى مكان أمين يقع خارج مستعمرة التاج البريطاني، لأنني لا أستطيع الذهاب إلى هناك بسبب كثرة الجواسيس الذين يعملون كالنمل، كما أنني شخص معروف.

فما كان من إيڤا إلا أن أجابته:

ـ إن هذا لا يبدو صعباً بالنسبة لي.

وقام ذلك المجهول فقدم شرحاً عما يمكن أن تتعرض له من

المخاطر، ولكن الراقصة قبلت القيام بالعمل دون أي تردد، ثم أعلمها بأنه سيحمل إليها رسائل وأنها ستعمل على نقلها مهربة إلى المدينة الصينية، وكانت تعلمه في كل مرة عن سير الأمور، وفيما إذا تم استكمال العمل بشكل جيد أو إذا كان هناك ما تود أن تقوله له من أنباء هامة، واتفقا على أن تضع له وردة بيضاء في رأسها أثناء مزاولتها الرقص، إذا ما سارت الأمور على ما يرام، أما إذا أرادت أن تنذره بوجود خطر يتهدده فما عليها إلا أن تضع وردة حمراء بين شعرها.

ومنذ اليوم التالي بدأت إيڤا في تنفيذ أول مهمة لها، وقد تمكنت من إخفاء تلك الرسالة بين شعرها الكثيف. بعد أن صففته ورتبته بشكل معقد للغاية، وكان شكله يقارب نماذج التماثيل التي يعود تاريخها إلى قدامى اليابانيين، وقامت بتنفيذ جولتها على مخازن الشراء دون أي حادث يذكر، وكان تسليم الرسالة أمراً سهلاً للغاية.

واعتباراً من ذلك اليوم، عملت إيڤا على نقل الرسائل بانتظام من المستعمرة إلى الصين، ثم علمت إيڤا بعد ذلك بزمن بأن ذلك الرجل الأعرج هو عضو في منظمة سرية وطنية، كما اطلعت على الأسلوب الجديد للقيام بالاتصالات، بعد أن تم تبديل الأسلوب السابق واستعيض عنه باستخدام الأفلام الصغيرة الحجم جداً «ميكروفيلم» ولم تحاول إيڤا مطلقاً أن تقرأ محتوى الرسائل، ولذا فإنها لم تكن على اطلاع بمجريات الأمور، كما كانت تجهل أهمية المعلومات التي كانت تعمل على نقلها، حتى أنها عملت ذات يوم على نقل قطع تبديلية لجهاز لاسلكي يعمل على الموجات القصيرة، وسلمتها إلى صاحب متجر مختص في بيع قطع القماش الحريرية في المدينة الصينية.

وكانت إيڤا تحمل معها في كل مرة تذهب فيها إلى المدينة الصينية ببراءة للقيام بمشترياتها من الأقمشة الحريرية، وتوابع الزينة النسائية الأخرى، رسالة تتضمن تعليمات إلى قوات تشانغ كاي شيك السرية بالإضافة إلى الميكروفيلم والتقارير الأخرى عن تحركات الوحدات الشيوعية، ووصول الأسلحة السوفياتية، وأعمال الإغارات المحاصرة والانقضاض الذي تشنه قوات المغاوير على الجزر التي كانت تدافع عنها القوات الوطنية.

ثم أصبحت الفتاة الجميلة إيڤا وي بعد ذلك عنصراً هاماً من عناصر حرب الجواسيس، وأداة فعالة في العمل لمكافحة الجاسوسية الصينية، وأصبحت على درجة من الكفاءة بحيث كانت تعلم بأي مركب بولوني أو أية باخرة تنقل الأفيون لمجرد مغادرتها الموانىء الصينية وسيرها في اتجاه موانىء أخرى من آسيا، وذلك قبل أن تنقضي ساعات قليلة على ذلك، فتعمل هي بدورها على إعلام القيادة العامة في فورموزا. لقد أصبحت إيڤا في الواقع مراسلة رئيسية في شبكة التجسس الوطنية التي كانت تعمل في ذلك القطاع.

وسارت الأمور على ما يرام أثناء عدد من الأشهر، لم تشعر خلالها إيڤا بأي اضطراب مثير كما أنها لم تكن تخشى كشف القناع عنها، وكان يخيل إليها بأن ما تقوم به من عمل لا يزيد عن كونه لعبة من لعب الطفولة، وكان رئيسها العضو الوطني الأعرج، ملازماً لها دائماً وغير بعيد عنها، وكان وجوده إلى جانبها يساعدها ويدعمها ويوجهها بنصائحه المستمرة لكي تتخذ جانب الحذر، وقد تولد في نفسها إعجاب كبير به، وعرفان بالجميل له، لاسيما بعد ذلك اليوم الذي أعلمها فيه بأن اثنين من أخوتها يعيشان في مأمن وهما في فورموزا حيث يعملان مع وحدات تشانغ كاي تشيك المقاتلة. كما

كانت تشعر في ذات الوقت بشعور الرضى عن عملها، وقدرتها في نجاح العمل، وأنها هي أيضاً تساهم في عمل له أهميته، للدفاع عن سبب تؤمن به.

وارتقت هذه الجاسوسة الفعالة والتي تعمل في عالم الحرب الخفية المظلمة، بخطوات ثابتة إلى قمة الشهرة في المسرح الليلي المضاء والمتألق من مسارح هونغ كونغ حيث أصبحت إيڤا بعد قليل من أكثر راقصات المستعمرة شهرة، وكانت رقصاتها الشرقية المثيرة تجتذب المشاهدين لها والقادمين من مختلف الأقطار.

وكان سرّ نجاح إيڤا يكمن في قدرتها على إشراك علم الإيقاع والرموز الطبيعية مع موهبتها في تطوير وإظهار ذلك وفق قواعد الفن الحديث، وكانت الروحانية المسيطرة على رقصاتها التي ترمز إلى التضحية ذات تأثير على مشاهديها يماثل قدرة من يعملون في التنويم المغناطيسي.

وكانت حماسة الجماهير تتجه تماماً لمراقبة ذلك الرقص المقسم والإيقاعي، على غرار ذلك الرقص المقدس الذي يهدف إلى طرد الأفكار الشريرة، وكانت إيڤا تمسك بإحدى يديها خنجراً ذو قبضة من الرخام المقدس، بينما تمسك بيدها الأخرى كرة نحاسية براقة مملوءة بالماء، وكانت بفضل حركاتها الفنية والتي تشبه حركات النحت تقريباً تعطي الشعور النقي والانفعالات الصافية وكأنها تعمل على تطهير نفوس المشاهدين ونفسها هي بالذات، والأرض التي عاش عليها كونفوشيوس وكان يصل ذلك التأثير أحياناً وعند انتهائها من الرقص إلى أن يصبح الجمهور وكأنه متجمد فوق مقاعد الصالة مأخوذاً بسحر ذلك العالم الغريب الذي أثارته الرقصات الإيمائية لتلك الراقصة،

حيث تمر عليه عدة ثوان من الصمت المطبق قبل أن يستفيق ليهتف بحرارة لما أصابه من النشوة. وكان الإغراء الذي يبعثه وجودها، والفن الخالص لحركات أقدامها المنحوتة ذو تأثير لا يمكن تخيّله دون رؤيته. لذا فإنه ليس من الغريب إذا ما تم انتقال الهتاف والتصفيق ليتأخر فترات قليلة بعد أداء الراقصة لرقصاتها.

وهكذا سارت حياة إيڤا بيسر وسهولة، كانت غنية وتعيش حياة الترف والرفاهية. كما كان لها القليل من الأصدقاء الذين ما كانوا ليشاهدونها إلا نادراً، وبرفقتها ابن عمها الأعرج، وقد عملت على دراسة الموسيقى من جديد، وذلك لكي تتمكن من الإبداع في رقصاتها وإدخال التطوير عليه أكثر من ذي قبل، وكان عملها في الجاسوسية، يأخذ القليل من وقتها فقط، لأنه نادراً ما كان يطلب إليها الذهاب لأكثر من مرتين في الشهر الواحد للقيام بنقل وتسليم الرسائل، كما كان هذا العمل بحد ذاته بسيطاً للغاية وهو يخلو في ذات الوقت من أية إثارة.

ولكن في أحد أيام شهر شباط (فبراير) من عام 1955 وبينما كانت إيڤا ذاهبة كعادتها إلى المدينة الصينية الوطنية القديمة، تم اعتقالها بواسطة اثنين من الرجال، يرتديان الملابس الأنيقة، وقد صرحا لها بأنهما من رجال الشرطة، وأنهما قد تلقيا أمراً بتفتيشها، ولكنها رفضت ذلك دون إبداء أي تردد كما أنه لم يظهر على تصرفاتهما مطلقاً في أنها عرفت بأنهما من رجال مكافحة الجاسوسية العاملين في منظمات الشيوعيين، ولكن مقاومتها لم تثنهما عن عزمهما، فعملا على مرافقتها وإجبارها للذهاب والركوب في عربة اتجهت بهم جميعاً إلى مركز الشرطة.

وهناك في مركز الشرطة، تم تعريتها من كامل ثيابها، بحضور سيدة من ضباط شرطة الشيوعيين. وتم تفتيشها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، كما تم تفتيش ثيابها وحقيبة يدها بعناية فائقة ولكن ذلك التفتيش لم يمكن من اكتشاف أي شيء قد يثير الشك والشبهة، ولقد احتجت عندئذ بعد أن اتخذت وضعية متعالية فقالت:

ـ إنني لم أرتكب أي عمل لأستحق منكم هذه المعاملة، إنني راقصة، ولا أهتم بشيء سوى الرقص، والفن.. وإنني لا أتدخل مطلقاً في الشؤون السياسية ولذا فليس لكم الحق لتقدموا على ما فعلتم، وإنني أطلب إخلاء سبيلي فوراً.

فأجابها رجال الشرطة الشيوعيين بقولهم:

ـ الرقص، الفن.. وهذا الخنزير تشانغ كاي تشيك ألا يهمك؟..

وهناك اثنين من أخوتك يعملون لمصلحته، كما أنه من المحتمل أن تكوني بدورك جاسوسة، في خدمة هذا الديكتاتور، راقصة... لقد انقضى علينا أسابيع طويلة ونحن نعمل على مراقبتك، فما كان من إيفا إلا أن هزت بكتفيها علامة اللامبالاة، ثم قالوا لها مرة أخرى:

ـ ولماذا تهتمين بالفن الياباني إلى هذه الدرجة؟...

فأجابتهم بلهجة جافة:

ـ قبل أن أبدأ في إبداع أية رقصة جديدة، أحب أن أتأمل في فن هوكوساي لأن أشخاصه يسيرون ضد الريح، وهذا ما أحبه تماماً، وما أفضل أن أرقصه، ولكنكم بديهياً لن تتمكنوا من فهم ذلك.

ولقد تم إخلاء سبيلها، وذلك لتجنب إثارة فضيحة عالمية بشكل

خاص، وكانت الرسالة التي تحملها قد صنعت بحجم صغير للغاية حيث أصبحت بحجم رأس الدبوس، ثم ألصقت بها على رأس إبرة وعملت على إدخالها في دبوس أكبر من الإبرة ثم ثبتته بخيط حريري في حقيبة يدها الكبيرة، وبذلك تمكنت مرة أخرى من نقل تقرير ذو أهمية حيوية خاصة، ويتضمن إصدار الأوامر لمساعدة المغاوير الوطنيين أثناء إنزالهم المقبل.

وفي ذلك المساء، صعدت إيفا على خشبة المسرح وهي مرحة تفيض ثقة وطمأنينة، بعد أن لفت جسدها بعناية وأناقة بارتدائها ثوباً يصل حتى يحيط بقدميها.

واتخذت الوضع الذي تبدأ فيه رقصها الذي اشتهرت به، وكانت تضع يدها اليسرى على قبضة خنجرها، الذي كان مغمداً في غمده الذهبي، كما كانت ترفع بيدها اليمنى الكرة النحاسية المزينة بالنقوش الرائعة، وكانت أنوار المسرح تزحف وتتقدم ببطء إلى أن تلألأت مجوهرات ثوبها والتمعت بآلاف الأشعة، وكأنها نار مشتعلة. أما وجهها فكانت تغطيه بالمساحيق البيضاء بينما كانت الخطوط المرسومة عند عينيها توحي وكأن تلك العيون أكبر مما كانت عليه في الواقع بمرتين، وبقي الرأس جامداً، ثم ابتدأت حركاتها ببطء وبإيقاع، ثم تجمدت منها القدمان في لحظة معينة وثبتتا في مكانهما، واستدارت بجذعها قليلاً لكي تمد الكرة في اتجاه المشاهدين، وكانت هي تلك إشارة التطهر والصفاء، وفي هذه اللحظة أدركت بأن أولئك الأشخاص الذين مدّت الكرة باتجاههم هم ذات الأشخاص الذين عملوا على اعتقالها منذ ساعات قليلة، وكانت أول فكرة خطرت في مخيلتها بأن هناك محنة كبرى تتهددها وكارثة ستلحق بها.

وأحست بخوف قاتل يهزها، وخيل إليها للحظة قصيرة بأنها على وشك إفلات الكرة من يدها، ثم أقنعت ذاتها بضرورة المحافظة على هدوئها بأي ثمن، وأن تتصرف بشكل طبيعي كي لا تثير شيئاً من الشكوك حولها، وناضلت كي تستمر في السيطرة على أعصابها، فاستدارت ببطء وكأنها ترغب في مقابلة جمهور النصف الثاني من الصالة، حيث كان يجلس على إحدى الموائد صديقها الأعرج، وكان وجود هذا الأخير في المكان الذي تعمل فيه الراقصة يمكن اعتباره بمثابة برهان خطير وبذا وقعت في مكانها في منتصف المسافة بين الأصدقاء والأعداء، وكان من الصعب عليها أن تشير لصديقها بوجود الخطر، فعملت على السير بخطوات قصيرة، وغيّرت حركاتها وأوضاعها، وهي تبسط الكرة فتقدمها إلى المشاهدين ثم تسحبها إليها، وكانت في كل هذه الفترة تتبع الإيقاع الذي كان يتزايد في سرعته أكثر فأكثر، وكانت الفرقة الموسيقية تتكون من مجموعة من العازفين والضاربين على الطبول، والنافخين في المزامير. وبينما كان الإيقاع يتبدل ليتجاوب مع حركات الراقصة المثيرة، كانت هذه تحاول إيجاد حل للمشكلة التي وقعت فيها، لقد كانت تعرف بأنه من العبث القيام بأية محاولة للفرار في الليل لأن ذلك لا يفيدها في شيء سوى إصابتها برصاصة في ظهرها، وأدركت عندئذ بأنها كانت قد أهملت الحادث الذي صادفته في النهار، وقالت لنفسها بأنه كان يجب عليها أن تزين رأسها بأقحوانة حمراء عوضاً عن الأقحوانة البيضاء وبذلك كان بإمكانها تحذير صديقها.

وتوقفت الفرقة الموسيقية عن العزف، ولكن إيڤا استمرت في رقصتها، وقالت في سرّها بأنها ربما تتمكن بذلك من كسب الوقت، وأدرك ضارب الطبل بأن هناك شيئاً غير طبيعي، فاستمر في الضرب

بإيقاعه المتزن، وأخيراً توقفت وهي في منتصف المشهد، فتعلقت أنفاس الجمهور، ونظر الجميع إليها بينما كان الصمت مطبقاً على الصالة، وهم يتوقعون مشاهدة رقصة جديدة تبدعها لهم إيڤا التي جثت على ركبتيها بهدوء، ووضعت الكرة على الأرض، وأمامها تماماً، ثم رفعت برأسها وكأنها تسترحم السماء. وسحبت الخنجر من غمده ثم أحنت رأسها إلى الأمام وقامت بحركة واسعة من يدها وكأنها حركة من حركات التضحية وعندئذ أغمدت السكين في ساعد ذراعها الأيسر، وبقيت جامدة للحظة قصيرة، وهي تنظر إلى الدم يسيل فوق لحمها الأبيض كالعاج، وأخيراً أمسكت بالأقحوانة التي كانت تزين بها رأسها، ومرت بها على طول الجراح، وأعطت بذلك انطباعاً وكأن الأقحوانة البيضاء قد عملت على تصفية دمها من الشوائب، وبذلك اصطبغت الأقحوانة باللون الأحمر، إشارة الخطر.

وعندئذ فقط، سقط القناع الأبيض من فوق وجه إيڤا فابتسمت، وفسر الجمهور ذلك كرمز للفرحة التي يجب أن تشيعها بعد أن انتهى الاحتفال بالتطهير. وكانت تبسط أمامها ذراعها الدامية بينما كانت تحني بيدها اليمنى من فوق رأسها التي كانت تمر من فوق الأقحوانة التي صبغها الدم باللون الأحمر.

وخيم الصمت على الصالة، إلى أن أضيئت الأنوار ثانية فشعر الجمهور بانتهاء الرقصة، وآنئذ تعالت هتافاته وصراخه أكثر من أي يوم مضى، وكان الجميع يضربون بأيديهم، كما تهامس بعض المشاهدين فيما بينهم وهم يرددون التعليقات عن الإبداع الخارق للطبيعة، والذي ابتكرته إيڤا في آخر رقصة لها.

وعاد هتاف الجمهور صاخباً عندما دخل رئيس إيڤا إلى غرفتها

ليقدم لها العون والحماية وكان قد أدرك هو بدوره تلك اللحظة الحرجة، لذا كانت يداه ترتجفان وهو يعمل على مساعدة إيڤا في ارتدائها معطفها، ودمدم هامساً في أذنها بصوت خفيض فقال لها:

«أيتها الشجاعة والذكية». وبما أن المخبرين الشيوعيين كانا يقفان عند مدخل الصالة الرئيسي فقد تمكنت الراقصة أن تخرج من أحد الأبواب الصغيرة وبرفقتها الرجل الأعرج، حيث ذهبا معاً إلى أقرب مستشفى.

لا تزال الأحاديث في هونغ كونغ حتى الآن تأتي على ذكر إيڤا وي وأنهم لكثيرون هم أولئك الذين لا يزالون يتمتعون بمشاهدة آخر رقصة لها، من رقصاتها الصوفية، كما يجمع كل من شاهدها على أن رقصتها الأخيرة كانت من أفضل وأروع ما قدمته لاسيما عندما عملت على إسالة دمها، كما يتساءل الجميع عن السبب الذي دفعها للتوقف عن تقديم رقصاتها في نوادي المدينة. فمنهم من يؤكد بأنها تزاول رقصها في سان فرانسيسكو.

ويقول آخرون بأنها قتلت.. وهناك رجل صرح بأنه شاهدها في فورموزا برفقة ذلك الرجل الأعرج، وأننا نجهل بالضبط ماذا جرى لها...

ولكننا نعلم على كل حال بأن إيڤا قد انقطعت نهائياً عن الرقص في صالات هونغ كونغ.

إلكا فالك(*)
(Elka Falk)
(1943 -   )

هي إحدى عميلات الاستخبارات الألمانية الشرقية، حيث قام بتجنيدها «غيرهارد تيمة» إلى أن اعتقلت في العام 1988.

وبالفعل كانت **إلكا فالك** الفتاة الألمانية في الثلاثين من العمر حين بدأت عملها في المستشارية الألمانية كسكرتيرة. وهذا العمل يعطي صاحبه الكثير من المعلومات التي تمس أمن ألمانيا.

إلى هذا العمر كانت إلكا عزباء لم تتزوج، مع أنها تطوي في روحها فضائل من حنان وطيبة ورقة، وهي تمني النفس أن تتعرف على شاب وسيم ذكي يستطيع أن يكمل معها مسيرة الحياة ويبعد عنها وحدتها ويضعها في عش دافىء.

ومثل هذا الأمر كان باب القصيد لمخابرات ألمانيا الشرقية.

فجأة ظهر في حياتها هذا الفارس وهو يمتطي فرسه وذلك على

(*) **المرجع**: سمير عبده «التحليل النفسي للجاسوسية». دار الكاتب العربي. دمشق. الطبعة الأولى 1989. ص167 ـ 174. وجينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية» ترجمة مروان بطش. دار الفاضل. دمشق 1998. ص321.

أحد البلاجات في عطلة صيفية كانت تقضيها هذه السكرتيرة الحسناء على شاطىء البحر.

كانت تفكر بشبابها والأيام التي تعدو وحبيب العمر الذي لم يظهر. وفيما هي بين الأحلام واليقظة كان هذا المجهول ماثلاً أمامها: إنه شاب يحمل كل معنى الجمال.. فائق الحسن.. مشرق الروح، ذا عينين زرقاوين صافيتين، وشعر كستني جعد، ووجه بيضاوي كوجوه القديسين، وصوت ناعم رخيم.. معتداً بنفسه، فخوراً بقوته، رقيق الطبع، تتهالك عليه العذارى معجبات به، وكل واحدة منهن تود لو استطاعت كبح جماحه والتغلب عليه والاستئثار به.

وسرعان ما شغفت به حباً وهي التي أمضت شبابها تبحث عن الرجل الكامل، الرجل الذي يجمع في أطواء روحه فضائل الرجولة من استقامة ونزاهة و (صراحة) و (إخلاص).. وها هي الآن، وقد أصابت الهدف، وعثرت على الضالة المبتغاة، تلقى عصا الترحال، وتحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تلهب في كيان رجل أحلامها، تلك العاطفة العظيمة التي ظلت تعذبها الأيام والسنين.

أما هو فقد كانت هذه هي وظيفته.. التقرب ما أمكن إلى قلب إلكا فالك وإيقاعها في شباكه ومن ثم السيطرة عليها جسدياً ونفسياً.

ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، فإذا كانت هذه الفتاة قد وقعت في شباكه حباً، فالواقع أنه هو الذي أراد لهذه الوقيعة أن تقع.

لقد أسعدها هذا الحبيب المجهول وجعل منها أسعد مخلوقات الله طراً! فطفقت تصبح تحت تأثير وحيه كل ما يأمرها به.

تجسست على المستشار السابق هيلموت شميت، (يعني المستشار في حكومة ألمانيا رئيس الوزراء) واستمرت تتجسس على

المستشار التالي هيلموت كول إلى أن نقلت، بناء على طلبها، وطلب حبيب قلبها، للعمل سكرتيرة بوزارة التعاون الاقتصادي لتزويد حبيبها بمعلومات عن أسرار وزارة التعاون الاقتصادي وخطط الوزراء تجاه دول العالم الثالث، فاهتزت العاصمة الألمانية بأسرها، لأن الفضيحة لم تعد فضيحة وزير التعاون الاقتصادي (هانز الصغير) الذي كان يروح عن نفسه في نيودلهي، وإنما أصبحت فضيحة الحكومة السابقة والحكومة الحالية، ولم تعد هناك فرصة لأن تعاير الأولى الثانية فالجميع في الهمّ سواء.

حين تمكن غيرهارد تيمة من استمالة قلب إلكا فالك بعد تعارفهما عام 1974 حدثت في السنة الثانية وعلى وجه التحديد في نيسان (أبريل) 1975 حادثة كانت من أضخم عمليات التجسس التي جرت في السنوات الأخيرة في ألمانيا الغربية وذلك حين قبض على غونتر غيوم مساعد المستشار الألماني الأسبق فيلي برانت، إذ كان لا يفارقه ليلاً ونهاراً، وكانت بينهما بعض الأسرار النسائية، وأدت هذه الحادثة إلى تنحي براندت عن منصبه.

كانت التعليمات التي أملاها الحبيب على حبيبته على أثر هذه الفضيحة أن تتبع الإجراءات الجديدة داخل المستشارية، لا بل كان المطلوب من إلكا أن تحل محل غيوم ولذلك فقد كان حبيب القلب يطلب منها تغيير مكان عملها بين فترة وأخرى.. فهي تارة في مكتب مسؤول ما في المستشارية، وأخرى في مكتب مسؤول آخر وهكذا لدرجة أنها عملت في الفترة من سنة 1978 إلى سنة 1987 في جميع مكاتب المستشارية تقريباً.

كان يأمر وهي تنفذ وكأنها واقعة تحت تأثير سحره، وكلما أراد

حبيب القلب معلومة من إدارة ما طلب منها الانتقال إلى هذه الإدارة، وهي تطيع وتسرف في الطاعة ولا تقول لا.. فقد تعودت معه أن تقول دائماً نعم، حتى لو أدى بها ذلك إلى السجن.

إلى أن كان عام 1987 حيث طلب غيرهارد تيمة منها الانتقال إلى وزارة التعاون الاقتصادي فأطاعت الأمر ونقلت للعمل في مكتب وكيل الوزارة فولكمار كولر الرجل الملتحي الذي تربطه بدول العالم الثالث علاقات اقتصادية، وأسرار ما بعدها أسرار. فقد كانت تصلها محاضر مجلس الوزراء وسياسة ألمانيا تجاه كل دولة من دول العالم الثالث، وتقارير الفساد والرشوة. ومن الغريب أنها كانت اليد اليمنى لكل مسؤول تعمل معه، وكان يتردد عليها حبيب القلب في شقتها المكونة من ثلاث غرف، وبين الشموع تساقطت الأسرار، وصور المستندات والتقارير التي تحمل عبارة سري للغاية.

وجاء في التقرير الذي رفع بعد الكشف عن هذه الفضيحة أن رجال المخابرات الألمانيين الشرقيين قد حصلوا على صورة كاملة عن كل ما يجري وراء الكواليس السياسية في بون.

والمضحك أنه طوال السنوات التي عملت فيها إلكا فالك لحساب المخابرات الألمانية الشرقية، لم تكن على الإطلاق محل شك، وإنما كانت في جميع الأحوال محل ثقة رغم أنها كانت تحتفظ دائماً بجهاز تصوير وآلات تصوير، ورغم أنها كانت مقيدة بفصول لتعليم اللغة الفرنسية وكانت تتغيب دائماً عن الدرس، وعلى الرغم من أنها من السكرتيرات اللاتي يعشن وحدهن، واللاتي يشكلن أعمق ثغرة في الأمن الألماني الغربي.. فالوحدة قاتلة والعش البارد لا يحتمل.

وإزاء هذه الثقة لم تكن إلكا من السكرتيرات المراقبات، ولكن حبيب القلب كان تحت عيون المخابرات الغربية وبالتالي فإن مراقبة تحركاته هي التي قادتهم إلى إلكا. فقد كانت تستعد للسفر إلى النمسا لقضاء إجازة تزحلق على الجليد.. أعدت كل أدوات التزحلق، واستعدت نفسياً للخروج من أجواء بون الكئيبة إلى حيث تنطلق مع حبيب القلب.. بعيداً في النمسا.

في هذه الأثناء.. فجأة دق جرس الباب بمنزلها بضاحية قريبة من بون، وهي ضاحية يقطنها المستشارون الإعلاميون لدى السفارات الأجنبية.. وفتحت إلكا الباب لتجد مجموعة من الرجال بالملابس المدنية قدموا لها أنفسهم بأنهم مخابرات وصحبها فريق منهم إلى مبنى فرع المخابرات في بون بينما قام الفريق الثاني بتفتيش الشقة. وقبل القبض على إلكا بساعات اختفى حبيب القلب من بون وذاب كفص ملح، واعترفت هي بكل شيء، وجعلت بون كلها تهتز بعد أن كانت الأنباء الأولية تشير إلى أن المصيبة قاصرة على وزارة التعاون الاقتصادي ووزيرها هانز الصغير.

❀ ❀ ❀

خطط لهذه العملية بشكل دقيق بحيث لم يتمكن رجال الأمن الألمان من اعتقال العقل المدبر لهذه العملية وسقطت فقط الأداة إلكا فالك.

لقد درست هذه الفتاة من كافة النواحي، فعرف سلوكها ومطامحها ورغباتها، بحيث أُوجد غيرهارد تيمة مطابقاً لما تريد حتى تتقارب المسافات بينهما ويتمكن بالتالي من تسخيرها لأغراضه التجسسية، فيما كانت هي تعيد شبابها وتحلق في خيالها ناسية مدى خطورة العمل الذي تقوم به.

يسلم عالم النفس بأن سلوك إلكا فالك يقبل التفسير، أي أن له أسباباً وشروطاً يمكن تحديدها. ويكون هدفه ـ لهذا ـ هو التعبير عن المنطق الصحيح لواقع هذه المسببات. ويسلم علم النفس أيضاً بأن أسلوب المعرفة أهم مما نعرف والأسلوب المستخدم في علم النفس هو المنهج العلمي.

وقد اتبع منهجان رئيسيان في عملية ترويضها النفسي هما: التجربة العلمية التي تكون عبارة عن موقف أقرب لمواقف الواقع، ويعرض له الأشخاص بطريقة تسمح بإثارة نوع من السلوك، الذي يجب ملاحظته وتقديره وبالتالي التوصل إلى قانون أو نظرية. وتتضمن التجربة عناصر منها التغيير المنظم في المتغيرات التي نلاحظ تأثيرها على السلوك ويطلق عليها المتغيرات المستقلة. ويمكن تحقيق التغيير المنظم من خلال الإظهار التدريجي للمتغير المستقل بكميات متفاوتة، أو تكوين مجموعات متنوعة من الأشخاص بحسب خضوعهم لجوانب من المتغير المستقل.

أما العنصر الثاني من التجربة فهو يعتمد على ضبط المتغيرات أي استبعاد كافة المؤثرات فيما عدا المؤثرات التي أريد دراسة تأثيرها على الاستجابة. ويتم الضبط بطرق منها: تكوين جماعة تجريبية يظهر فيها المتغير المستقل وجماعة ضابطة تتساوى في كل الشروط فيما عدا توافر المتغير المستقل.

علاقة غيرهارد تيمة مع إلكا فالك كانت العشق، ولا نعرف مدى صدق الأول في دوره، بيد أننا متأكدون أنه أجاد تمثيل دور العاشق تماماً.

إن الزمن في مثل هذه الحالة أكثر أهمية، ذلك لأن العلاقة بالعشيقة لها مدة معينة، وهي تمتاز بأنها ستموت يوماً ما، ومما يحدد

شكل هذه العلاقة وتفاصيلها أنها تحمل في أحشائها، منذ ولادتها، الباعث على مماتها. وبعض هذه العلاقات لا ينتهي إلا بموت أحد العاشقين، أو بما جرى في قصتنا. غير أن الموت، في مثل هذه الحالة، يحدث قبل مضي الزمن المحدد لهذه العلاقة.

والبعض يفسر استمرار هذه المغامرة بالخوف من الزواج، لأن الرجل يتعلق بهذه الصورة البدائية للعلاقة الجنسية خوفاً من الزواج. ولهذا فهي بدلاً من أن تكون علاقة حية فإن هذا النوع من العلاقات يشبه جثة حية، وليس لهذه الحالات أية أهمية نفسية لأنه يمكن التغلب على معظم العقبات إذا صحت النية. ولا تسعى علاقة العشق عادة للارتفاع إلى مستوى الزواج، أما إذا خيل إلينا في بعض الحالات أنها تفعل ذلك فمن الأفضل القول إنها تتردّى فيه، لأن العمل على استمرار هذه العلاقة مناقض لطبيعتها الحقة. وهذا دليل، في أغلب الأحيان، على خطأ كبير. لأنه يمكن للعاشقين أن يكونا سعيدين مدة من الزمن، بينما هما لا يستطيعان تحمل علاقة دائمة نهائية. ولهذا فلربما كفى العاشقان نفسيهما مؤونة الحزن لو أنهما أدركا أن العشق علاقة مؤقتة. وبما أن العشق لا يسمح لهما بالسير معاً إلا مدة قصيرة من الزمن فلسوف ينفصل كل منهما عن الآخر عملاً بموجب قانون الحب الذي يجمع بينهما.

إننا لنرى تعدد أسباب موت هذه العلاقة تعدد أسباب موت الإنسان نفسه. فالناس معظمهم يموت بسبب الكهولة، ومنهم من يموت بسبب حادثة خارجية أو من الملل، وتحيا علاقة العشق ما حيي الحب، لأنه روح هذه العلاقة مهما كانت حاجتها إلى النضج والكمال. غير أن الحب ـ أو العنصر الانفعالي فيه ـ مصيره إلى الفناء في يوم من الأيام. ولهذا تموت هذه العلاقة إذا ماتت الروح التي

تحييها، وليس لدينا ما نقوله عن معظم هذه المغامرات سوى أن بعضها ينتهي نهاية مخزية حقاً. وهناك مثل صيني يقول (تمتع فإن فوات الأوان أكثر مما تظن). ويمكن تطبيق هذا المثل على كل شيء ولاسيما على علاقات العشق. فهناك عاشقان يظنان أنهما لا يزالان في أوج حبهما فإذا بالنزاع ينشب بينهما فجأة، فيتعلق كل منهما بالآخر ويود كل منهما لو يمنع الشمس عن المغيب، ولكن هيهات! فلقد انتهت مرحلة من حياتهما.

نعاني في علاقة العشق أول تجربة لمعجزة الحب، كما نشهد أول مظهر لنتائجه. فنحن بانتمائنا إلى شخص آخر ننتمي إلى العالم عامة ونكتشف لأول مرة شخصيتنا بدلاً من ضياعها، لأن: من أراد الفرار بحياته أضاعها. وتختلف علاقة (الانتماء) هذه بوضوح عن سائر العلاقات، لأنها تشمل الشخصية بأجمعها: الجسد والروح. ولهذا كانت الحياة النفسية عنصراً أساسياً تحتاج إليه كل علاقة عشق. كما أن الوظيفة التناسلية وسيلة لاتحاد كل من شخصيتي العاشقين، ورمز لهذا الاتحاد. غير أنه لما كانت علاقة العشق علاقة غير تامة لم يكن من الضروري أن يؤدي الأمر بالعاشقين إلى الاتحاد الجسدي الكامل الذي يتم في الجماع. وغالباً ما تكون العادات الجنسية التي تتحقق في العشق تمهيداً للجماع في نهاية الأمر.

ويقال عن المرأة العاشقة أنها تظل نصف عذراء، وهذه التسمية حقة مهما كانت درجة صحتها من الناحية التشريحية. والاتصال الجنسي في العشق غاية في نفسه، وهو لا يهدف إلى الإنجاب لأن الطفل يرمز إلى طابع الحب الدائم، وهذا مما يتعارض وطبيعة العشق نفسه. وأما الأسباب العملية التي يخشى من أجلها العاشقان ولادة طفل لهما فيجهدان للحيلولة دون ذلك، فهي عديدة. غير أن هناك

سبباً واحداً يبرر في النهاية هذا الرفض وهو أن علاقتهما ناقصة لا يمكنها أن تكمل بإنجاب طفل.

ومع ذلك، هناك ناحية يتخطى فيها العشق جميع صور الحياة الجنسية التي حللناها سابقاً وهي الناحية الاجتماعية. إذ يبدو في هذه الناحية طابع العشق الناقص، كما يظهر ضروب النزاع الكامنة فيه. وذلك لأن ميدان العشق الخاص هو الحياة الخاصة. وكثيراً ما يحدث أن ينفضح أمر العاشقين فيتدخل المجتمع حينئذ في علاقة العاشقين، إذ يرغب أحدهما باتحاد أقوى في حياة مشتركة، فتبدأ بذلك الصعوبات. لأن العشق لا يستغرق إلا جزءاً من الوقت هو عبارة عن ساعات الفراغ. ولهذا لا يقضي كل من الرجل والمرأة الوقت معاً إلا في أيام حياتهما المضيئة. وتتحمل المرأة كل ذلك لوحدها، فيجب عليها أن ترضى بتفضيل عشيقها لعمله على حبهما، وأن يحرمها من ألذ ساعات حياتها، فهي بهذا على الهامش. فإذا ما خرج بها عشيقها من حياتها المستترة أدى ذلك إلى نشوب ضروب أخرى من النزاع، ذلك لأن جميع الصفات التي كانت تحببها إليه وتغريه بها كعاشقة تزول إذا ما خرجت إلى الحياة العامة. ثم إذا ببعض هذه الصفات التي كانت لا أهمية لها تصبح على جانب كبير من الأهمية، كسيرتها وزينتها وأذواقها. أما في الزواج فإن للشخصية كلها أهميتها بينما لا يؤثر في العشق إلا المظاهر الجانبية.

مما ذكرناه يتضح أن علاقة العشق التي قامت بين بطلي فصلنا هذا كانت لمصلحة الحبيب الذي قام بدور العاشق الولهان مما أوقع العشيقة في حبائله واستثمرها في ذلك إلى أقصى حدود الاستثمار، لا بل ملك قيادها وجعلها تقوم بعمل يقود في كثير من الأحيان إلى الإعدام.

إيما إدموندز(*)
(Ema Edmondez)
(-   )

هي إحدى الجاسوسات الفرنسيات التي برزت خلال الحرب الأهلية التي دارت رحاها بين الأعوام 1861 و 1865 في فرنسا، حيث قامت عدة نساء جسورات باجتياز الخطوط المعادية من أجل التجسس، ومن بينهن «إيما إدموندز» التي كانت تتمتع بخيال واسع، فقامت بالتسلّل إلى خطوط القوات الكونفدرالية متنكّرة بشخصيات متعددة، ومستخدمة لكنة سكان الولايات الجنوبية. وقد نجحت في مهمتها نجاحاً استحق الثناء والتقدير.

(*) **المرجع**: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية/ الاستخبارات السرّية منذ رمسيس الثاني وحتى اليوم». ترجمة مروان بطش. دار الفاضل. دمشق 1998. ص220.

الكونتيسة إيميليا فون هـ(*)
(Emylia Vonn H.)
(-   )

هي زوجة الجنرال الألماني فون هـ. ، والجاسوسة المكلفة بالحصول على أسرار القيصر الروسي نيقولا من خلال أخيه الغراندوق فلاديمير.

كيف كان ذلك؟

في القاعة العظيمة الفسيحة الأرجاء من أحد قصور أوستند انتشرت موائد فخمة حافلة بأطايب المأكول والمشروب، والتف حولها جمع من عيون الأرستقراطية وأمراء المال والصناعة.

كان ذلك في أحد أيام 1913، في الفترة التي اعتاد الغراندوق فلاديمير الروسي أن يظهر بها كل سنة في المحافل الرفيعة وكبريات قاعات اللعب بعد أن يقيم مدة في دوفيل، ويقضي بعض الزمن بالقنص في سولوني ودوفينه، وشهوراً في اللهو والسلوى في مونتي كارلو.

(*) **المرجع**: جان بردان «جاسوسات ألمانيات». ترجمة باسيل دقاق. دار المكشوف. بيروت. الطبعة الأولى 1947. ص25 ـ 43

لم يكن للذهب في عين هذا الأمير الموسكوي الكبير من قيمة، فراح ينفقه جزافاً هنا وهناك، فيجمع حوله طائفة من الطامعين والمتزلفين يحيطونه برعاية خارجة على المألوف واحترام قلما خصّ به سواه.

في تلك العشية البهيجة وقف الموسيقيون في القاعة الكبرى يطربون الحاضرين ويتبارون في إرضاء القوم. وكان رئيسهم الطلياني قد انتهى من عزف قطعة لتوسيلي على كمانه، فتقدم من مائدة الغراندوق الذي كان يجالسه الجنرال الألماني الكونت كورت فون هـ... وبعض الحسناوات، واقترب منه باحترام وسأله بتوسل واستعطاف:

ـ أتتكرم يا صاحب السمو، فتأمر بأن نعزف قطعة معينة تحب أن تسمعها؟.

ـ أرى من لهجتك أنك إيطالي. فهل أنت كذلك؟.

ـ أجل يا صاحب السمو. إنني خادمك المطيع، ويؤسفني ألاّ يكون لي شرف الانتماء إلى رعيتك.

قال الغراندوق لجلسائه بالألمانية وقد أضجره هذا التوسل والابتهال:

ـ هؤلاء جماعة من سقط البشر يثيرون اشمئزازي. إنهم أدعياء ونفوسهم نفوس عبيد وخدم.

فأجابه فون هـ...، وما كان ليدع فرصة لارتكاب هفوة إلا اغتنمها:

ـ إنهم حلفاء ألمانيا يا صاحب السمو.

واستاء الغراندوق لهذه الملاحظة، وكان قد أكثر من الشراب،

فدعا الموسيقي إلى الاقتراب منه وجذب قوس الكمان وقطع أوتارها حتى صارت قضيباً، وضرب بها الطلياني ضربات عصبية متتابعة، فأنّ منها، وتجمعت مقاطع وجهه ألماً. ثم كسر الأمير الروسي القوس وألقى بها في وجه الموسيقي وأتبعه بقطعة نقود ذهبية سارع هذا إلى التقاطها، ثم بثانية فثالثة فرابعة فخامسة التقطها الموسيقي كلها وقد انفرجت أساريره وانطلق لسانه بالشكر والدعاء.

وقال الغراندوق موجهاً حديثه إلى الجنرال الألماني:

ـ أنظر إلى حلفائكم يا صديقي! هذا هو شأنهم جميعاً!.

ثم أشار إلى الموسيقي إشارة تأمره بالانصراف. وعزفت الفرقة نشيداً عسكرياً روسياً صاخباً وحشياً. عزفته باندفاع وحماسة كأنها تعرب عن امتنانها للغراندوق... وضحك الجميع حتى الجنرال فون هـ...

ولكن إحدى النسوة اللواتي كن جالسات إلى مائدة صاحب السموّ ظلت مقطبة الجبين وقد آلمتها بادرة الأمير الروسي وأحست بالإهانة، وهي زوجة الجنرال فون هـ... الصبية الجميلة. ولمّا رجعت إلى المنزل أعربت لزوجها عن استيائها، وانفجرت ثائرتها، وأسفت لأن التقاليد وأصول الآداب السياسية حالت دونها والرد على إهانة الأمير الروسي وإعلان رأيها في عمله الوحشي الذي ليس ثمة ما يبرره.

وتلهّى الجنرال بثورة زوجته، فقد كان قائد فرقة من الخيالة واعتاد أمثال تلك المشاهد التي أثارت زوجته، وتذكر أنه كثيراً ما ساط رجالاً بقسوة لا تقاس إلى قسوة الأمير الروسي على الموسيقي الطلياني.

ولئن يكن ضرب الرجل لم يؤثر فيه، فإنه أسف أن يغتنم الغراندوق هذا الحادث ليعبّر علناً عن شعوره بالاحتقار والعداء نحو حلفاء ألمانيا. ولذا حرّر تقريراً سرياً بالحادث في الليلة ذاتها أرسله إلى القيصر...

حاول الموسيقي الإيطالي أن ينسى الإهانة ببعض كؤوس من الشراب، وبعدُ، فقد كان ذهب الغراندوق يشفع له في بادرته التي وصفها الموسيقي بأنها عصبية عارضة!.

ولعبت الخمرة برأس الطلياني في ذلك المساء فأبدع في العزف على كمانه وهزّ المشاعر هزاً عنيفاً. وجلست الكونتيس إيميليا فون هـ... وحدها، بعد أن ذهب الناس إلى قاعة اللعب، تستمع إلى الموسيقى الشعرية الساحرة، وتتلذذ نظرات الموسيقي المداعبة الرقيقة المستعطفة المترجية.

كانت إيميليا ابنة مرافق الامبراطور. تزوجت في العام 1911 بالكونت فون هـ... بأمرٍ سام. وكان هذا بالرغم من تعدّيه الخمسين خريفاً كولونيلاً بارزاً غنياً جداً. وقد رفعه غليوم الثاني إلى رتبة جنرال فكان هذا الترفيع هدية العرس. ولمّا زار العروسان القصر الإمبراطوري في بوتسدام قال لهما الإمبراطور أن زواجهما سيعود بالخير على مصالح الإمبراطورية والعائلة المالكة.

ولم ير الجنرال وزوجته في هذا القول سوى تحبب من غليوم ودليل على رغبته في هذا الزواج. وكان هو فخوراً بأن يكون زوج امرأة بمثل جمال إيميليا ممّا عزاه على اضطراره إلى حبس نفسه في أواخر أيامه في منزل زوجي، بينما كانت هي تخفي ألمها وخيبة آمالها كما يقضي بذلك أصلها الكريم وفقرها وشعورها بأن الإمبراطور يهتم بأمرها.

وقرر الزوجان، بعد إقامة قصيرة في قصر منيف على إحدى قمم

الجبال السود التي تشرف على الرين، أن يرحلا في جولة شهر العسل.. وراحا يتنقلان من أوستند إلى مونتي كارلو، ومن سبا إلى فيسبادن، ومن لوكارنو إلى لوسرن...

بعثت قسوة الغراندوق على الموسيقي الطلياني، في نفس إيميليا كوامن عاطفتها وأحاسيسها، واختلطت شفقتها عليه بإعجابها بمخمل عينيه وارتياحها لنظراته وافتتانها بألحانه. فلمّا انتهى العشاء بعثت له بكلمة تطلب إليه بها أن يزورها في الغد في منزلها...

وحدث ما لم يكن منه بدّ. وتحولت دروس العزف على الكمان التي طلبتها إيميليا إلى أحاديث، والأحاديث إلى تقارب فعناق فوصال. وكانت المرأة بعد صبية فما تجرأت على ترك زوجها والاتصال أبداً بالموسيقي. واكتفت بأن تحافظ على علاقتها الغرامية السرية بالشاب، واجتنبت الفضيحة.

وبينما كانت مستسلمة للموسيقي تذوق بين أحضانه ما حرمته من مباهج الدنيا، كان الجنرال غارقاً في المشروب واللعب، يكاد لا يفارق الغراندوق ويحصي عليه حركاته وكلماته وينقلها إلى برلين.

وصل تقرير الجنرال عن الغراندوق إلى القيصر وهو في رحلة في البلطيك. فلما اطلع عليه أمر باستدعاء الجنرال فون هـ... حالاً إلى ألتونا، على أن تبقى زوجته في أوستند فيلحق بها بعد مقابلة الإمبراطور.

كان حدس هذا قد صدق، وبدت أولى ثمار زواج الجنرال بإيميليا دانية.

بعد تسعة أيام من حادث الغراندوق مع الموسيقي الطلياني، ركب الجنرال القطار السريع من كولونيا تاركاً امرأته في أوستند،

فوصل إلى ألتونا حوالى الساعة الثامنة صباحاً. وكان أحد الخدم قد وصل في الليل من برلين حاملاً إليه بزة رسمية. فأبدل ثيابه في الفندق، ثم حمله مركب بخاري إلى سفينة الإمبراطور. وكان هذا ينتظره على جسر السفينة. فلمّا رآه رحب به مبتسماً وهنأه بسرعة وصوله وتنفيذه أوامره بدون إبطاء، وقال:

ستتناول معي طعام الغداء. ثم نبدأ بالحديث.

وبالغ الجنرال في الإعراب عن ولائه وإخلاصه. وكان فخاره عظيماً بهذه الحظوة ينالها عند القيصر.

❀ ❀ ❀

كان الغداء فاخراً، وساده جو من المرح، وزالت الكلفة والمراسم. وتحدث الإمبراطور إلى الجنرال في أمور خطيرة رسمية وغير رسمية، وأطلعه على بعض الأسرار. كان غليوم في ساعة من ساعات الرضى والانشراح، ونادراً ما مرت به ساعات كتلك.

وكاد الجنرال، وهو محشور في بزته الرسمية حشراً، أن ينفجر كبرياء بهذا الشرف الرفيع يوليه إياه سيده. وما تجرأ على أن يذوق لقمة خوفاً من أن يضيع كلمة واحدة من كلمات الإمبراطور والإمبراطورة. وكانت هذه تهتم بقضية واحدة ولا تتحدث عن سواها، وهي قضية سكان منطقة سيليزيا، وتسأل الجنرال الذي كانت جيوشه مرابطة فيها، إيضاحاً عن أولئك السكان الذين تمردوا على الألمان. وحاول فون هـ... أن يبدل الموضوع لأنه كان يحرج موقفه. ولكن الإمبراطورة مضت في طرح أسئلتها بدون أن تلتفت إلى نظرة الهزء التي كان القيصر يرسلها إليها بين حين وآخر.

ونصحت الإمبراطورة للجنرال أن يحارب بدون رحمة أولئك

الذين يحيدون عن الصراط المستقيم وقالت:

«إن خطرهم عظيم وأفضل لنا أن نحرقهم ونمحقهم على بكرة أبيهم من أن ندع لهم سبيلاً إلى إفساد الشعب الألماني».

فأجاب فون هـ. . . بالموافقة وقد عزم عزماً أكيداً على أن يفني بحد السيف جميع البولونيين الذين يناوؤن الجند ويناصبون ألمانيا العداء.

قام القيصر عن الغداء وصعد إلى مقصورة القيادة ليصدر بعض الأوامر إلى البحارة، بينما كانت السفينة تتجول في عرض الشاطىء. وظل نحو الساعة في ذهاب وإياب، وأصدر بعض الأوامر، ثم تعب من نزهة الهضم هذه وشعر بحاجة إلى الجلوس، فذهب إلى أحد المقاعد المستطيلة وتمدد عليه وهو يهم بابتداء الحديث مع الجنرال. وظل هذا واقفاً ينتظر أوامر سيده.

أشار القيصر إلى مقعد ودعا فون هـ. . . إلى الجلوس، وقال:

ـ استرح أيها القائد الهمّام. إن ما سأفاتحك به لا يتعلق بسوانا. واعلم أن في الأمر عظمة الإمبراطورية.

دق الجنرال كعبيه الواحد بالآخر وانصاع للأمر وجلس بانتظار ما سيسره إليه سيده. وفتل القيصر شاربيه وبدا الجدّ في سحنته وقال:

ـ أتذكر أنني قلت لك يوم زواجك أن هذا الزواج سيكون مفيداً للإمبراطورية؟ فاعلم إذاً أن ساعة الإفادة قد دقت. إنك لا تجهل يا عزيزي الجنرال، أن العالم أجمع يحسد ألمانيا على عظمتها وقوتها وجبروتها. إننا محاطون بالأعداء. وخصومنا يتربصون بنا الدوائر ويراقبوننا ويهاجمون حلفاءنا. ولكننا ساهرون على الرين وعلى طول الفستول. إننا لا نغفل عما يجري في الغرب والشرق، ولا يخفى

علينا ما يجري في بلاد حسّادنا.

وكن واثقاً يا هـ... بأننا نرقب كل كبيرة وصغيرة من حركات الفرنسيين والإنكليز وسكناتهم، وأننا نعرف حتى ما يضمرون. إن بين خصومنا أناساً أغبياء يهزأون بغبائنا. ولكنهم لن يضحوا حين تدوس سنابك خيولنا ونعال جنودنا شوارع الشانزيليزه. إن سيوفنا مسلولة، وبيضنا مشحوذة، وأعصابنا موتورة، وأدمغتنا حارة ثائرة. وستدق قريباً ساعة العمل، ساعة لن يتراجع فيها واحد من الألمان الأصليين الحقيقيين. إننا بحاجة إليك أيها الجنرال. إن ألمانيا تناديك.

- سيدي ومولاي! حياتي فداء الإمبراطورية وفداؤك.

- ليس المطلوب منك حياتك. فإنما الموت للجندي واجب وليس هو بالتضحية ما دام قد نذر شخصه لخدمة الوطن.

- حقاً قلت يا مولاي.

- سأطلب إليك أكثر من هذا.

- إنني طوع أمرك ورهن إشارة منك.

وخفض غليوم صوته وقرب فمه من أذن الجنرال وهمس:

- إنك تعلم يا حضرة الكونت، أن الجيش لا ينتصر إلاّ إذا كان يعرف طبيعة الأرض التي يحارب عليها. وفي الحرب التي أنا مزمع على خوض غمارها، سيكون لدوائر الاستعلامات السرّية دور عظيم في الميدانين السياسي والعسكري. ونصرنا فيها رهن بصحة المعلومات والأنباء التي نستقيها عن أحوال خصومنا. وعلى هذا يجب أن تكون الأخبار التي تصلنا صادقة كاملة. ولهذا السبب حوّلنا مكتب استعلاماتنا إلى منظمة للتجسس واسعة النطاق، قوية، كثيرة الفروع في بلاد أعدائنا.

واعلم، واحرص على هذا السر، إن جواسيسنا المهرة في فرنسا يعرفون ما يجري في تلك البلاد أكثر مما يعرف الوزراء الفرنسيون أنفسهم.

أمّا في روسيا فإننا نمسك بالجيش والبحرية ووزارة الدفاع حتى البلاط، بأيدينا. بقي علينا نقطة حساسة وهي أن نتوصل إلى دس رجالنا في حاشية بعض كبار القادة العسكريين الذين سيديرون دفة القتال. وقد تعهد جماعة من أنبل عائلات ألمانيا، وبعضهم من أفراد عائلتي، وزوجاتهم بأداء هذه المهمة الشاقة. وينبغي لنا في روسيا أن نتغلغل في قلب هيئة أركان حرب الغراندوق نيقولا، ونعرف نيات هذا القائد الذي يقال أنه جندي ماهر وعدو لألمانيا. إنه وشقيقه الغراندوق فلاديمير عدوان لنا لدودان. فإذا تقربت من فلاديمير استطعت أن تعرف مشروعات نيقولا. ولعلك توافقني على أن بلوغ هذا المقصد أهم من السير بفيلق من الخيالة إلى ساحة القتال.

ـ لا شك في ذلك يا مولاي. ولست أجهله. وهذا ما دفعني إلى رفع تقرير عن إهانة الغراندوق لحلفائنا إلى جلالتكم.

ـ إنك الذكاء بعينه يا هـ. . . ولسوف نستدعيك قريباً إلى هيئة القيادة العليا لتكون بقربنا.

واستخف القائد العجوز الطرب وامتلأت نفسه بهجة وسعادة. وتلهّى القيصر بمنظر الجنرال وأثر الوعود الخلب فيه، كما يلهو القط بفأر. ثم رأى أن الوقت قد حان ليسدد ضربته الكبرى ويملي إرادته ورغباته، قال:

ـ أجل يا هـ. . . إن مكانك بالقرب منا في القيادة العليا. ولكن عليك قبل هذا أن تؤدي مهمة شاقة طويلة تقتضي حنكة وتضحية وإقداماً، وأن تكون أميناً في أدائها لتعطي أكلها.

ـ مرْ يا مولاي وعليّ الطاعة.

ـ عليك أن تلازم الدوق فلاديمير طوال بضعة شهور، وأن تسعى بشتّى الطرق وبأي عذر شئت أن تنتحل، إلى معرفة أسراره. ولست أشك في أنه سيشتبه بك وأنت الجندي الكبير الذكي. ولذا أرى من الحكمة أن تتمرس زوجتك بأعباء هذه المهمة، وأن تكتفي أنت بالإغضاء عنه وعنها. أفهمت؟.

ـ نعم يا مولاي.

كان ك. فون هـ... قد فهم تمام الفهم مقصد القيصر ولم يفكر بالاعتراض. ولكنه خاف من زوجته، وتذكر شعورها في حادث اوستند بين الغراندوق والموسيقي، وخشي ألاّ تطيعه فيما سيطلب إليها عمله، فقال بتردد ووجل:

ـ تذكرون يا صاحب الجلالة، أنني ضمّنت تقريري إليكم عن حركات الغراندوق فلاديمير وما فعله في اوستند، شعور زوجتي بالاستياء والاشمئزاز من سموّه. وأخشى بعد هذا أن...

فقاطعه القيصر بأن انتصب واقفاً وصاح:

ـ إنها ألمانية، وكفى! لقد قلت يا جنرال وسأطاع.

كان الكونت المسكين قد وقف حيراناً مرتبكاً. فلمّا صرخ به سيده انحنى باحترام واستغفار... وبعد عشر دقائق عاد به أحد مراكب السفينة الملكية إلى ألتونا بدون أن تتاح له فرصة تحية الإمبراطورة تحية الوداع.

رجع الجنرال مثقلاً بالهموم وفريسة للهواجس، محتاراً بين واجب الطاعة لسيده والخوف من تمرّد زوجته.



عرج الجنرال على برلين قبل أن يعود إلى اوستند، وتحدث إلى أقرباء زوجته حديثاً سرياً لم يكن لإيميليا أن تطلع عليه. ثم ركب القطار السريع من كولونيا فوصل إلى اوستند في صباح اليوم التالي. ودخل منزله ودهش إذ لم ير زوجته فيه. وأخبرته الخادم أنها خرجت في نزهة منذ الليلة المنصرمة ولم تعد بعد.

أبدل فون هـ. . . ثيابه وهو قلق من خروج زوجته. فما اعتاد منها مثل هذه النزهات الفجائية. ثم خرج إلى شرفة غرفته ووقف ينتظر بعصبية ظاهرة. وأبصر بعد حين بالموسيقي الإيطالي يدخل إلى الفندق ليبدأ عمله كالمعتاد. وإذ بسيارة تصل بعد ثوان معدودة وتقف أمام الفندق وتنزل منها زوجته.

ذهب الجنرال إلى قاعة الاستقبال ينتظر وصول إيميليا. فدخلت بعد حين وهي تدمدم لحناً شائعاً ووجنتاها بلون الورد وعيناها براقتان كمن يعود من نزهة متعبة.

ودهشت إذ رأت زوجها في القاعة، وغاضت البهجة التي كانت تطفح من وجهها. إلاّ أنها سارعت إلى امتلاك روعها وقالت:

ـ أبهذه السرعة عدت؟ لا بدّ أنك تعب بعد هذه الرحلة المضنية.

ـ . . . تعب جداً يا إيميليا.

ـ لو كنت أنبأتني بقرب عودتك لما خرجت للنزهة في الليلة المنصرمة.

ـ هل لي أن أسألك إلى أين ذهبت؟

ـ إلى ويستند حيث زرت الأميرة د.ي.ب. . .

ـ ألا ترين أن هذه الساعة غير ملائمة لزيارة الناس؟

ـ كان عندهم عيد في «ويستند أوتيل».

ـ حسناً. أرجو أن تكوني قد طربت وسررت.

ـ جداً يا عزيزي. وأنت؟

ـ كنت في ضيافة الإمبراطور، وقد تنازل فدعاني إلى سفينته. وشاء جلالته أن أبلغك تحيته.

ـ إنني فخورة... ستروي لي ما حدث على الغداء. والآن سأذهب لأبدل ثيابي.

وإذ كانت تهم بالدخول إلى غرفتها، حملت إليها الخادم برقية قرأت فيها:

«تهانينا يا إيميليا الحبيبة، بالشرف الذي حظيت به من لدن صاحب الجلالة. والداك».

دهشت إيميليا لهذه البرقية، وحملتها إلى زوجها وسألته إيضاحاً عنها. ولم يكن هو يجهل مضمونها لأنه هو الذي اتفق وأقرباء زوجته على نصّها لما زارهم في برلين، إلاّ أنه تظاهر بالدهشة وقال:

ـ لا بد أن يكون الإمبراطور قد أطلع ذويك على الخطة التي ينوي تنفيذها ولك أنت علاقة بها.

ـ وما هي هذه الخطة؟

ـ دعي هذا الحديث إلى ما بعد الغداء يا إيميليا.

ـ أفضل أن تطلعني حالاً على ما ينوي جلالته، إذا كانت

معدتك تستطيع الاصطبار.

ـ فليكن هذا ما دمت تلحّين. . .

وجلست إيميليا تنتظر الحديث بلهفة. أما الزوج فقد احتار كيف يبدأ خطابه. وتردد في حديثه محاولاً أن يجد أخف العبارات وقعاً في نفس إيميليا، مجتنباً ما قد يثير تمردها. قال:

ـ اعلمي يا إيميليا، أن الإمبراطورية تجتاز اليوم مرحلة خطرة كل الخطر، وأن أرواحنا وأموالنا وكل ما تملك أيدينا رهن بالخطوات التي سنخطوها. إننا نعد العدة لهذه الحرب التي يدفعنا إليها حسد الشعوب المجاورة وتربّصها بنا. وعلينا ألاّ نحجم عن تحمل أية تضحية في سبيل الوصول إلى قلب العدو ومعرفة أسراره واستعداداته. إن الوقت وقت عمل وإقدام. ومن واجبنا جميعاً أن نساهم جهد طاقتنا في ما يعده جلالته من حملة لنبش أسرار أعدائنا وفضح نياتهم.

هذا ما قاله لي الإمبراطور يا إيميليا. وقد أخبرني بأن كبار الساسة ونساءهم وزوجات كبار الضباط يقومون اليوم بمهمة التجسس على الخصوم، على ما فيها من مشقات وصعوبات. ويريد مولانا أن يكون لنا نصيب في أداء هذا الواجب، وأن يفيد الوطن من خدماتنا وذكائنا. ولذا فقد كلفنا مهمة لا مثيل لها في الأهمية والخطر.

يريد الإمبراطور منا أن نتقرب من الغراندوق فلاديمير، ونصل إلى قرارة نفسه، ونتعرف إلى ما يضمر، ونستدرجه إلى إفشاء ما تنويه القيادة الروسية وما رسمته من خطط وما يدبره شقيقه الغراندوق نيقولا للمستقبل.

أنصتت الكونتيسة بانتباه عظيم لكل كلمة قالها زوجها. فلمّا

وصل إلى هذا الحد من حديثه قالت:

ـ وكيف تطمع في الوصول إلى قرارة نفس فلاديمير ومعرفة أسراره؟

ـ إن ذلك صعب. ولست أنكر أن دونه عقبات ومتاعب. ولكن مهمتنا تسهل جداً بفضل معونتك. والإمبراطور واثق بأن فتنتك لا بد أن توقع الغراندوق في الشرك سريعاً.

انتصبت الكونتيسة واقفة كأن أفعى لدغتها وصاحت:

ـ ماذا تقول؟ أيريد الإمبراطور أن أصبح عشيقة هذا الفظّ ويكلفك أنت هذه المهمة؟.

واستاء الجنرال من ثورة زوجته وأحرجه تمردها فقال:

ـ ليس لي كجندي إلاّ الطاعة. وما اعتدت أن أناقش مولاي أوامره. ولا أظن والدك، مرافق جلالته، إلاّ مثلي في تنفيذ الأوامر. ولعلك تتأكدين ممّا أقول إذا أعدت قراءة برقية ذويك.

صمتت الكونتيسة وكبتت غضبها وسارت إلى غرفتها وأغلقت الباب وانخرطت في البكاء.

وعلامَ بكاؤها وحزنها؟ ألأنها خجلت من أن تعامل كالمومسات وأن يضعها الإمبراطور في مصاف الساقطات، وثارت لأن زوجها قبل بأن يكون الوسيط في هذه الصفقة الدنيئة، وغضبت لأن تكره على تمثيل دور العشيقة مع الغراندوق؟ أم لأنها ستضطر إلى التخلي عن حبيبها الموسيقي الجميل؟

هذا علمه في الغيب...

اعتكفت الكونتيسة فون هـ. . . في غرفتها وأخبرت الخادمة بأنها لن تتغدى. فلمّا بلغ الجنرال الخبر قرر الخروج في نزهة وتناول طعام الغداء في أحد المطاعم.

وإذا كان خارجاً من الفندق رأى القطار الذاهب إلى ويستند يقف. فصعد إليه بدون مقصد معين. وكان بعد نصف ساعة في المربع الذي قضت فيه زوجته الليلة الماضية.

وكان يعرف من موظفي المحل رجلين مأجورين يشتغلان لحساب دائرة الاستعلامات الألمانية أحدهما رئيس فندق والثاني خادم. فلمّا جلس أسرع الرجلان إليه يسعيان في مرضاته. وحين فرغ من الأكل قدم له أحدهما قائمة الحساب وأرفقها بكلمة أخبره فيها بأن زوجته قضت الليلة الفائتة في غرفة متصلة بغرفة ثانية كان فيها شاب إيطالي موسيقي. . .

كانت دهشة الجنرال عظيمة وغضبه أعظم. ولكنه كتم غيظه وعاد إلى أوستند في الحال. لم يشأ أن ينتقم، بل رأى أن يرجىء الانتقام إلى ما بعد تنفيذ أوامر القيصر. واكتفى بأن يفهم زوجته ببرودة ووحشية وقسوة مبطنة بالأدب والدعابة أنه فضح علاقتها بالموسيقي الإيطالي، وأن في يده سلاحاً يسحقها به إن هي رفضت إطاعة أوامر الإمبراطور.

وأدركت إيميليا أن لا مناص لها مما يريده القيصر وزوجها وعائلتها، وأنها ستتعرض لغضب الأول وانتقام الثاني وعداء البلاط وذويها إذا أصرّت على الرفض، فانصاعت بعد مقاومة بسيطة لم تدم أكثر من أيام معدودة.

وبعد قليل رآها الناس في الفنادق والأندية وقاعات الرقص والموسيقى والمرابع، وفي كل مكان يرتاده الغراندوق، تساير الأمير الروسي وتبتسم له وتغريه، محاولة اجتذابه والتسلط عليه.

❁ ❁ ❁

لازم الزوجان في ذلك العام الغراندوق فلاديمير من أوستند إلى بادن ـ بادن، فباريس فموناكو، في مجالسه ونزهاته ورحلاته. ولازمهما ذلك الموسيقي الإيطالي «هنريكو فالكون» الذي كان مشهوراً باسم هنريكو بيشلي.

كان الشاب يرافق حبيبته وحاميته فلا يرى زوجها حرجاً في ذلك، ويغضي موقناً من أن وجوده ضروري لتسلية إيميليا وقد فرض عليها عشرة الأمير الروسي فرضاً.

أحب فلاديمير الروسي الخمر فوق كل شيء فما فضل عليها متعة. إلاّ أنه لم يكره النساء. وامتاز في علاقاته الغرامية بالعنف والفظاظة حتى أن المحترفات من بنات الهوى تمردن على أساليبه الهمجية في الحب. أما الكونتيسة فقد احتملته وأطاعته طاعة عمياء حتى أنه خصّها دون بنات جنسها بعطف عظيم. وما انقضت بضعة أسابيع حتى شعر بأنه لا يستطيع عنها بعاداً.

واستدعي الجنرال إلى برلين بعد حين، فسافر وهو مرتاح البال، مطمئن إلى أن علاقة زوجته بالغراندوق بلغت من المكانة ما يبشر بأطيب الثمرات. وبقيت إيميليا الحسناء مع عشيقها تتعزّى في أحضان الطلياني الدافئة الهنيئة عن فظاظة الروسي، وتجمع ما استطاعت من الأخبار والأسرار وترسلها إلى ألمانيا، وتبتز من الغراندوق هدايا

نفيسة تضيفها إلى الأموال التي كانت تتلقاها من برلين وتعطي القسم الأعظم منها إلى حبيبها الموسيقي.

وفي أيار (مايو) 1914 أعلن الغراندوق عزمه على العودة إلى روسيا حيث كانت الحكومة تستعد لاستقبال رئيس الجمهورية الفرنسية. ودعا عشيقته إلى اللحاق به في سان بطرسبرج، فقبلت وقررت السفر حالاً إلى ألمانيا كي تقضي فيها بعض الزمن، ثم تسافر إلى روسيا. وزعمت أن الغرض من هذه الرحلة إبعاد الشبهات والريب، فلا تصل والغراندوق إلى بطرسبرج في آن واحد. ولكنها كانت في الحقيقة تريد أن تبقى بضعة أيام مع الطلياني وحدهما، وتسعى في الحصول على جواز سفر له كي يرافقها إلى روسيا.

ولكن كان في حاشية الغراندوق ضابط نبيه لم يرتح لتبدل عواطف سيده نحو ألمانيا. وهو ملازم تخرج من المدرسة العسكرية الحديثة وقضى مدة التمرين في فرنسا ودرس ورفاقه المشاكل السياسية بجانب القضايا العسكرية، فلم يحب الألمان، وشعر نحوهم بريبة، وخشي مداورات الجاسوسية الألمانية وألاعيبها.

وارتاب في نيات الكونتيسة وراودته الشكوك. فلمّا علم بسفرها إلى برلين طلب إجازة فكان له ما أراد، وسافر إلى ألمانيا وقام بتحقيق واسع. فوفق إلى مبتغاه وعاد بعد أسبوعين إلى بطرسبرج وسارع إلى سيده يطلعه على ما اكتشف، قال:

ـ أرى من واجبي أن أخبر سموكم أن الكونتيسة فون هـ... مكلفة بأمر من إمبراطور ألمانيا التجسس عليكم وسرقة ما استطاعت سرقته منكم من الأخبار السياسية والعسكرية التي تهم الألمان. ولا بد من أن أخبركم بأن للكونتيسة عشيقاً تحبه هو شاب موسيقي يدعى

هنريكو بيشلي، وأن هذا عرض على بعض دوائر الاستعلامات أن ينقل إليها الأخبار التي يستخلصها منها.

وتملك الأمير غضب جنوني، فحطم كل ما وقع تحت يده من آنية، وشتم الضابط، وانهال بسوطه على بعض خدمه. ولكنه لمّا هدأ روعه وزال أثر المفاجأة، أخذ يفكر تفكيراً جدياً فيما نقله إليه الملازم م...

كان الغراندوق جندياً، وما استطاع أن يفضل شيئاً على الواجب، فاصطحب الضابط وذهب إلى شقيقه الغراندوق نيقولا فعرض عليه الأمر. وبعد درس طويل قرر الثلاثة أن يتركوا الكونتيسة وعشيقها الموسيقي يصلان بسلام إلى بطرسبرج، وألاّ يدعوا لهما مجالاً للشك في أن مؤامرتهما قد فضحت ليتأكدوا من اشتغالهما بالتجسس، فيستخدمونهما بعدئذ لأغراضهم السياسية.

ولكن هذه الخطة لم تنجح. فقد كان بين من حضروا اجتماع الأميرين والضابط، وزير الحرب وضابط من أركان حربه يدعى سرج ميازوادوف. وسرج هذا من رجال حرس الحدود القدماء وعشيق زوجة وزير الحرب الروسي. وقد كان في رأس الجواسيس المؤتمرين أمر بديرميشتر رئيس فرع التجسس الألماني في روسيا ومعاون الكولونيل نيكولاي.

كان ميازوادوف وعشيقته يخونان بلادهما من أجل إمبراطور ألمانيا. فلمّا عرف باكتشاف الغراندوق نيقولا وشقيقه سرّ الكونتيسة هـ... أسرع في إخطار برلين بأن الكونتيسة فضحت، وأن الموسيقي الطلياني خطر على أسرار ألمانيا.

وعلى هذا تلقت إيميليا فون هـ... أمراً بالسفر إلى إنكلترا

حيث كلفت معاونة الأميرة هوهينلو الجاسوسة الألمانية الشهيرة في أداء المهمات الجاسوسية التي عهدت بها إليها الدوائر السرية الألمانية في فرنسا وبلجيكا. وفي العشرين من تموز (يوليو) 1914 سيق الموسيقي الإيطالي إلى مكتب رئيس شرطة برلين مخفوراً. وخرج من المكتب بعد ساعتين وقد أبدل اسمه برقم هـ.د. 158، وعين جاسوساً لحساب الدائرة الألمانية السرية في قسم دوسلدورف.



لئن كنت رويت هذه المغامرة بتفصيلها ودقائقها، فلحرصي على أن أصور للقارىء الجو الذي كان يسود حاشية غليوم الثاني الأرستقراطية. وليس عجيباً بعدما رأيت أن تبالغ الطبقة الألمانية الراقية في تقدير «الواجب الوطني» حتى أنها رضيت بأن تضحي على مذبحه بالشرف والسعادة الزوجية، وقبل جنرال بأن تخونه زوجته مع موسيقي حقير وترتمي في أحضان رجل تستطيع الحصول منه على أخبار وأسرار. أجل ليس عجيباً بعد هذا أن يكون الألمان قد قدسوا مهنة التجسس.

وبعد، فقد كانت هذه المهنة رابحة بل كثيرة الربح لأن خزينة الإمبراطورية فتحت على مصراعيها لأفراد هذا الجيش من الجواسيس الذين جمعتهم الحكومة فراحوا يغرفون منها بجماح أكفهم.

وأغرى هذا السخاء كثيرين بالانخراط في هذا الجيش.

حرف الباء

1 ـ باتريشيا روكسبورغ (أو مدام شودن).
2 ـ البارونة دي كوالا.
3 ـ باندا ماكليود.

باتريشيا روكسبورغ (مدام شودن)(*)
(Patrichia Roksburg)
(-)

هي من أبرز عميلات الموساد لاغتيال أبو حسن سلامة. إذ أن المخابرات الإسرائيلية كعادتها لم تترك وسيلة لتعقب المناضلين الفلسطينيين إلا واتبعتها وقبل أن تتمكن هذه المخابرات من اغتيال علي حسن سلامة كلفت العديد من عملائها في مختلف أنحاء العالم للبحث عنه لاغتياله في أي مكان ومهما كلف ذلك.. والمصورة الصحفية الكندية الأصل **باتريشيا روكسبورغ** كانت من أبرز العميلات للمخابرات الإسرائيلية في النروج والتي كلفت بملاحقة ومراقبة الفدائيين الفلسطينيين في أوروبا ومنهم في رأس القائمة (علي حسن سلامة) وكان أن قامت مع بعض العملاء للمخابرات الإسرائيلية أيضاً باغتيال الطالب المراكشي «أحمد بوشيكي» خطأ وكانت تظنه أبو حسن. فقبضت عليها السلطات النروجية مع زملائها في ارتكاب الجريمة وقدموا إلى محكمة الجنايات للمحاكمة بتهمة الاشتراك في جريمة من الدرجة الثانية عن سابق تصور وتصميم. وهاجمها النائب العام النروجي هجوماً عنيفاً وطلب لها أقصى العقوبات، فوكلت

(*) **المرجع:** سعيد الجزائري ... ص 430 ـ 432

المحامي النروجي «إينوس شودن» الذي يعتبر من أبرز محامي النروج في القضايا الجنائية فتولى الدفاع عنها. كانت باتريشيا تلفت الأنظار إليها أثناء جلسات المحكمة وذلك بارتدائها القمصان الشافة والبنطلونات الضيقة وتظهر مفاتنها كما أنها كانت تتهرب بلباقة من أسئلة النائب العام وأعضاء المحكمة بوضعها شريط الميكروفون بين أسنانها وسكوتها. وقد تمكن محاميها من التخفيف عنها كثيراً حيث حكمت المحكمة عليها بالسجن لمدة خمس سنوات ونصف ونقلت إلى السجن المركزي للنساء في النروج وكانت تمضي وقتها في السجن في التدريب على العزف على الغيتار. ولكن كان يسمح لها بالخروج من السجن من مساء الأحد إلى مساء الاثنين لقضاء الويك أند مع محاميها الذي أسر قلبها فأصبحت عشيقته. والمحامي شودن طويل القامة جميل المحيا بطل حرب سابق عضو في مجالس إدارة عدد من الشركات النروجية الكبرى. تابع هذا المحامي مساعدتها بعد الحكم عليها فاستخدم كل نفوذه لخدمتها حتى تمكن من إخلاء سبيلها من السجن بعد 22 شهراً قضتهم من أصل الخمس سنوات ونصف وذلك «لأسباب طبية وإنسانية» وعلى وجه الدقة «لضعف قلبها»، فسافرت إلى إسرائيل حال الإفراج عنها وودعها في المطار صاحب الفضل عليها وعشيقها المحامي شودن على أمل اللحاق بها لدى تفرغه.

في تل أبيب استقبلها مسؤول من المخابرات الإسرائيلية مرحباً ومهنئاً بالسلامة ومعترفاً لها بعملها وتضحيتها لهم، وأنزلها في فندق خمس نجوم، وطلب منها الاستجمام والبقاء حرة طليقة بدون ارتباط معهم لمدة أسبوع لإراحة أعصابها. وبعد الأسبوع زارها نفس الضابط وخيّرها بين العمل في إسرائيل أو العودة للعمل في أوروبا انطلاقاً من جنوب أفريقيا فاختارت العمل في أوروبا. وأبرقت إلى عشيقها

المحامي شودن بأن يوافيها إلى جنوب أفريقيا عوضاً عن حضوره إلى إسرائيل. في جنوب أفريقيا تزوجت باتريشيا من محاميها وكان زواجها الأول، وكان زواج الزوج للمرة الرابعة. وأصبحت عميلة المخابرات الإسرائيلية تدعى **«مدام شودن»** وعاد العروسان إلى النروج وبعد السكن معاً في عش الزوجية توجه الزوج المحامي إلى السلطات النروجية بطلب منح زوجته إقامة معه في النروج ولكن هذه السلطات رفضت الموافقة على الطلب، فالقانون النروجي يحرم الإقامة على الأجانب الذين سبق أن صدرت بحقهم في النروج أحكام جنائية وأعطي الزوج مهلة عشرة أيام لمغادرة زوجته للأراضي النروجية. مرة أخرى عادت باتريشيا تثير ضجة ولغطاً حول شخصيتها، وقامت الصحف المعروفة بتعاطفها مع إسرائيل بالمطالبة لها بالإقامة ومن هذه الصحف مجلة «نا» الأسبوعية التي تساءلت باسم النروجيين: «ألا نؤمن نحن النروجيين.. بالحب. إذن باسم الحب نطلب من السلطات السماح لهذه الزوجة «المحبة» بالبقاء. ولكن التنظيمات اليسارية نشطت في المقابل وقامت بحملة صحفية مماثلة مطالبة السلطات النروجية بترك العاطفة الضارة جانباً وطرد هذه العميلة الصهيونية.

وصلت قضية باتريشيا عن طريق الصحف ما بين مؤيد ومطالب ومعارض رافض منحها الإقامة إلى «مجلس الوزراء» الذي كان له القول الفصل في الموضوع، فأصدر وزير العدل النروجي المستر «انجرلويز فاليه القرار الآتي: إن السيدة باتريشيا شودن ـ التي تحمل اسم سيلفيا رافايل ـ أيضاً تعتبر غير مرغوب في بقائها على الأراضي النروجية وتكلف الشرطة بإخراجها وإعلامنا خلال أسبوع فقط غير قابل للتمديد بأي حال ولأي سبب. خرجت باتريشيا من النروج بعد أن ختمت الشرطة في المطار على جواز سفرها جملة «أبعدت عن

النروج بأمر وزارة العدل». قال لها زوجها «المتيم» كما وصفته الصحف أنه سيلحق بها أينما ذهبت. ولكن المخابرات الإسرائيلية لم تتركها فأعادتها إلى جنوب أفريقيا حيث لحق بها زوجها إلى هناك. ومن المؤكد أن للمخابرات الإسرائيلية أعمالاً هامة في جنوب أفريقيا حتى طلبت منها الانتقال إليها. ولم يعرف بعد ذلك هل تكون جنوب أفريقيا نهاية المطاف لعملية المخابرات الإسرائيلية أم أنها ستكون «محطة مؤقتة». إنها المخابرات.

البارونة دي كوالا(*)
(De Kuala)
(-   )

هي إحدى حسناوات «ولهلم شتيير» رئيس المخابرات الألمانية في عهد بسمارك، وإحدى جواسيسه الناجحات، أرسلها شتيير لتكون وسيلة للتسلية للجنرال الفرنسي دي سيسي الذي أسر في الحرب الألمانية ـ الفرنسية، ونظراً لمكانته فقد عومل معاملة لائقة، ومنح مكاناً هادئاً لسكنه مع البارونة دي كوالا. ولما انتهت الحرب أطلق سراح الجنرال دي سيسي، وعاد إلى باريس حيث عين بعد قليل وزيراً للحربية. وفي عام 1875، بدأت فرنسا تفكر في الانتقام بعد إعادة تنظيم القوات الفرنسية استعداداً لحملة ضد ألمانيا. وعرف ولهلم شتيير ذلك، فاستدعى البارونة دي كوالا للقائه وأوضح لها رغبته في أن تجدد علاقتها مع الجنرال دي سيسي، وأفهمها أنها ستنال كسباً مادياً مقابل هذه الخدمة التي تؤديها له. وكانت البارونة من المهارة لتدرك أن عرض شتيير الذي قدم لها في صورة رجاء إنما هو أمر فرضخت له. وفي أسابيع قليلة قدمت البارونة إلى باريس محملة بالمال، واستأجرت طابقاً جميلاً ثم اتصلت بالوزير دي سيسي الذي

(*) **المرجع**: صلاح نصر، الحرب الخفية، ص 175.

سرعان ما وصل إلى منزلها، واعتاد أن يسرع كل مساء بعد انتهاء عمله ليقضي بضع ساعات عندها. وكان الرجل يصل إليها مجهداً من عمله يشغله التفكير في الخطط والمشكلات التي تتطلب الحلول الصحيحة، فكانت البارونة تستقبله بترحاب وتعتني به ويقوم الرجل بمناقشة مشاكله ومشاكل فرنسا معها. واكتشفت هيئة مكافحة التجسس في المكتب الثاني مقابلات العشيقين فأبعدت البارونة دي كوالا إلى بروسيا بسرعة، لكن بعد أن أرسلت لشتيير كل ما يحتاجه من معلومات.

باندا ماكليود(*)
(Panda Maklioud)
(- 1951)

هي ابنة الجاسوسة الشهيرة «ماتاهاري» التي لعبت دوراً هاماً في عالم المخابرات والجاسوسية. وقد أعدمت سنة 1951 في شمال كوريا برصاص المستشار الشيوعي.

ونظراً لأهمية الدور الذي قامت به باندا ابنة ماتا هاري نفصّله كالتالي:

فقد جلست المرأة وهي نصف نائمة على فراش سريرها، وتساءلت: ترى هل المطر يضرب على النافذة، أم هو صوت البرد الذي يعصف بها بعد أن تم استبدال زجاجها المكسور بقطع من الورق المقوّى؟.. كلا، إنه ليس كذلك، وها قد عادت الضجة التي كان من الصعب تحديد مكان مصدرها. وكانت تلك الأصوات وكأنها لشخص يحاول رفع رتاج الباب وفتحه بواسطة حزمة من المفاتيح. وأصاخت بسمعها وهي ترتجف...

(*) **المرجع**: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». ترجمة بسام العسلي. دار اليقظة العربية. بيروت 1965. ص443 ـ 493. وسعيد الجزائري «حرب المخابرات في العالم». دار الجيل. بيروت 1995. ص65 ـ 67.

ها هو الصوت قد ابتدأ من جديد أيضاً، ولم يبق أمامها أي شك في وجود شخص يضرب على الباب بواسطة أداة معدنية، ثم استمعت إلى جلبة وقع أقدام في خارج المنزل امتزج برنين ضحكة خشنة أوقفتها فوراً نوبة من السعال، وشعرت المرأة بأنها تسمع ضربات قلبها وتمنّت لو كان هناك أي نور لتعمل على إضاءته. . .

وفجأة طرق الباب بضربة قوية، ثم تبع ذلك ضجيج تكسر الأخشاب ثم زئير حاد لرتاج الباب، وأرادت المرأة أن تصرخ ولكن حلقها كان قد تشنج، واختنق صوتها فلم تتمكن من النطق بحرف واحد. وأخيراً أصابها الإرهاق فانهارت على سريرها الذي كان فراشه كيساً من الخوص تحشوه الأوراق.

ولم يسرع الدخلاء في الوصول إلى غرفتها مباشرة، وخيل إلى تلك المرأة بأنها انتظرت دهراً طويلاً، قبل أن ينفتح باب الغرفة بدفعة قوية، وابتدأت حزمة الأشعة المنبعثة من مصباح كهربائي يدوي تعمل في تفتيش الغرفة، فوقعت في بادىء الأمر على الجدران التي كانت تكسوها بقايا أثمال سجادة عتيقة، وتوقفت حزمة الضوء لجزء من الثانية فوق مفكرة الحائط التي كان يزين سطحها صورة السيد المسيح، أما الرقم الأسود الذي يدل على التاريخ لذلك اليوم فكان 24 ـ أي أن اليوم التالي سيكون يوم عيد الميلاد المجيد ـ وسقطت أشعة حزمة الضوء أخيراً عليها وكأنها سوط أصاب المرأة البائسة، فأصبحت لا تتمكن من رؤية شيء مما كان يجري في الغرفة، ووصلتها نبرات صوت رجل خيل إليها تقريباً بأنها ذات لهجة حلوة، عندما سألها: أنت. . أيتها السيدة. . إنك خائفة جداً أليس كذلك؟. .

وأجابته بلهجة متقطعة: نعم. . إنني خائفة جداً، فماذا تريدون

مني؟.. وضحك الرجل الآخر ضحكة حيوانية. إنها ذات الضحكة التي كانت قد سمعتها منذ لحظات قصيرة كما أن ضحكته في هذه المرة أيضاً كانت قصيرة، إذ أدركته نوبة السعال ثانية. واخترق الغرفة دخيل ثالث، وبيده مصباح يدوي عتيق، وبدأ في تفحص الغرفة. وعندما وقعت عيناه على مفكرة الحائط عمل على اقتلاعها، ثم صرخ بلهجة شريرة وهو يضع المصباح أمام المرأة التي كانت ترتجف من الخوف والبرد، وقال لها:

ـ أيها الخنازير الفاشيون.. هيا انهضي.

وبما أنها لم تعمل على تنفيذ الأمر، عمل على إجبارها على النهوض بقسوة وعنف، وعندئذ صرخ ذلك الرجل الذي كان يرتدي معطفاً ذا قبعة لكساء الرأس في وجه ذلك الذي ضحك تلك الضحكة المرعبة، وهو يعترض صديقه بقوله:

ـ هذا يكفي. إنني أنا أعطي الأوامر هنا.

وسألها ذلك الرجل الذي كان يحمل المصباح قائلاً:

ـ هل أنت مستعدة؟.. ألا يوجد عندك مزيد من الملابس لارتدائها؟...

كلا.. لم يكن عندها ملابس أخرى. فلقد ارتدت منذ عدة أشهر ذات الثياب التي في حوزتها. ولما كان الطقس شديد البرودة، فلقد كانت مضطرة للنوم وهي ترتدي كامل ثيابها. ولذا عملت على سحب الغطاء من فوق سريرها لتضعه فوق أكتافها.

وأحاط بها الرجال...

كانت العاصفة قد هدأت في الخارج، ولكن الثلج كان يهطل

بقطع كبيرة الحجم، وكان منزل الإرسالية البريطانية لمدينة شمال كوريا في مينغ سونغ والذي أصبح بعد أن تجاوزوه إلى خلف ظهورهم يشبه لوحة رسمت على كتاب خصص لتدريس الأطفال. إلا أن النور الذي كان يرسل أشعته الذهبية من خلال النوافذ كان يجعل اللوحة أكثر حياة من منظر ذلك المنزل المهجور الذي لن تشتعل النار فتبعث الدخان من مداخنه في غداة يوم عيد الميلاد، وكان قد انقضى على اشتعال الحرب في كوريا واحتدام أوارها عدة أشهر ولكن تلك التفصيلات الدقيقة لم تكن تعني شيئاً هاماً بالنسبة لجنود الجيش الشعبي الذين كانوا يحيطون بتلك المرأة، ولكن لماذا تشعر بالقلق لعدم إضاءة الأنوار في منزل الإرسالية بيت لحم التي كانت تعمل على جمع شمل اليتامى، طالما أن رئيس الإرسالية والمسؤول عنها واسمه هاربر قد تم تنفيذ حكم الإعدام فيه رمياً بالرصاص منذ مدة وجيزة؟..

وها هم الآن يسرعون في سيرهم. وكان البرد يطاردهم وكأنه الذباب. وبعد ذلك بخمس عشرة دقيقة وصلوا إلى نهاية رحلتهم وانفجرت الأصوات في وجههم ورددت المزرعة صداها. فهل تستحق نزيلة ذلك الكوخ كل هذا الصراخ؟...

وفتح أحدهم الباب ودفعها الرجل الغليظ الذي كان قد انتزعها من فراشها إلى الأمام، فوقعت وتدحرجت فوق الأرض الخشبية للغرفة، وقال الجندي الذي كان يحمل المصباح بيده:

ـ وماذا تريد أن نعمل بها، أيها الرفيق؟...

ـ إن المستشار لن يصل قبل الساعة السادسة صباحاً، ولم يبق إلا أربع ساعات حتى موعد وصوله، فضعوها في المستودع الخشبي وأوصدوا الأبواب دونها.

عندما فتحت المرأة عينيها تساءلت وقالت: ترى كم من الوقت

انقضى عليها وهي نائمة؟.. ذلك أنها لم تعد تشعر إطلاقاً بأطرافها التي جمدها البرد، فحاولت أن تنهض ولكنها كانت بحاجة لقوة تزيد على قوتها كي تتمكن من الوقوف.

وصفر ريح جليدي وهو يخترق حواجز الغرفة الخشبية، وكان الفجر قد بدأ ينشر أشعته وقد اعتادت عيناها بالتدريج على الرؤية في الظلمة، فلاحظت عندئذ أن الثلج الذي كان يتسرب من بين الأخشاب التي تكوِّن سقف الغرفة قد غطى قدميها، ورددت: إنني أتمنى فقط لو عملوا على قتلي بسرعة. وكانت تعجز عن التفكير في أي شيء آخر غير الميتة العاجلة.

وفتح الباب، وسمح لها ضوء الفجر الباهت برؤية ذلك الجندي الذي انتصب واقفاً في مدخل الغرفة، ونظر إليها وهو يبتسم نظرات ودية.. إنه ذات الشخص الذي عمل منذ ساعات على إعاقة رفاقه من معاملتها معاملة وحشية، وأغلق الباب خلفه بقوة، وتقدم منها خطوة إلى الأمام، وانحنى وهو يخرج من جيبه زجاجة لشراب الفودكا قدمها من شفتي السجينة التي حاولت أن تقاوم هذا الإغراء، ولكنها شعرت برعدة سرت في جميع أوصالها عندما كان السائل المحرق يجري في حلقها. ثم همس في أذنها:

«حسناً، إن هذا الشراب يفيدك، اسمعيني جيداً، إنني سأعمل على مساعدتك إذا كان ذلك بإمكاني. ولكنني لا أعرف فعلاً في ما إذا كنت أستطيع ذلك...» ثم عمل على مساعدتها لكي تقف على قدميها ورافقها إلى المبنى الرئيسي، ولم يكن بحاجة لأكثر من فترة وجيزة من الوقت، كي يتمكن من إحضار السجينة لكي تمثل أمام رئيسه. وبادره بقوله:

ـ ها هي أيها المستشار، المرأة الرأسمالية.

وكان شعور المرأة تجاهه شعوراً غريباً، لطريقته الغريبة في تبديل أسلوب تصرفاته بسرعة مذهلة. فقبل ثوان قليلة، كان يعاملها باحترام وتقدير وهو يتكلم معها باللغة الكورية بلهجة روسية، وها هو الآن يبدو فظاً غليظاً وكأنه فلاح روسي.

عندئذ ركزت المرأة نظراتها الباردة على المستشار، بينما كان هذا الأخير يحاول رسم ابتسامة على شفتيه. ثم دعاها بحركة من يده إلى الجلوس إلى أن قال لها:

ـ ليس من عادتي تعذيب النساء، على الرغم من أن هؤلاء الذين تعملين من أجلهم لم ينقطعوا عن اتهام الشيوعيين الحمر بالوحشية والقسوة. وقد عملت على معاقبة ذلك الجندي الذي وضعك في تلك الغرفة الخشبية.

ـ وهذه الأساليب. . .

ولكن المستشار قاطعها قبل أن تتم تعقيبها على قوله بابتسامة، ثم تابع حديثه إليها بقوله:

ـ إن هذه الأساليب مخصصة للسجناء ممن لا يتعاونون معنا. . ولكن من كان يدري بأنك لن تتعاوني معنا يا باندا ماكليود؟. . .

وضغطت تلك المرأة على أسنانها، والتمعت عيناها الكامدتان بضياء جديد خلال فترة وجيزة، ثم انتزعت ابتسامة من بين شفتيها، وأجابت بهدوء:

ـ إن اسمي ليس باندا ماكليود كما ذكرت يا حضرة المستشار، ولكنه ويلهلمينا ديرن ومن مواليد أندونيسيا. كما كان زوجي يعمل في البعثات التبشيرية الهولندية في هانكيو.

وعندئذ أجابها المستشار وقد تجهم وجهه:

ـ إنني أحذرك من إعادة هذه القصة مرة أخرى.

وسألته بهدوء: ولماذا يساورك الشك في صحة قصتي، يا حضرة المستشار؟...

وعندئذ صرخ المستشار الذي كان يعمل على استجوابها وهو يوجه حديثه إلى ذلك الجندي الذي كان يحاول أن يظهر تجاهها عواطفه الإنسانية وقال له: ماكانيسكي، إعمل على إحضار الرفيق بلاتير فوراً.

ودخل إلى المكتب القذر رجل مربوع القامة، يرتدي الملابس الأوروبية بلون أزرق. وكانت عيناه صغيرتان لونهما بني ويحمل جمجمة كبيرة صلعاء، تلك هي أبرز الصفات التكوينية لذلك الشخص.

وتساءلت تلك بينها وبين نفسها قائلة:

ـ ترى أين قابلت هذا الرجل قبلاً؟..

وقال لها ذلك الرجل الذي دخل متأخراً:

ـ حسناً إنك لست مسرورة فعلاً لمشاهدتي هنا. إن العالم صغير، أليس كذلك يا باندا؟...

إنها الآن على ثقة من معرفة هذا الصوت، وفجأة... اختلطت واشتبكت كل المناظر التي كانت تقع أمام بصرها، وفقدت وعيها، وانهارت على مسند المقعد الذي كانت تجلس فوقه، وكانت آخر فكرة خطرت بمخيلتها بأن هؤلاء الرجال سوف لن يتركوها لتغادر هذا المبنى وهي على قيد الحياة..

وهتف بلاتير وهو يهزها وقد ارتسمت على وجهه العريض علامات الرضى والفرحة قائلاً:

ألا ترين؟. . .

وأعطى المستشار أوامره قائلاً: أعطوها جرعة من الفودكا. افتحوا فمها عنوة لأنني لا أريدها أن تموت، فإنني بحاجة إليها وهي على قيد الحياة.

وفتحت المرأة عينيها من جديد، وقد ارتسمت على وجهها علامات الذعر لمدة ثوان قليلة، ثم اختفت علامات الذعر بسرعة ليحل محلها علامات الاحتقار وقد حاول المستشار مساعدتها على الوقوف.

وعندئذ قالت له، وهي تحاول أن تتخلص من قبضة يده: لا تلمسني.

ولكنها كانت على درجة كبيرة من الضعف، بحيث لم تتمكن من الجلوس بشكل ملائم.

وقال لها المستشار ضاحكاً إنك ترين جيداً ولديك الفرصة المناسبة، لو حاولت تحكيم عقلك.

ولنعد إلى البداية، إنك لم تكوني تتوقعين مشاهدة صديقك بلاتير هنا، اعترفي بذلك. . .

وإن الاستمرار في الكذب لا يفيدك شيئاً، أليس كذلك يا باندا؟. . .

وبقيت المرأة صامتة. وتابع المستشار حديثه بقوله:

ـ إننا نعرف عنك الكثير من الأشياء أكثر مما تتصورين، ومن البديهي أننا لا نعرف كل شيء، ولكن ما نعرفه يكفينا لكي نعمل على تصفية الحساب معك. إن بلاتير كان قد عثر على آثارك في شانغهاي

منذ عام انقضى تقريباً، ومنذ ذلك الوقت ونحن نبحث عنك. وكانت مصادفة من أغرب المصادفات أن نجدك هنا في هذه الفجوة الضائعة.

وأدركت تلك المرأة بأن استمرارها في الكذب لا يفيدها في شيء، ولكنها على الرغم من ذلك رددت قائلة:

ـ إنني لا أعرف هذا الرجل كما أنه لا يعرفني..

ـ انظري هنا يا باندا ولا تكوني موضوعاً للضحك والسخرية. إنك عملت في الصين لمصلحة منظمات الاستخبارات السرية الأميركية، ثم إنك أتيت إلى كوريا لمزاولة أعمال الجاسوسية.

ـ إن كل ذلك كذب، يا حضرة المستشار، ولا شيء غير الكذب. وانقلب لون جمجمة بلاتير من أبيض لامع إلى أحمر، وبدأ الرجل يستنشق الهواء بجهد، وابتدأ يضرب الهواء بقبضات يده، وبدا وكأنه على وشك الانقضاض والهجوم على السجينة، ولكن المستشار أعطاه أمراً بمغادرة الغرفة. ثم وجه حديثه إليها بعد فترة من الصمت وقال لها بصوت أجش:

ـ انتبهي لما سأقوله، إن الاستمرار في الكذب ضرب من ضروب العبث، فنحن نعرف كل شيء، إنك تعملين في الجاسوسية لقاء راتب تتقاضينه من واشنطن. ولم يبق أمامك إلا أمل واحد وهو أن تعملي لمصلحتنا ومن أجلنا.

ولكن المرأة البائسة جحظت ببصرها، ولم تتفوه بأية كلمة. وتابع المستشار حديثه بقوله:

وإننا إذا ما قدمنا لك هذه الفرصة، فذلك يعود لسبب واحد، هو ما نعرفه عنك بأنك امرأة ذكية جداً، وبإمكانك على وجه التأكيد بأن تكوني ذات فائدة كبرى بالنسبة لنا.

وعندئذ أجابته بهدوء:

إنني لست جاسوسة، كما أن هذه الفرصة التي بدت لكم بأنها موضوع يثير الرغبة، فإنها لا تفيد بالنسبة لي شيئاً.

اسمعي، إنني لا أريد إضاعة الساعات في الحديث معك. هذه آخر فرصة أستطيع أن أقدمها لك، ومن الأفضل أن تتمسكي بها.

وأجابته، ورعدة باردة تسري في جسدها، وهي تقول: كلا.

وصرخ المستشار عندئذ بصوت مرعب: ماكالسكي، وانتصب ذلك الجندي مباشرة، وكأنه كان يقف خلف الباب فبادره المستشار بقوله:

ـ أحضر فصيلتك.

ـ أمرك أيها الرفيق المستشار.

ـ يجب إعدام هذه المرأة رمياً بالرصاص دون أي تأخير.

وخرج ماكالسكي وقد ضحك من جديد ضحكته السمجة، والتي قطعها من جديد نوبة السعال المفاجىء. وبعد أن أمسك بالمرأة من قبضة يدها، أجبرها على النهوض بعنف وقسوة، ولكنهم ما إن وصلوا إلى خارج الغرفة حتى همس في أذنها قائلاً:

ـ تظاهري بأنك قبلت بالعرض الذي قدمه لك... وإلا..

وأجابته:

ـ إنني لا أستطيع ذلك، كما لم تعد لي القوة للعمل.

وخرج المستشار من المبنى مسرعاً ووجهه شاحب اللون، كما كانت شفتاه ترتجفان، وصاح قائلاً:

ـ ماكالسكي أين هم الرجال؟

وصاح عندئذ ماكالسكي بصوته:

ـ اخرجوا أيها الخنازير، قلت لكم إلى خارج المهجع. وسارع الجنود الذين كانوا قد رافقوا تلك المرأة خلال الليل وهم نصف نيام بمغادرة المهجع، وكان اثنان منهم يحملان المسدسات الرشاشة كما كان يحملها ماكالسكي. أما الآخرون فكانوا يحملون المسدسات فقط.

وأعطى المستشار أوامره: اسرعي جرياً إلى الوراء يا باندا، إلى الخلف نحو الحفرة.

وكان في هذه الأثناء قد رفع مسمار الأمان عن مسدسه.

وصرخ بها بعد أن دفعها إلى الجري عشرات الخطوات قائلاً:

نعم أو لا، يا باندا؟... وأجابته:

كلا... كلا... كلا...

وضغط على الزناد، فانطلقت رصاصة حرثت الأرض المتجلدة من أمام قدمي المرأة.

ـ نعم أو لا، يا باندا؟.. وابتدأت باندا بالضحك وكأنه أصابها مسّ من الجنون.

ـ اسرعي بالجري أكثر من ذلك يا باندا.

وصرخ ماكالسكي: اتركها لي، أيها الرفيق المستشار. سأعمل على ترويضها.

ـ نعم أو لا. يا باندا؟...

ـ كلا! لن أتعاون مع مجرمين مثل...

وأعطى المستشار أوامره بفتح النار... ووقعت المرأة... ثم

تدحرجت ببطء إلى الوراء حتى وصلت إلى الهوة.

بعد ذلك بخمسة أشهر وفي 24 أيار (مايو) عام 1951 تقدم رجل يرتدي الثياب الرثّة وعلامات البؤس تبدو ظاهرة على هيأته ليقف أمام منظمة مكافحة الجاسوسية للجيش البريطاني في هونغ كونغ، وكان العريف رئيس الحرس على وشك طرده لينصحه بالذهاب والتسوّل في مكان آخر عندما لاحظ النظرات اليائسة وهي ترتسم على وجه هذا الرجل، الذي كان يقول له بلهجة مستعطفة وهو يدمدم:

ـ ليست لدي القوة للذهاب إلى منظمة الاستخبارات التي أعمل معها، ويجب أن تعمل على مساعدتي. وبعد ذلك بلحظات قليلة كان ذلك المتشرد يقف ليقص قصته على مسمع النقيب هاوس ويعرفه بنفسه بأنه جوزيف ماكالسكي وهو من قدامى ضباط روسيا البيضاء، وأنه كان يعمل منذ سنوات عديدة مع منظمات الاستخبارات الأميركية في الشرق الأقصى. وأنه وصل للتوّ بعد أن استطاع الفرار من كوريا الحمراء في ظروف صعبة، وأنه قضى أكثر أيام حياته الرهيبة في مينغ سونغ، وأن أقسى تلك الأيام التي مرت به خلال تلك الفترة الرهيبة هو ذلك اليوم الذي كان يقود فيه فصيلة الإعدام لقتل باندا ماكليود.

وعندئذ قفز النقيب من فوق مقعده وهو يقول: باندا ماكليود، هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها باسمها بعد انقضاء وقت طويل. وتابع ماكالسكي حديثه:

ـ لقد تمكنت من مساعدة عدد كبير من أصدقائنا في كوريا ومكنتهم من الفرار إلى خارج قبضة الخطر، ولكنني كنت عاجزاً عن تقديم أية مساعدة إلى باندا.

ـ باندا... وهل تعرف من هي هذه المرأة؟...

ـ إنها واحدة من أفضل النساء العاملات معنا على ما أعتقد.

ـ بالتأكيد، ولكن ليس هذا ما أعنيه، إنني أسألك هل تعرف من هي؟ يا عزيزي ماكالسكي؟.

إنك شاركت في موت وقتل ابنة ماتا هاري. وقد عجز هذا الروسي الأبيض الذي كان يصطنع تلك الضحكة في كوريا ليتمكن من إتقان تمويه انفعالاته عن الضحك في هذه المرة، واقترب كل من الرجلين من نافذة الغرفة وهو متجهم الوجه ليطل على أبنية هونغ كونغ الحديثة المتراصة بعضها إلى جانب البعض الآخر.

وتساءل الروسي بقوله: كم هو صغير هذا العالم! فلو لم يقابل بلاتير السيدة باندا مصادفة في مينغ سونغ لبقيت حتى الآن على قيد الحياة؛ ولو لم يتمكن ماكالسكي من الفرار لما تمكنت المنظمات السرية الغربية أبداً من معرفة النهاية التي قضت فيها ابنة ماتا هاري نحبها.

بعد ذلك بواحد وعشرين يوماً، وفي مكاتب المخابرات الأميركية في طوكيو، كان جاك ماك دونالد وفريد برايس يعملان على إغلاق إضبارة المباحثية عباد الشمس، الاسم الرمزي للسيدة باندا وذلك بعد أن تم استلام تقرير ماكالسكي بحيث لم يبق أمامهم إلا تسجيل التفصيلات النهائية المريعة لنهاية تلك الجاسوسة.

وبذلك انتهت صفحة رائعة من تاريخ المنظمات السرية الأميركية، وقد كان الفصل الأخير لقصة باندا ماكليود سراً يحيط به الغموض، فما هو السبب الذي دفع عباد شمس للذهاب إلى كوريا بعد أن أتمت واجباتها في الصين بنجاح رائع؟.

إن الشخص الوحيد الذي يستطيع الإجابة على هذا السؤال هو

آلن بيبرس المباحثي الأميركي الذي كانت تعمل معه في مينغ سونغ. ولكن بيبرس كان قد اختفى تماماً وانقطعت أخباره قبل يومين فقط من بداية الهجوم على كوريا، بعد أن بعث آخر رسالة بواسطة جهاز لاسلكي إلى المنظمات السرية في طوكيو وهذا كل شيء...

ثم ضاع كل أثر له. وقد قال ماك دونالد:

ـ إنني أعتقد بأن عباد الشمس قد يممت شطر كوريا لأنها كانت تشعر برائحة هجوم شمال كوريا. وهذا يبدو لي من الأمور البديهية لأنها امرأة ذكية جداً، وأنها كانت تعتقد بأنها ستكون أكثر فائدة لنا هناك من بقائها في الصين.

وعقب برايس على هذا الحديث بقوله:

ـ إن هذا يبدو لي منسجماً مع المنطق، ولكن هناك شيء يثير الحيرة في نفسي، وهو كيف تمكنت عباد الشمس من أن تعرف أن آلن بيبرس قد ذهب لتنفيذ مهمة في قرية صغيرة كقرية مينغ سونغ؟... ويجب أن يكون هناك نقطة ضعف في تنظيماتنا، لأنك تعرف بأن كلاً من عناصرنا يجهل أسماء العناصر الأخرى، وكذلك الدور الذي يقومون به، إن العالم ليس صغيراً إلى هذا الحد الذي نتصوره، فكيف أمكن التقاء هذين العنصرين في مينغ سونغ؟...

وكانت تلك أحجية لم يتمكن كلا الرجلين من إيجاد حل لها، ثم كيف أمكن وجود عنصر ثالث من عناصرهم وهو ماكالسكي في ذات القرية، ذلك الروسي الأبيض الذي تمكن من القيام بأعمال مجيدة في الصين، والذي كان قد صرح في تقريره بأن هناك رجل أعمال يونانياً عمل على خيانته والوشاية به في شانغهاي. وعلى اعتبار أن العلاقات كانت في تلك الفترة بين الشيوعيين والمعسكر الغربي حسنة إلى حد ما،

فقد تمكن ماكالسكي بفضل ذلك من النجاة من الإعدام رمياً بالرصاص فور اعتقاله، إلى أن تم نقله مع مجموعة من الأسرى وتسليمه على الحدود الكورية حيث اختبأ هناك في إحدى عربات نقل البضاعة، ثم قفز من القطار قبل أن يصل هذا الأخير إلى محطة مينغ سونغ مباشرة. واستمر الحظ في خدمته ومساعدته، فقد وصل ماكالسكي إلى البلاد في الوقت الذي كان فيه الشيوعيون يعملون على تنظيم شبكات المقاتلين في كوريا الشمالية، فما كان منه إلا أن تقدم متطوعاً، وتم قبوله بصورة طبيعية على أنه شيوعي روسي، وبذلك نجا بجلده، ولكنه أصبح في ذات الوقت أيضاً عاجزاً عن إجراء أي اتصال مع منظمته السرية الأميركية، وكيف كان بإمكانه أن يتصور بأن إجراء هذا الاتصال سهلٍ للغاية عن طريق آلن بيبرس وعباد الشمس؟ وعندما تم اعتقال باندا كان الوقت متأخراً جداً للقيام بأي عمل. . .

وأدلى ماك دونالد بملاحظته حيث قال:

«ها هو ذا النوع الذي يندر وقوعه دائماً في أعمال الجاسوسية. . لقد جمع القدر ثلاثة من الجواسيس في زاوية مجهولة مثل مينغ سونغ لكي يتمكن أحدهم وهو ماكالسكي من إعلامنا عن وفاة عباد الشمس. أما الثالث وهو بيبرس الذي كان باستطاعته أن يذكر لنا السبب الذي دفع بها للذهاب إلى كوريا فقد لزم الصمت، وتبخر كل أثر له. وأن الله وحده هو الذي يعرف في أي فخّ وقع فيه المسكين». .

ثم أضاف وهو يمد يده نحو زجاجة الويسكي قائلاً لصديقه:

ـ لنشرب كأساً في نخب عباد الشمس. إنني أفترض بأن هذه الكأس التي يرتفع نخبها بين الأصدقاء ستكون الشرف الوحيد الذي يمكن أن نحمله لهم.

وأفرغ ماك دونالد كأسه وكان الشك يضايقه، فلم يكن راغباً في قلب الصفحة عن عمل لا يزال الغموض يحيط به، وابتدأ من جديد في تفحص الوثائق المتعلقة بأعمال باندا في الصين. وشعر من جديد بالغضب يستولي عليه، وعندما اطلع على أعمال عباد الشمس في أنها كانت قد اكتشفت منذ سنوات الأعمال والمخططات التي يتم تنفيذها في الوقت الحاضر من حزيران (يونيو) في عام 1951 وأن كل ذلك كان بمعرفة أجهزة الدولة الأميركية.

كانت باندا قد تنكرت في ثياب ممرضة عندما تم إرسالها إلى الصين تحت ستار بعثة نظمتها جمعية عالمية. وقد عملت فور وصولها إلى شانغهاي على التخلص بسرعة من ثياب التمريض.

ولما لم تكن من ذلك النوع المترفع، فقد قبلت العمل كغانية في أحد المشارب العالمية. ونظراً لما كانت تتمتع به من النشاط والذكاء فقد تمكنت من أن تكتشف بسرعة أن علبة الليل تلك لم تكن إلا مقراً للقيادة العامة لمنظمات الجاسوسية السوفياتية.

كانت واشنطن مترددة في أن تستمر بمساعدة تشانغ كاي تشيك أو تعمل على مجاراة ومهادنة ماوتسي تونغ الذي كان قد ساعدهم في تحقيق النصر على اليابان. ولكن عباد الشمس كانت قد أرسلت عدداً من التقارير تحذر فيها أميركا وتضعها تجاه مسؤولياتها في حقيقة الديكتاتور الأحمر. وكان البحارة الشيوعيون من كافة أنحاء الأرض يصلون إلى المشرب الذي كانت تعمل فيه ثم يغادرونه، وكانت مهمتهم في الواقع نقل البريد إلى كوريا وأندونيسيا وتايلاند والهند الصينية والفيليبين الذي كان يتضمن تعليمات المنظمات السرية السوفياتية.

ولقد أرسلت عباد الشمس تقريراً توضح فيه الدور غير الشريف

الذي يلعبه ماوتسي تونغ بالتعاون مع موسكو. ولقد ساورت الشكوك منظمات الاستخبارات الأميركية، فعملت على إجراء تحريات في سبعة أقطار، وعلى الرغم من كل ذلك فإن واشنطن لم تكن على استعداد للاعتراف بالمخططات الرسمية التي كان يعمل الاتحاد السوفياتي على وضعها للغدر بحلفائه الذين كانوا يعملون معه أثناء الحرب.

وفجأة.. ابتدأت باندا بإرسال تقاريرها من تشانغ كينغ حيث تظاهرت أثناء مرورها بأنها شيوعية أندونيسية، ومن أنصار مبدأ آسيا للآسيويين. وهناك في تشانغ كينغ حيث كان ماوتسي تونغ قد أنشأ قيادته العامة، تمكنت باندا من التعرف على مانغ تسيه أستاذ اللغات الأجنبية الذي كان يعطي دروسه الخاصة للديكتاتور الأحمر. وقد تمكنت بعد ذلك من الاتصال برؤسائها بواسطة جهاز لاسلكي صغير الحجم للإرسال والاستقبال وإعلامهم عن اختفاء عدد من عناصر البعثات الأميركية والإنكليزية نتيجة لاغتيالهم وبأن الشيوعيين يعملون على تنظيم شبكات المقاومة في برمانيا وتايلاند والهند الصينية، كما نقلت معلومات على غاية كبرى من الأهمية تتعلق بموضوع المساعدات الصينية لقوات فييت مين في الهند الصينية وعن الاستعدادات العسكرية التي كانت السبب في ضياع نصف حدود الشرق الأقصى من أيدي فرنسا.

اعتبرت واشنطن في البداية أن هذه الحرب ليست إلا مناوشة لا تعني شيئاً بالنسبة لها، وأنها تتعلق فقط بفرنسا، إلى أن أرسلت باندا تقريراً دقيقاً هذا نصه:

«لقد وعد ماوتسي قوات فييت مين بدعمهم بثلاث فرق عسكرية، كما أن ماوتسي يعتبر أن اللحظة المناسبة قد حان موعدها للقيام بهجوم على كوريا..».

ولكن هذه التقارير والمعلومات لم تلق من المسؤولين عن أجهزة الدولة في تلك الفترة إلا آذاناً صمّاء حتى أتى ذلك اليوم الذي تم فيه وضع تقرير على مكتب الرئيس ترومان وكان نص التقرير كالتالي:

«سيعمل ماوتسي تونغ على إنهاء امتيازات الأوروبيين في شانغهاي دون اللجوء إلى أية مفاوضات في ذلك». وتبع ذلك وضع تقرير تفصيلي كامل عن المساعدة التي تقدمها الصين الحمراء للشيوعيين في الهند الصينية.

تعرفت باندا بعد ذلك على جنرال شيوعي قادم من الهند الصينية، وكان نزيلاً على فندق الحكومة في شانغ كينغ. وبينما كان هذا الجنرال يستريح في أحضان فتاة صينية جميلة، كانت باندا تعمل على نسج وسرقة صور عن كافة الوثائق التي كان الجنرال قد تركها في غرفته في الفندق، وكانت تلك الوثائق تثبت بأن الصين الحمراء قررت التدخل العسكري، وبأن الاستراتيجية العسكرية لحرب الهند الصينية كانت من وضع وتوجيه الجنرال السوفياتي فولكوروف الخبير بشؤون الشرق الأقصى والذي تم انتقاؤه بشكل خاص للقيام بهذا الواجب. وعملت باندا مرة أخرى على إنذار رؤسائها بالاستعدادات التي يتم اتخاذها للقيام باعتداء عسكري على كوريا.

وبعد ذلك.. بقيت عباد الشمس خلال عدد من الأسابيع دون أن تعطي أية أنباء جديدة. وأخيراً أرسل آلن بيبرس أول تقرير له بواسطة الجهاز اللاسلكي من مينغ سونغ.

وابتداء من هذه اللحظة، أصبح كل شيء لغزاً وأحجية، ذلك أن رجال الاستخبارات في طوكيو كانوا يجهلون أي شيء عن الموقف،

كما كانوا يجهلون أيضاً بأن باندا هي ابنة ماتا هاري لأن رؤساءهم فقط، وبعض الشخصيات الكبرى في منظمات الاستخبارات البريطانية هم الذين كانوا على اطلاع بمجريات تلك الأمور. ولم تكن تخالجهم وتساورهم الشكوك في أن باندا قد عملت في التجسس لمصلحة أمم أخرى خلال عدد من السنين، قبل أن تعمل لمصلحة المخابرات الأميركية. وصرخ ماك دونالد وهو يضرب بجمع يده فوق طاولة مكتبه: ولكن ألا يعتبر العمل الذي أتمته عباد الشمس في الصين لغزاً محيراً من الألغاز، فلو استمع إليها المسؤولون عن أجهزة الدولة عندنا لكان الكثير من رجالنا الذين قضوا أجلهم في كوريا لا زالوا على قيد الحياة.

أما في شهر أيار (مايو) من عام 1943 أي قبل ثمانية أعوام من تنفيذ حكم الإعدام بباندا ماكليود، فقد كانت مدينة باتافيا تحترق تحت أشعة شمس الأصيل، فتبدو كأنها صحراء مهجورة. ولم تكن الحرارة المحرقة كافية لكي تصبح المدينة كالصحراء المهجورة، فلقد كانت القوات اليابانية تحتل جزر أندونيسيا، وكانت أعلامهم هي الخفاقة الآن فوق أجمل مدينة من مدن المستعمرات الهولندية بعد أن هرب من الهولنديين من استطاع الفرار، أما من لم يتمكن من الفرار في الوقت الملائم فقد تم اعتقاله وألقي به في معسكرات التجمع والعمل الإجباري.

وقد كان ذلك اليوم من الأيام المشهورة في التاريخ، إذ أصدر القائد الياباني الجديد قانون العلاقات مع الأوروبيين والآسيويين الذي تم بموجبه منع اختلاط بين الضباط اليابانيين والأوروبيين والآسيويين، هذا العرق المولد أو المخضرم والذي نشأ عن تزاوج الأوروبيين مع الآسيويين. وكان الهدف من هذا المرسوم الذي أصدره سادة الجزر

الجدد هو تجنب الاختلاط مع الأندونيسيين. ولما كان اليابانيون يقدرون تماماً الفائدة الكبرى التي يمكن الحصول عليها بفضل التعاون مع أصحاب البلاد، فقد كان لا بد لهم من حصر القانون بفئة معينة ظاهرياً لكي يتجنبوا مسّ مشاعر المواطنين الأندونيسيين الذين يمكن استخدامهم للعمل في مزارع المطاط، وإنشاء الطرق، وصناعة القصدير والتعدين، وفي كل مرفق من مرافق الحياة، مقابل رواتب مخفضة. وكان السادة الجدد على ثقة تامة بأن هؤلاء المواطنين سيعتادون بسرعة على الأساليب اليابانية. ولكن العرق الأوروبي الآسيوي يعتبر خطراً بالنسبة لهم نظراً للولاء الذي يربطهم بهولندا ولاحتمالهم القيام بأعمال الجاسوسية لمصلحة أعداء اليابانيين.

ولم يعرف رجال الأعمال ممن يزاولون أعمالهم في هذه المستعمرة المتحضرة ما هو الهدف من إصدار مثل هذا المرسوم القاضي بعدم الاختلاط، إذ إن الأعمال التجارية ومعامل الإنتاج في جافا قد أثبتت وجودها على الرغم من الاحتلال الياباني. وها هو الأمر الجديد يتضمن هدم كل شيء، بل هناك ما هو أدهى وأمرّ فقد ترجم جنود القوات اليابانية هذا الأمر بمثابة دعوة للقيام بأعمال السلب، وأصبح من الممكن الاعتماد عليهم بأعمال النهب دون أي خجل أو حياء.

وكانت السيدة باندا ماكليود متمددة على أريكة تغطيها ستائر الحرير الصيني وهي تفكر في معاني المرسوم الجديد، فقد كانت سيدة من أولى سيدات مجتمع باتافيا وكان منزلها منتدى يقصده الديبلوماسيون، والسياسيون، وشخصيات الدولة، والكتاب والفنانون، والأثرياء من أصحاب الملايين.. بالإضافة إلى كافة شخصيات المدينة، حتى أن كبار الشخصيات الرسمية الهولندية ومنهم الغلاظ

والثقلاء وغير المرغوب بوجودهم، كانوا جميعاً يحضرون لزيارتها كي يعملوا على تقديم احتراماتهم لها، على الرغم من كونها مولدة ومن أصحاب العرق الأوروبي ـ الآسيوي الذي كان يعتبره عدد كبير من الهولنديين العريقين في أصلهم غير جدير بالاحترام لأنهم كانوا يحتقرون المولدين والمخضرمين.

وها هي الآن تشعر للمرة الأولى ومنذ عدة أشهر بأنها في عزلة حقيقية، فلقد نجحت حتى الآن وباستمرار من توجيه كافة أعمالها ومشاريعها رغماً عن وجود قوات الاحتلال الأجنبية، ولكن اليأس بدأ يتسرب إلى نفسها، وتساءلت:

«ترى متى تعرف جافا كيف تصمد في وجه الغزاة والطامعين فيها»؟...

وكانت باندا على وشك إملاء كأسها من الخمر المستخرج من الرز.. والذي كانت قد اشترته من السوق السوداء، عندما طرق أحدهم بعنف على باب منزلها، وأسرع رئيس خدم الفندق، وهو واحد من الذين حافظوا على إخلاصهم ووفائهم لها لاجتياز الدهليز، قبل أن تتمكن من أن تمنعه من ذلك، وعبر الممر وهو يسحب قدميه، ثم فتح الباب، وعندئذ اقتحم ذلك المجهول الباب وأصبح داخل المنزل قبل أن توجه إليه الدعوة للدخول وقال لرئيس الخدم:

«هل بإمكاني مقابلة سيدة المنزل؟.. إن هذا المنزل هو للسيدة باندا ماكليود في ما إذا لم أخطىء»؟...

وأجاب الخادم العجوز الذي كان يتكلم اللغة النيرلاندية بلهجة وهو يسخر من هذا الدخيل بقوله:

ـ نعم يا سيد، تفضل بالدخول...

وارتدت باندا بسرعة ثوباً من الحرير الأسود فوق ملابسها وهبطت على درجات المرتقى الرخامي الموصل للدهليز، ووصلت مقابل ذلك الرجل المجهول الذي لم يحاول النهوض من فوق مقعده لتحية السيدة صاحبة المنزل عندما بادرته وهي تقول له بلهجة قاطعة:

ـ ماذا تريد؟...

ـ اسمحي لي بأن أقدم لك نفسي يا زيللو..

وسألته السيدة باندا بلهجة فاترة:

ـ وهل افترض بأن لديك ما تقوله لي؟...

ـ وعندئذ قال لها ذلك الرجل وقد انفجر بضحكة صاخبة:

ـ ولماذا أنت وحيدة هكذا؟.. وهل تذكرين الاسم الذي ناديتك به.. زيللو؟... إنك ستعرفين بأننا أقرباء...

وعندئذ أجابته وهي تبتسم:

ـ آه... نعم... حسناً... وإذا كنا أقرباء...

وقاطعها ذلك الرجل القصير القامة والغليظ الجثة، ذو الوجه النضر والعينين الزرقاوين وهو ينهض من مكانه ليقول لها:

ـ اصغي إلي، الآن، ولا تتظاهري بأنك تستمعين للمرة الأولى في حياتك باسم زيللو، واتركيني أغرق في الضحك.. لقد كانت والدتك واحدة من خالاتي العديدات، وهذا يعني بأنك ابنة خالتي.

وشحب وجه باندا فجأة واصطكت ركبتاها، وقالت لنفسها:

«يا إلهي و.. لقد قابلت في حياتي عدداً من الأقارب، وها هو قريب من أقارب والدتي يظهر فجأة.. وكان ينتابها شعور بأنها كانت

تستمع إلى ضربات قلبها، وقد ارتفع صوته حتى أصبح يشبه صوت السيارة وهي في بدء سيرها، ذلك أن هذا اللقاء عاد فنكأ في نفسها جرحاً قديماً يعود تاريخه إلى خمس وعشرين سنة ماضية.

ثم تابع الرجل السمين والقصير والذي كان محشواً في سترته الضيقة حديثه بقوله:

ـ حسناً، يا ابنة الخالة، وهل هذا الأسلوب جدير باستقبال الأقرباء؟... كما أنك لن تكوني مسرورة لاستقبالي في الدهليز أليس كذلك؟... ثم إن لدي حديثاً يهمك.. قال لها ذلك، وهو يربت بأصبعه الغليظة على كتف السيدة الشابة بطريقة مبتذلة تدل على عدم الاحترام.

واقتادته السيدة إلى البهو، دون أن تتفوه ببنت شفة، حيث عملت على إملاء كأسين من خمر الرز وقدمت واحداً إلى الضيف وأفرغه هذا في جوفه جرعة واحدة وبدون انتظار.. ثم قال:

ـ هذا حسن، أعطني كأساً آخر.

وشعرت باندا بقشعريرة تهز كيانها، وهي تفكر في أنها ستضطر إلى الدخول في حديث ونقاش مع هذا الرجل المتشرد، والذي كان واحداً من أقربائها..

وابتدأ الرجل حديثه بعد أن أفرغ الكأس الثاني في جوفه فقال:

ـ حسناً لنشرب نخب العمل الذي سنقوم به، إنك تعرفين كيف تسير الحياة هنا، وإن باستطاعة الإنسان عندما يكون غنياً أن ينسى أقرباءه.. ولكن الآن.. فإن الظروف لم تعد تسير في مصلحتك.. ولهذا اختارتني السماء وأرسلتني إليك...

وعندئذ قاطعته السيدة بلهجة متعالية بقولها:

ـ إنك مخطىء في تصورك هذا.. فأنا لست في وضعية سيئة، ولست في ضيق كما تتصور...

ولكنها استدركت بسرعة فقالت بلهجة ديبلوماسية مهذبة:

ـ ولكن هذا لا يعني بأنني غير مسرورة لقدومك..

وعندئذ عقب على قولها هذا بقوله:

ـ إنك لست في ضيق. إذاً اسمحي لي بأن أضحك.. وهل حسبت حسابك على معنى هذا المرسوم الذي ينص على عدم الاختلاط؟.. إنني قدمت إلى زيارتك بعد أن استمعت إليه وفهمت معناه.

ـ ولكنني لا أعلق أية أهمية، على الاختلاط باليابانيين.

ـ بلى يا ابنة الخالة، فهناك من الأسباب ما يدعو إلى الاختلاط، بل إن هذا أمر رسمي.. ثم غرق من جديد في الضحك، وقد وجد بأن الموقف يعتبر من المواقف المضحكة، فما كان من السيدة باندا إلا أن قالت بلهجة مرعبة:

ـ لا يوجد أي إنسان يستطيع إجباري على القيام بأي عمل دون إرادتي.

فأجابها ابن خالتها وقد ارتفع صوته ليقول لها:

ـ بلى، بإمكانهم إجبارك، ثم هل ترغبين في تركي أموت عطشاً؟... إنني لا أرغب في مهاجمتك يا ابنة الخالة، ولكن ومع هذا الحر الشديد ـ فلا شيء يفضل عن خمر الرز، فلنشرب في نخب صحتك. كلا.. إنك لا تستطيعين تجنب اليابانيين.

تمكنت باندا من الحفاظ على ضبط أعصابها حتى تلك اللحظة، ولكن قلبها الآن بدأ يخفق بشدة وضاق صدرها بحيث أصبحت تتنفس بصعوبة وبطء، وأصبح الخوف يشد على صدرها وكأنه نطاق من حديد وأمعنت النظر في عيني زيللو فأدركت بأن هذا الرجل على استعداد للقيام بأي عمل ضار، وعندئذ سألته بحماسة:

ـ ولماذا لا أستطيع تجنب اليابانيين؟...

ـ لأن... على الرغم من أن اسمك ماكليود فإنك ابنة مولدة، ومن الطبيعي بأنك لست المسؤولة عن كونك مولدة من عرقين مختلفين فإن أمك كانت تسمى ماتا هاري وقد كان اسمها الحقيقي غيرتراد زيللو.

وسألته باندا وقد شعرت بأنها تكاد تقع مغمياً عليها:

ومن يعرف سواك هذه الحقيقة؟... فأجابها بلهجة حادة:

ـ إن كمبي تاي رئيس منظمة الاستخبارات اليابانية يعرف ذلك، وقد طلب إليّ أن أحضر لزيارتك.

فما كان منها إلا أن قالت له: لقد عشت طول عمري في باتافيا ولا يوجد أي إنسان يعرف بأنني ابنة ماتا هاري حتى يعرف اليابانيون..

ـ وهل كانوا سيعلمون ذلك لو لم أخبرهم أنا؟...

ـ ولماذا أعلمت السلطات اليابانية عن ذلك السر، الذي كان يجب المحافظة عليه وعدم البوح به لأي كائن مهما كان السبب؟...

ـ إنها قصة طويلة، تتطلب وقتاً طويلاً لروايتها، وبالاختصار، فإنك تعرفين الآن كل شيء ولا شك بأنك مسرورة لأنني قدمت لمقابلتك عوضاً عن أحد الضباط اليابانين.

وعندئذ قالت له بلهجة المترددة:

ترى ماذا أستطيع أن أعمل من أجل هؤلاء اليابانيين؟..

ـ ستصبحين واحدة من عملاء منظماتهم السرية.

ـ ولكنني مولدة، ومن العرق الأوروبي ـ الآسيوي، وبذا فإن مرسوم منع الاختلاط...

ـ إنه مرسوم وضعه أحمق، فإن قائد المنطقة ليس إلا رجلاً غبياً فيما يتعلق بالمواضيع السياسية، وستكونين أول من ينقضه بإجازة رسمية، وسأتركك لمدة أربعة وعشرين ساعة كي تفكري في الأمر، ولكن في الواقع لا يوجد أمامك أي حل آخر، إطلاقاً، ليس لك الخيار، هل تسمعين؟... فبإمكانك التفكير والبحث هنا، ولكنك ستصلين إلى النتيجة الخطيرة وهي أن أحداً لن يعرف بأنك ابنة ماتا هاري، ثم إن أمك من قبلك قد عملت في الجاسوسية لمصلحة ألمانيا، وأن اليابانين لا يشعرون بأي خجل من ذلك.. ولكن معارفك وأصدقاءك سيفكرون في شيء آخر إذا ما عرفوا ذلك، وفيما إذا تم إشهار قصتك على الجماهير، وعندئذ، وحتى نهاية حمايتك فإنك سوف لن تعرفي طعماً للراحة والسعادة ولو لثانية واحدة... إلى الغد... يا ابنة الخالة..

لم تبذل باندا جهداً كبيراً كي تقدر موقفها وتدرك بأن لا مفر أمامها.. فإذا لم تعمل على التفاهم مع اليابانيين فسينتقمون منها، وقالت لنفسها:

ـ آه.. يا والدتي.. لقد تركوني أنعم بالسلم والاستقرار لمدة أربعين عاماً، وها أنذا الآن مجبرة على اتباع خطواتك...

وبذلك ابتدأت المرحلة الثانية لحياة باندا تلك الحياة التي قدر لها أن تنتهي في حفرة من شمال كوريا برصاص أطلقته يد المستشار الشيوعي.

وكانت حياتها سعيدة، ومثمرة قبل أن تجتاح القوات اليابانية كالجراد جزيرة جافا وبورنيو وجزر الباسيفيكي الأخرى.

ولنعد الآن لنتابع ذكريات باندا والتي يبدأ تاريخها عندما لم يكن لها من العمر أكثر من سنتين، في تلك الفترة، كانت تعيش في منزل نظيف وأنيق يقع في ضواحي باتافيا وكان ذلك مع بداية القرن العشرين، عندما كانت إحدى العائلات تعمل على تربية فتاة صغيرة وجميلة جداً بعد أن استلمتها من والدتها التي كانت تعمل راقصة وكانت جميلة للغاية، جمالاً يتفوق على مقاييس الطبيعة، ولم تقض الطفلة باندا حياتها الأولى في القصر، ولكنها عاشت في جو تحيطه المحبة الأبوية ويرعاه الحنان.

لم يكن ينقص باندا شيئاً فقد كانت أمها تبعث إليها من أقاصي أنحاء أوروبا بالهدايا، والألبسة الجميلة، والألعاب الحلوة، كما كانت هذه الهدايا غالباً ما تصل مع صورة الأم الحلوة والتي كانت تبرز بوضوح الثياب الفاخرة، وثياب الرقص الثمينة، والأناقة المفرطة، في تصفيف الشعر، وفق أحدث الأزياء الباريسية. وكان ذلك برهاناً على ما كانت تتمتع به الأم من الجمال والترف، ولكن من هو والدها؟... وما هو وضعه؟...

إن أمها بالرضاعة لم تتناول في أحاديثها هذه المواضيع مطلقاً، ولم تعرف غير أنه أندونيسي ولم تتعرف عليه باندا مطلقاً، كما أنها انقطعت عن طرح الأسئلة المتعلقة به..

وكانت الطفلة تتلقى التوجيهات التي كانت تحتاج إليها في نشاطها عن طريق والدها بالتبني والذي كان سيداً مهذباً، ذو شعر أبيض يعمل في أحد المطاعم، وكان والدا باندا بالتبني يعاملانها معاملة طيبة وكأنها ابنتهم الحقيقية.

وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها، تفتحت باندا عن جمال طبيعي فتان فكانت تلقى المعاملة الخاصة أينما حلت، وعلى الرغم من كونها مولدة، فلقد سمح لها بالدخول إلى معهد خاص بالفتيات، حيث تلقت فيه الثقافة التي مكنتها فيما بعد من التردد على أرقى طبقات المجتمع الاستعماري وكأنها كانت أوروبية أصيلة، وكانت بالفعل ذات جمال أوروبي يسيل الدم الحار في عروقها.

ولم تعد تفكر مطلقاً في أمر أمها الحقيقية التي لم ترها مطلقاً، وعلى الرغم من إعلان الحرب العالمية الأولى، فقد استمرت والدتها في إرسال النقود إليها، بطريق غير مباشر، ولكنها واعتباراً من ذلك التاريخ انقطعت كلياً عن إرسال الرسائل إليها.

وفي تلك الفترة كانت أنباء الحرب تصل من أوروبا فتصور مدى النضال القاسي، وأهوال الحرب ومدى ما تكلفه من أرواح إلى أن عادت باندا ذات يوم، بعد أن لعبت التنس مع أصدقائها، فوجدت إمارات الحزن مرتسمة على وجه والديها بالتبني.. ولما حاولت معرفة السبب، أنكرا عليها ذلك، وكانت كلما ازدادت توسلاً، كلما أمعن كل من الوالدين في الإنكار والتجاهل، وأخيراً ارتمت باندا في أحضان تلك التي كانت تعطف عليها وتحبها كوالدتها تماماً، وعندئذ رأتها وهي تنخرط في البكاء.

وسألت باندا من جديد.

ـ ماذا جرى؟ أخبريني ماذا حدث؟ . . .

ولكنها لم تحظ بأية إجابة، سوى الهزّ بالرأس والأكتاف.

ومرّ بعد ذلك عامين بطولهما قبل أن يعمل والد باندا بالتبني على كشف الستار عن سرّ حزنهما، وكان ذلك عندما جلست إليهما وقد طفحت بها مشاعر الفرحة والسعادة فلم تعد تشعر بأي حزن فوق أرض هذا العالم لتحدثهما عن موضوع يختص بشخصها وبعواطفها فقالت لهما:

ـ إنكما تعرفان بالتأكيد ما سوف أقوله لكما، إنه يتعلق بموضوع ويلهيلم فان ديرن لأننا نرغب في الزواج، ولا شك بأنكما ستكونان سعداء لذلك. فأجابها والدها بالتبني وهو يخفض من بصره ليتجنب النظر في عينيها وقال لها:

ـ «نعم إننا نعرف ذلك. والآن فإنني أفترض بأن الوقت قد حان لكي نخبرك بكل شيء».

وسألت باندا وهي تبتسم:

ـ وفي أي موضوع؟ . . .

عندئذ تصدّت أمها بالتبني للحديث، فقالت: اتركني أخبرها بنفسي. واقتربت وجلست إلى جوار الصبية وقالت لها: تجلدي يا ابنتي، وكوني شجاعة. ترى هل تذكرين ذلك اليوم أثناء الحرب، عندما عدت إلى المنزل وكنا في حالة اضطراب وحزن؟ . . في ذلك اليوم تم استلام ذلك النبأ الرهيب والذي يعلن لنا بأن والدتك يا باندا ذات الشهرة العالمية والتي عاشت باسم ماتا هاري قد تم إعدامها رمياً بالرصاص في فرنسا وفي غابة فانسين بالقرب من باريس، لأنها كانت

تعمل في الجاسوسية، وقد وصلت رسالة وبعضاً من هداياها بعد ذلك بعدة أشهر.

ـ والآن، وأنت على وشك الزواج، فإننا نشعر بأن واجبنا، إعلامك عن مصير والدتك المسكينة، وها هي رسالتها، وآخر هداياها إليك مما كانت تمتلكه. لقد احتقرها من عمل على محاكمتها، ولكن أغلب الناس ممن عرفوها كانوا يحترمونها ويحبونها حتى درجة العبادة، وعليك أن تحبيها دائماً يا باندا لأنها كانت تفكر فيك باستمرار حتى وهي تلفظ آخر أنفاسها. والآن اذهبي إلى غرفتك واحتفظي بهذا السر الذي يخصك وحدك ولا يوجد أي إنسان يستطيع أن ينصحك أو يخفف عنك، وعليك أن تجدي السلوى في ذاتك.

وتزوجت ابنة ماتا هاري بعد ذلك بثلاثة أشهر، وكانت سعيدة بزواجها وبعملها كمدرسة. وكان أصدقاؤها وصديقاتها يرون فيها مثال الزوجة الناجحة والمتألقة، عندما وقفت في يوم زفافها وهي ترتدي الثياب البيضاء وتزين رأسها بالأزهار الحية، وكانت في مثل جمال أمها، عندما ذهبت هذه الأخيرة ليتفتح لها قلب باريس، وكانت باندا تحمل معها في يوم زواجها سر أصلها.

وعاشت باندا اعتباراً من هذا اليوم، في واحد من أفخم مساكن باتافيا. وكان زوجها موظفاً كبيراً له مكانته، وكان يبدو بأنه لا يمكن لأي قوة في أن تحطم سعادتها. فلقد انقضى عليهما مدة عامين منذ يوم زواجهما دون أن تمر سحابة واحدة لتحجب السعادة عن سماء منزلهما، كما لم يتخلل تلك الفترة أي نقاش حاد أو أي نزاع. وعلى الرغم من أن الزوج كان يكبر زوجته بثلاثين عاماً فقد كان التفاهم التام ينشر جناحه فوقهما، كما كان يربط بينهما رباط من الحب

العميق. ثم وبعد ظهر يوم من الأيام عاد ويلهيلم إلى منزله وهو يشكو من ألم حاد في صدره فقالت له باندا:

ـ إنه من الأفضل لو استدعيت الطبيب. ثم عملت الزوجة الشابة على استدعاء أشهر اخصائي في باتافيا، ولكن إنقاذه لم يكن باستطاعة أي إنسان، فتوفي في صباح اليوم التالي، لإصابته بالحمى الاستوائية الرهيبة.

وانقضت أعوام قبل أن تتمكن باندا من أن تستفيق من ذهول تلك الصدمة. وبعد ذلك كرست ذاتها لتدريس الآداب والفنون، ولم تكن تعاني أية ضائقة مادية، لأنها كانت قد ورثت عن زوجها ثروة ضخمة، ثم بدأت شيئاً فشيئاً تعاود سيرتها للتمتع بمباهج الحياة، وعاد من جديد أصدقاؤها القدامى ليتحلقوا حولها. وبما أنها كانت من أجمل سيدات باتافيا دون منازع، فقد التف حولها عدد من المعجبين بها، وعلى كل حال، فإنها لم تكن راغبة في بقائها على وضعها كأرملة مدى الحياة...

تلك هي الصفحة الأولى من حياة باندا والتي انتهت مع الاحتلال الياباني لتبدأ في صفحة حياتها الثانية، عندما أجبرت للعمل مع منظمات الاستخبارات السرية لليابان، ولقد ضحت بذلك كي لا تكشف الستار عن سر أصلها.

انتهت حفلة الاستقبال التي حضرها كبار ضباط اليابانيين، ورجال الصناعة والملاك من أصحاب المزارع الأندونيسية وزوجاتهم، وبعثة وزارة الشؤون الخارجية الألمانية والتي كانت قد وصلت قبل أسبوع على ظهر غواصة بحرية، وكان جميع الحضور قد تبادلوا في تلك الأمسية الأحاديث عن السياسة، ولا شيء غير ذلك.

لم يكن من عادة المنتدى الأدبي في منزل باندا تناول الأحاديث السياسية. ففي الظروف العادية، كانت الأحاديث تقتصر على الفنون والعلوم والآداب، وكان من النادر تبادل الأحاديث في همسات خافتة للحديث في مواضيع ذات طابع سري، خشية أن يكون ذلك سبباً قد يعكر ولو لدرجة طفيفة مجرى المياه الهادىء، لهذه الحياة العلمانية.

والآن وقد انصرف الحضور جميعاً، ولم يبق إلا القنصل الياباني ياكيموتو صاحب القامة القصيرة والجسم النحيل، والذي بقي على مقربة من سيدة المنزل الجميلة جداً، وقد طفح وجهه بالبشر فرفع كأسه وهو يبتسم في وجه باندا علامة عن الرضى للنجاح الذي أحرزه هو ذاته، ثم للطريقة التي أقيمت فيها حفلة الاستقبال، وللجو الجميل الذي سيطر على تلك الأمسية.

ثم قال لها وهو لا زال يبتسم:

ـ إننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً يا سيدتي، في أيامنا هذه، فكلما تكررت اللقاءات مع الألمان نراهم وهم لا يفكرون إلا بالطريقة التي سنقتسم فيها النقود في هذا العالم.

وعقبت باندا على قوله:

ـ حقاً، إنهم لا يشعرون في أي حرج لإعطاء رأيهم بمنتهى الصراحة، ويجب الاعتراف بذلك.

وكان قد انقضى عام واحد، منذ بدأت باندا تعمل في الجاسوسية لمصلحة اليابان، وعندئذ انطلق القنصل الياباني وهو يتكلم بصوت أخن من أنفه، وبنبرات خافتة فقال لها:

ـ نعم وهذه حقيقة فعلاً تستحق التسجيل، ولكن... حبذا لو كان السيد غالاتي حاضراً معنا...

وقالت باندا وهي تعترض حديثه:

ـ فعلاً، ترى ماذا حصل للسيد غالاتي؟.. انقضى مدة خمسة عشر يوماً على الأقل دون أن أراه خلالها، كما أن الهاتف في الشركة الصناعية لجزر الباسيفيكي لا يجيب إطلاقاً.

فقال لها القنصل الياباني:

ـ إنني أخشى أن أزعجك، إذا ما رويت لك القصة بكاملها، ولكنني أستطيع أن أنقل إليك خبراً هاماً. لقد تم إغراق غالاتي مع مركبه الصغير تاينغيرانغ والذي كان يتجول به ويذهب إلى باسيربوتيك بعد أن أعطيناه بمنتهى التهذيب إجازة للسفر، ولكن غالاتي أخبرنا قبل أن يتم إغراقه عن المكان الذي وضع فيه جهاز اللاسلكي الخفي، في مكان من باتافيا ولكن ماذا حصل له؟... أعتقد بأنني قد ذكرت لك الآن قصة محزنة. إنني مكتئب جداً، لأنني سببت لك هذا الإزعاج.

فما كان من باندا إلا أن قالت له وهي تضغط بيدها على كأسها الذي كانت تحمله محاولة أن يسيطر على انفعالاتها:

ـ كلا، إنك مخطىء تماماً، ولكن السهرة قد تقدمت بنا، وأصبح الوقت متأخراً، لأنك تعرف ما تسببه حفلة الاستقبال من الجهد والتعب.

ـ إذاً، وبما أن الوقت متأخر، فإنني أستأذن في الذهاب.

ـ كلا، ليس هذا ما أريد قوله، وعلى كل حال فإنني لن أتمكن من النوم الآن، كما أنني أشعر دائماً بالراحة وأنا في رفقتك.

وتمكنت من إعادة السيطرة على ذاتها، ولكن الدموع كانت

تحجب الرؤيا أمام عينيها لأنها لم تتمكن من البكاء لوفاة غالاتي هذا الرجل السويسري المربوع القامة والقوي البنية جداً. . . وكانت تشعر وكأنه كان واقفاً أمامها، وكأنه لا زال على قيد الحياة، ولكنه الآن جثة ميتة. . . لقد حدث له طارىء تسبب في غرقه ولم تكن هي مسؤولة عن ذلك، فعندما اكتشفت بأنه كان جاسوساً يعمل لمصلحة هولندا أعلمها اليابانيون بأنهم سيلزمونه الصمت، وسيحتفظون به حتى نهاية الحرب، وها هي الآن تدرك ما كان يقصده اليابانيون بقولهم سيلزمونه الصمت.

وتساءلت وهي تشعر بالضيق في صدرها، عما وقع لغيره من الأشخاص ممن عملت على الوشاية بهم دون أن تبذل جهدها لتعرف ما سيكون عليه مصيرهم. ترى إلى أين يقودها كل ذلك؟. . . حبذا لو انتهت هذه الحرب الرهيبة. . .

ولكن القنصل الياباني ياكيموتو لا زال ينظر إليها من خلال عينيه الصغيرتين الماكرتين وابتسامته التي لا تفارقه في هذه اللحظة وهو يجلس فوق مقعده المقابل لها، إنه رجل خطر وسوف لن يرحمها، لذا فعليها ألا تخونه في عواطفه. فأسرعت من جديد لإملاء كأس من خمر الأرز، وفجأة فتح القنصل علبة، فالتمع عقد الماس البراق فوق قعر العلبة المخملي.

إنها هدية صغيرة لك يا سيدتي. فهل هذا يدخل السرور إلى نفسك؟. . .

وهتفت باندا:

ولكنه رائع. . إنه يساوي حتماً ثروة ثمينة، آه إنني لا أستطيع قبوله.

بلى... يجب أن تقبليه. قال لها ياكيموتو ذلك، وقد ارتسمت علامات الرضى بوضوح فوق وجهه وهو يحتسي كأسه ثم تابع قوله:

وإنني سأكون غاضباً، لو لم تقبليه مني، إنني لا أحب أن أغضب منك..

والتمعت نظرات باندا كما كانت تلتمع عيون والدتها قبل ثلاثين عاماً عندما كان يصلها إلى غرفتها في المسرح الهدايا والمجوهرات التي يبعث بها إليها المعجبون الفرنسيون وضباط القيادة والوزراء، ونسيت في لحظتها كل آلامها، فوضعت العقد حول جيدها بحماس ظاهري، وثبتت قفله، واقتربت من المرآة، وكم كان بريق ذلك العقد أخاذاً، والتماعه قوياً.

قال لها القنصل وهو ينهض من مكانه:

ـ إنني أشعر بأن هذه الهدية، قد أدخلت السرور إلى نفسك فعلاً، فهل هناك وسيلة أخرى نستطيع بواسطتها أن نعبر لك عما نحمله لك من التقدير والاحترام يا سيدتي؟.. إنك سيدة لا تحتاجين إلى أي شيء، فلديك منزلك الضخم، وتمتلكين وافر المال، كما أنك على علاقة جيدة بأفضل طبقات المجتمع، وينتظرك مستقبل مجيد. إننا لن ننسى أصدقاءنا. ثم أحنى برأسه تحية لها وهو يصطنع الوقوف أمامها موقف الذليل.

فدمدمت باندا بقولها:

ـ شكراً، نعم.. لقد سررت سروراً بالغاً لهذه الهدية.

وفي اللحظة التي استدار فيها للمرة الأخيرة على عتبات مرتقى المنزل، لاحظت باندا في نظراته شيئاً غريباً، شيئاً ما غير الاحترام

والإعجاب، ولعل أي أوروبي لو رأى تلك النظرات لعجز عن فهم ما تحمله من المعاني ولكنها هي، الأوروبية ـ الآسيوية، أدركت المعنى الذي تحمله تلك النظرات، وشعرت بالخوف منها، ولذا فإنه لم يكد يغادر المنزل حتى انفجرت العاصفة من فوقها، وعادت إلى واقعها، وخيل إليها وكأنها تسمع أصداء تتردد باستمرار فتقع في أذنيها وهي تقول:

«غالاتي، غالاتي، غالاتي» وشعرت بقشعريرة باردة كالجليد تهز كيانها، فارتجفت أقدامها من تحتها وارتمت فوق ديوانها الطويل في البهو، بعد أن دفنت وجهها بيديها، لقد قتل اليابانيون غالاتي وسيقتلون أياً كان من المتعاونين مع الهولنديين، وبقيت في وضعها المنهار هذا لفترة طويلة، ووجهها مختبىء بين يديها، وفجأة التمع في مخيلتها خاطر، وجالت في رأسها فكرة واضحة ودقيقة..

إن استمرارها في الحياة هكذا، أمر لا معنى له ولا فائدة، فلماذا تعمل على تسليم الآخرين لأيدي الموت، في سبيل هدف واحد هو النجاة بحياتها، وإنقاذ رأسها؟.. وصرخت:

ـ كلا.. كلا.. يجب وضع حد نهائي لكي لا أستمر في العمل مع هؤلاء السادة المحتلين من اليابانيين.

ونهضت بقفزة واحدة من مكانها وأسرعت إلى غرفتها، وسحبت جرار دولابها، وأخرجت أنبوباً يحتوي على الحبوب المنومة، وأفرغت المحتوى في كأس من الماء، وشربته بحيث لم يبتعد الكأس عن شفتيها حتى أصبح فارغاً، حتى آخر قطرة فيه.

ثم بدأت تشعر بأن أثاث ومفروشات غرفتها تسبح أمام عينيها، ولم يكن لديها من الوقت إلا فرصة صغيرة تمكنت خلالها من السير

حتى وصلت إلى الديوان بخطى متأرجحة وعندما وصلته، وقعت فوقه فاقدة لوعيها.

ولكن القدر المحتوم، لم يمكن باندا من التضحية بذاتها بمثل هذه السهولة لتكفر بذلك عن آثامها، فهناك عقوبة أقصى من الموت، وهي أن تعيش حياة لا طعم لها ولا معنى وهي مجبرة على ذلك. فقد كان اليابانيون في غاية السخاء مع العملاء الذين يتعاونون معهم، إذ كانت باندا تستمتع بكافة وسائل الراحة المادية في الوقت الذي كان فيه مواطنوها يتضورون جوعاً، وكانت بصحة جيدة، بحيث أن الأربعة عشر حبة والتي تناولتها لتضع لحياتها حداً، لم تكن كافية لتحطيم هذه البنية القوية.

لقد بقيت طوال ساعات وهي فاقدة لوعيها، ثم فتحت بعد ذلك عينيها، وقد وجدت صعوبة كبرى في ذلك، إذ خيل إليها بأن أجفانها قد ثقل وزنها بشكل لا يحتمل، كما كان حلقها جافاً وناراً محرقة تنهش في معدتها، وكان العطش يسبب لها آلاماً رهيبة، ولكنها كانت لا زالت على قيد الحياة، وانقضت عليها دقائق وهي كذلك، إلى أن أدركت المكان الذي كانت فيه، ثم، فجأة شعرت وكأن القنصل الياباني كان قد غادرها منذ لحظات قليلة، وأحست بوجيب قلبها يردد غالاتي، وها هي من جديد تعود مجبرة على الاستمرار في درب هذه الحياة ولا مفر لها من ذلك، كما كانت عاجزة عن الفرار بعيداً عن باتافيا. إذ كانت كل منطقة الشرق الأقصى في أوضاع مماثلة لوضع جافا وهي تقع جميعاً تحت وطأة نعال طوكيو. كما أن الوطن الهولندي كان محتلاً من القوات الألمانية.

إن باندا نجحت بالتأكيد في القيام بأعمالها وتنفيذ الواجبات

المطلوبة منها، ولقد حرص اليابانيون على ترك الحرية لها لتعيش في منزلها، كما أغدقوا عليها المأكولات والمشروبات مما كان يفيض عن حاجاتها، ولم تكن تنقصها الملابس الجميلة والثمينة، كلا، ولا الروائح الثمينة التي كانت تبعثها إليها ألمانيا من باريس، وحتى الأحذية الأنيقة التي كانت تصلها من فلورنسا، ولكن يا له من ثمن فادح يتوجب عليها أن تدفعه لقاء الرفاهية، وهذه الحياة السهلة الجميلة.

ولكن باندا كانت خائنة، فقد عملت على خيانة لوندكيست الذي اعترف لها ذات يوم بأن قنصليته تستخدمه في نقل المعلومات العسكرية الهامة إلى بريطانيا، كما تذكرت رغم اضطراب فكرها خيانتها لذلك اليوناني البائس هيموس والذي كان يعيش بعيداً عن وطنه متظاهراً بأنه يعمل في علم الآثار، ليتمكن من مزاولة عمله الحقيقي، كعميل للمخابرات الفرنسية في الشعبة الثانية، كما كان هناك هيرمانو دولف أحد المستوردين من رعايا فنزويللا والذي كان يعمل لمصلحة الاستخبارات الأميركية. ترى كم هم عدد أولئك من الرجال والنساء، والذين فقدوا حياتهم نتيجة لوشايتها بهم، وهم يعملون بإخلاص في صالح المعسكر الغربي، للنضال ضد سيطرة طوكيو واستعمارها الرهيب؟...

وصرخت باندا فجأة: إنني عاجزة عن الاستمرار، إنني عاجزة عن الاستمرار.. إن الموت خير من هذه الحياة الرهيبة.

وشرعت تضرب رأسها بقبضتي يديها الصغيرتين، وكانت تشعر وكأن آلاف الدبابيس تخزها في صدغيها. ونهضت بنشاط واقتربت من المرآة فرأت وجهها في المرآة وكأنه قناع من الشمع، ولكن العقد لا

زال يتلألأ فوق الجيد، وكأنه عقدة حبل المشنقة.

وحاولت أن تفتح قفله، ولكن ذلك كان يتطلب منها زمناً أطول نسبياً من الزمن المعتاد وذلك بسبب ارتجاف يديها، ثم ألقت بعد ذلك بالعقد فوق السجادة وأخذت تسحله بقدميها حتى انفرطت حباته، ولكن قطع الماس حافظت على بريقها وكأنها كانت تنقل رسالة مضيئة تحمل حقدها الذي لا يمكن أن يسمعه إلا جدران بهوها الأنيق فقالت:

ـ سأنتقم منهم.. وسأنتقم لـ غالاتي وللجميع، ولو أدى بي الأمر كي أضحي بحياتي، ولكن الثمن الذي يتوجب عليَّ أن أدفعه سيكون ثمناً غالياً.

كان يخيل للجميع بأنهم لن يحلموا برؤية نهاية الاحتلال الياباني لجزيرة جافا. فلقد امتد أمد الحرب وأصبح الأمل الأول ضعيفاً وكأنه ضحية من ضحايا هذه الحرب.

وبدأ سكان باتافيا يتململون ويزمجرون وهم يرددون أن السيدة تراقبهم وتتربص بهم. ففي عام 1944 كان اليابانيون المنتصرون قد تمكنوا من وضع البلاد داخل كيس وبدأوا يعصرونه ليستنزفوا كل نقطة من الماء والدم، لكي يتمكنوا من الاستمرار في حربهم ضد الحلفاء، وكانت باندا واحدة من السيدات القليلات جداً واللواتي لن يتمتعن بامتيازات كاملة في جافا، فلم يكن ينقصها أي شيء، لأنها كانت تعمل دائماً لمصلحة الاستخبارات السرية اليابانية، أو على الأقل هذا ما كانت طوكيو تعتقد به.

وفي هذه الأمسية الدافئة من أمسيات شهر أيلول (سبتمبر) لعام 1944 كانت باندا تشعر والفرح يغمرها بأن في مقدورها أن تحمل العالم بأجمعه، ذلك لأنها كانت في انتظار الرجل الذي تحبه بكل ما

في قلبها من عواطف آسيا الحارة، وكان العقيد ايبل واحداً من قادة حرس الحدود، وكان هذا الضابط الجميل الطلعة تتمناه كافة فتيات مدينة جافا، ولذا فليس من المستغرب إذا ما وقعت باندا في حبه منذ لقائهما الأول.

وكانت السلطات اليابانية قد سمحت بإنشاء وتكون حرس الحدود، وذلك بهدف دعم الأمن الداخلي، كما كانت قد وعدت بالاعتراف بأندونيسيا كدولة مستقلة، فور انتصارهم على أعدائهم، ولكن باندا كانت تعرف، كما كان يعرف ذلك عشيقها، بأن اليابانيين إذا ما انتصروا في الحرب، فإن أندونيسيا لن تصبح مطلقاً دولة حرة مستقلة، ذلك أن حرية الآخرين هي شيء معدوم من قاموس الدول المنتصرة.

ولم يكن ايبل هو ذلك الرجل الذي تحبه باندا فقط، بل كان أيضاً ذلك الرجل الذي ستعمل على مساعدته لتصفية حسابها مع اليابانيين، الذين أُجبرت على العمل معهم منذ أمد طويل. وها قد انقضى عامين عليها حتى الآن، وهي تساهم في تنظيم شبكات للمقاومة كي تعمل هذه الشبكات على تحطيم مؤخرات القوى اليابانية في اللحظة التي ينقض فيها الحلفاء في الهجوم. واتسعت رقعة تنظيم هذه الشبكات بحيث أصبحت تمتد إلى كل قرية أو مدينة في أندونيسيا. ولم تشعر السلطات اليابانية أبداً وبالتأكيد بوجود هذا الخطر الخفي الذي يتهددهم، كما أنهم لن يتمكنوا أبداً من تحطيم هذه المنظمات السرية، والتي تنتظر اللحظة المناسبة كي توجه ضربتها، إذ كانت باندا على اطلاع تام بكافة مشاريع قوات الاحتلال والمتعلقة بمواضيع الأمن الداخلي.

ولذا كانت باندا تعمل في كل مرة للتدخل في الوقت المناسب، فتنذر قادة تنظيمات الأندونيسيين عندما كان الخطر يحيق بهم، وبذلك

كانت تتمكن من إنقاذهم في اللحظات الحرجة.

وكانت وحدات وتشكيلات هتلر العسكرية في أوروبا، قد ابتدأت في التراجع والاندحار، وسيأتي دور الشرق الأقصى عما قريب، كي يعود إليه السلم والاستقرار، وعندئذ ستتمكن باندا من الزواج بذلك الرجل الذي تحبه لتعيش بسعادة ولن يعرف عندئذ أي رجل غير هؤلاء اليابانيين المندحرين والمغلوبين على أمرهم في أنها ابنة ماتا هاري... آه... وحبذا لو كان ايبل يستطيع أن يصل بسرعة. هذا ما كانت تردده في سرها، كما كانت تردد... ولكنني سأكون عاجزة عن إمعان النظر ورؤية نظراته البراقة، عندما سأطلعه على المخططات والمعلومات التي نجحت في الحصول عليها.

وبعد ذلك بقليل، سمعت باندا وقع خطوات فوق الممر الرخامي، فعرفت بغريزتها بأن تلك الخطوات كانت للعقيد ايبل فأسرعت إلى مرآتها، حيث أعادت تصفيف شعرها بسرعة وألقت المساحيق الخفيفة فوق وجهها، ووضعت أحمر الشفاه، وعندئذ كانت نقرات ايبل تقرع الباب بحذر، ففتحت له الباب واستقبلته بابتسامتها البراقة، وارتمى كل منهما في أحضان الآخر، ثم سألته بهدوء:

ـ كيف هي الأمور.. وهل سارت على ما يرام؟... فأجابها ضاحكاً:

ـ نعم يا عزيزتي، فعندما وصل اليابانيون للبحث عن رجالنا في وقت متأخر جداً، كان الجميع قد تواروا عن الأنظار، وكان وصول القوات اليابانية كالمعتاد بتأخير يوم واحد، ولك الفضل بما ننعم به من الأمن والطمأنينة.

ـ عندي مفاجأة خاصة لك، في هذا اليوم. هذا ما قالته له وهي تنضح حماسة ثم سحبته من يده إلى الديوان، وقالت له:

ـ انظر، هذا مخطط واضح ودقيق وهو يتضمن جميع المواقع العسكرية اليابانية، وكافة المطارات وجميع المستودعات الخاصة بالذخائر... انظر.. هنا تقع كافة قواعد الغواصات و...

بزغ الفجر أول تباشيره، وكان الخدم قد ذهبوا إلى النوم منذ زمن طويل عندما ذهبت باندا إلى المطبخ لكي تعمل على تسخين الماء وإعداد الشاي، أما ايبل فقد بقي جالساً على الديوان، وكان قد نسي طوال تلك الأمسية عواطفه وما يحمله من الحب، لأنه عكف طوال هذا الوقت على دراسة أسرار القوات اليابانية في أندونيسيا. إنها وثيقة لا تقدّر بثمن، مع تقرير من أربعة وعشرين صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة، ويتضمن هذا التقرير عدداً من المعلومات الهامة للغاية. وكانت باندا قد تمكنت من التقاط وجمع هذه المعلومات بجدها ونشاطها، وفي ذات اليوم سيتم نقل هذه التقارير إلى بورنيو لتأخذ طريقها من هناك بواسطة قارب من قوارب الصيد إلى عرض البحر حيث كان هناك الموعد السري مع غواصة إنكليزية، تتقدم لاستلام مثل هذه المعلومات والرسائل السرية.

وفي اللحظة التي كان يغادر فيها ايبل منزل باندا وقف يعانقها بحنان، فقالت له وهي تحاول الإمساك بدموعها:

ـ ومتى سأراك ثانية؟...

فما كان منه إلا أن أجابها بقوله:

ـ إنني لا أعرف ذلك يا باندا، فربما تقابلنا ثانية بعد عدة أسابيع، وربما لن نتمكن من ذلك قبل انقضاء عدد من الأشهر، ومن الصعب معرفة ذلك، إنك تعرفين بأن المعارك الأخيرة والتي ستكون حاسمة، قد تبدأ بين لحظة وأخرى.

وبقيت باندا جالسة على الديوان لفترة طويلة بعد أن غادرها ايبل وكانت تشعر بالضيق لأنها أحست بنذر كارثة قريبة الوقوع. . .

وتمكنت خلال الأشهر التالية من سرقة المزيد والمزيد من الوثائق الهامة والتي كانت تحتويها ملفات القيادة العامة للمنظمات السرية اليابانية في باتافيا. وبعد ذلك وفي عام 1945 انفجرت العاصفة، عندما نزلت القوات البريطانية في ثلاث نقاط، كان الدفاع فيها أضعف من كل ما عداه من شواطىء الجزيرة وكانوا يعرفون نقاط الضعف عند العدو، كما كانوا يعرفون لمن يعود الفضل في معلوماتهم تلك، وقد عملت منظمات الجاسوسية التي عمل ايبل على تنظيمها في كل من باتافيا والهند بشكل رائع، وكانت عناصر المقاومة بالإضافة لجنود حرس الحدود على استعداد تام للضرب على مؤخرات القوى اليابانية.

وتقهقرت قوات العدو اليابانية بعد أن قامت بسلسلة من المعارك الانتحارية في الغابات والحقول وكانت باندا خلال تلك الأسابيع ترتجف من القلق كلما تذكرت ذلك الرجل الذي تحبه وتخشى على حياته. وبعد ذلك، وفي صباح أحد الأيام الجميلة انتصب ايبل أمامها، وكان قد فقد إحدى ذراعيه، كما كانت الذراع الأخرى معلقة ومشدودة إلى عنقه بواسطة الأربطة، وقال لها وهو ينظر إليها بعينيه الغائرتين في أعماق مآقيه سائلاً إياها:

ـ هلا زلت تحبينني؟. . .

فأجابته باندا وهي تدفع بصرخاتها، لتعزيه في مصابه وقالت له:

ـ كيف تستطيع أن تطرح سؤالاً كهذا؟. . . وقدمت له ذراعها. . وهي تستطرد حديثها: وها أنك الآن لن تستطيع أن تتركني أبداً.

ـ أبداً، يا باندا، وسأفعل ذلك طالما تريدين.

واستمرت نقاهة ايبل عدة أسابيع وكانت تلك الفترة من أكثر الفترات سعادة في حياة باندا. وكانت جميع الصحف العسكرية البريطانية تحيي فيهما ما قاما بتنفيذه من توجيه وقيادة الحركات التحررية. كما كانوا يحملون لهما الاحترام الكبير والعرفان بالجميل لما قام به هذين الزوجين الشابين من المساهمة الفعّالة في طرد القوى اليابانية.

وكانت الإدارة الاستعمارية الهولندية تتردد بين وقت وآخر على باتافيا. كما كان يتردد على منزل باندا عدد من العسكريين والشرطة الأندونيسية، وقد أدركت باندا بأن ايبل قد عاود نشاطه، كما كانت تزداد باضطراد فعالياته واتصالاته.

وصرح لها ذات يوم:

«يجب متابعة النضال يا عزيزتي، إذ ليس في مقدوري البقاء بدون أي نشاط، إننا لم نعرّض أنفسنا للخطر لإعادة الاستعمار الهولندي ببساطة..»

ولكن باندا لم تتفوه بأية كلمة، إذ كانت تعرف بأن لا جدوى من احتجاجها أو معارضتها، أو محاولة التمسك بعشيقها ايبل كي يبقى على مقربة منها.

بعد ذلك بأسبوع واحد، فتحت باندا أبواب منزلها، الذي أصبح قبلة يتردد عليها كبار الشخصيات الهولندية، بالإضافة إلى الضبّاط ورجال صحافة الحلفاء، ولم يمض سوى وقت قصير حتى أصبح كل مواطن من أهالي باتافيا يتسابق للحصول على بطاقة دعوة للحضور إلى حفلات الاستقبال التي تقيمها باندا. وكان الهولنديون سعداء لقربهم من هذه السيدة الفذة، والتي لم تتخذ لها رفيقاً من الأندونسيين، لأنها

لم تعمل على دعوة أي واحد منهم.

وفي تلك الفترة، تعرفت باندا على ذلك الرجل المسمى بلاتير والذي كان يعمل موظفاً في أحد مكاتب الحكومة الهولندية، ولقد تركز انتباه باندا عليه لما أحست فيه من الخطورة وكانت كثيراً ما فاجأته بعد ذلك وهو ينظر إليها نظرات كلها شهوة، وأدركت بعد ذلك أن بلاتير قد تمكن من كسب ثقة رؤسائه لما كان يقدمه لهم من المعلومات المتعلقة بأعمال المقاومة الأندونيسية، ولكن ما كان يحير باندا حقاً هو أن تلك المعلومات كانت دائماً منقوصة ومزيفة.

وقد تأكدت شكوكها ذات مساء، عندما اجتمع في بهو منزلها بلاتير وايبل، وجلس كلٌ منهما مقابل الآخر. وكان ايبل قد اكتشف بواسطة منظمات استخباره بأن بلاتير قد قدم من الصين الحمراء، وأنه جاء بمهمة إنشاء الاتصال مع عناصر المقاومة الأندونيسية، لأن موسكو كانت ترغب في دعم نضال العناصر الوطنية للنضال ضد السلطات الاستعمارية، ونتيجة لذلك فقد كان هذا العميل يتجسس على الهولنديين وهو يعمل في عقر دارهم.

وقال له ايبل بلهجة لم تكن ودية تماماً، لأنه لم يكن يحمل أي احترام لذلك النوع من الحرية التي كان الشيوعيون يعملون على تقديمها:

ـ إذا أردت أن تعمل على مساعدتنا فعلاً، فاعمل على تقديم المعلومات المفيدة لنا.

ـ يصعب عليكم إيجاد رجل يفضلني في الحصول على المعلومات، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنني لست مثالياً أو خيالياً فيما يتعلق...

فما كان من ايبل إلا أن قاطعه بلهجة جافة وهو يقول له:

ـ إننا لسنا أغنياء، ولكن عملك سيتم تقييمه وستحصل على ما تستحقه.

وعندما كان بلاتير يغادر المنزل قال بلهجة وقحة:

ـ إنني أفترض بأن صديقتك الحميمة، وأعني بها مضيفتنا، لم تقدم خدماتها بصورة مجانية لمصلحة اليابانيين.

فما كان من ايبل إلا أن ألقى بنظرات حادة كالسياط على بلاتير الذي تابع حديثه قائلاً:

ـ إنني لا أرغب في الهجوم على أي إنسان، ثم ضحك ذلك العميل القادم من بكين ليستكمل قوله، ولكنك بعد كل شيء يا سيدتي فإنك كنت تعملين لمصلحتك ولسبب يتعلق بك. وكان اليابانيون بدورهم يعملون في استخدامك من أجلها.

اعتباراً من هذه اللحظة أصبح بلاتير يعمل على خيانة ونقل كل الأسرار العسكرية التي كانت تقع بين يديه، من قصر الحاكم العام، وابتدأ الأندونيسيون هجومهم من أجل الحصول على الحرية. وكانت إحدى عملياتهم تهدف إلى الاستيلاء على دار الإذاعة، حيث تم إعلان اتحاد ولايات أندونيسيا كدولة جمهورية مستقلة.

في كانون الأول (ديسمبر) من عام 1948 ابتدأ الهولنديون بعملياتهم بواسطة جهاز الشرطة، والتي تبلورت بعدئذ على شكل نضال دموي طويل الأمد. واستطاع جيش التحرير بفضل مساعدة باندا له من التغلب على كافة الحركات للجيش الهولندي، وأصبحت أعمال العقاب أو الجزاء بمثابة حرب حقيقية من حروب الأدغال. ولم يعد العصاة كما كانوا يسمونهم يمتلكون أفضل الأسلحة فحسب بل كانوا يمتلكون أيضاً الذهب. وعلم الهولنديون بذلك فقاموا بهجوم رهيب للاستيلاء عليه، ولكن دون جدوى.

وكان عدد من الضباط والدبلوماسيين من الحلفاء يذهبون من وقت وآخر للتردد على المنتدى في منزل باندا حيث كان بإمكانهم الاستمتاع بذلك الجو الاجتماعي الأدبي، وكان بلاتير يأتي في الليل، حيث تعمل باندا على إعطائه النقود مقابل المعلومات التي كان يقدمها لها.

وفي ذات صباح من نهاية عام 1948 تقدم ضابط أميركي يرتدي الثياب المدنية وقام بزيارة باندا، وكانت قد قابلته سابقاً وعرفته، ولكنه لم يكن مكتئباً وحزيناً، كما رأته في ذلك الصباح وقال لها:

ـ إنني شديد الأسف يا سيدتي وأنا أنقل إليك نبأ محزناً...

ـ وصرخت ايبل: وهل حدث له مكروه؟...

ـ نعم، لقد قتل، وباستطاعتك أن تكوني فخورة به.

وخيم صمت طويل.. وأخيراً وجه الزائر حديثه إلى باندا وهو يحاول أن تكون لهجته أكثر ما يمكن رقة ووداعة ليقول لها:

ـ سيدتي لقد قضى صديقك أجله في سبيل مثل أعلى، وهو الحرية، وها هو الآن مات وعليك بألا تبكيه، فإن حياتك ستحمل كل معانيه، إننا بحاجة إليك.

فما كان منها إلا أن صرخت بصوت أشبه ما يكون بصوت المجانين وهي تقول:

ـ أو ذلك لكي تتمكنوا من تخليد الاستعمار الهولندي، والسيطرة الهولندية، ونقتسم أنا والآخرين هذه الأحقاد جميعها.

فعقب ذلك الضابط على قولها بهدوء:

إننا نريد الحرية لكل الشعوب جميعاً، وقد قاتلنا ضد اليابانيين، ولم يكن قتالنا هذا في سبيل إمبراطورية استعمارية هولندية، وليس

بإمكانك أن تتهميننا بمثل هذه الاتهامات الجائرة، إن عملك من أجل اليابانيين. . .

وسألته بصوت خافت كالهمس تقريباً:

ـ وماذا تريدون مني.

ـ إننا نريد أن ننسى عملك في مصلحة الاستخبارات السرية اليابانية يا سيدتي. فهناك سيد من عائلة زيللو يعتقد بأنك سيدة ذات إمكانات كبيرة، وقال بأن ابنة ماتا هاري جديرة بأن تكون كأمها، ولا يوجد أي مبرّر لليأس يا سيدتي، فإنك في هذه المرة ستناضلين إلى جانب الحق، فبعد أن تعملين على اتباع دراسات أولية، سنعمل على إرسالك إلى الصين، وستناضلين هناك من أجل تحرير شعب بائس، وفي سبيل مثل أعلى دفع ابيل حياته ثمناً له.

وتنكرت باندا في زيّ ممرضة، وغادرت بعد ذلك بثلاثة أشهر منزلها ميمّمة شطر شانغهاي تحت ستار بعثة تنظمها جمعية عالمية، حيث أقامت هناك لمدة أربعة أعوام قضتها متنقلة بين شانغهاي ومقر القيادة العامة للجنرال ماوتسي تونغ.

وتمكنت خلالها من إرسال معلومات على غاية كبيرة من الأهمية عن مشاريع ومخططات الشيوعيين وهي التي قامت بإنذار منظمات الاستخبارات السرية الأميركية بأن القوات الحمراء تستعد لضرب كوريا.

في خريف عام 1953 أي بعد انقضاء ما يقارب الثلاثة أعوام على إعدام باندا وصلت قافلة من أسرى الحرب الأميركيين الذين كانوا من المرضى بحالات خطرة وانتشروا على طول الحدود الشرقية الكورية، وكان من بينهم بعض المدنيين. ولقد طلب واحد من هؤلاء المدنيين وكان مصاباً بالتدرّن الرئوي، وفي المرحلة الأخيرة من هذا

المرض، مقابلة ضابط من ضباط الاستخبارات على الفور. ولم يمض على طلبه هذا سوى عدد من الدقائق حتى وصل ضابط وجلس عند رأس المريض وقدم له نفسه قائلاً:

ـ أنا النقيب هندريك. ترى ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟...

ـ إنني أدعى الن بيبرس وأريد أن أعطيك بعض المعلومات بدون أي تأخير، لأنني أعرف بأنني سأموت. وبأنه لا يوجد أي شيء آخر يستطيع إنقاذي.

ـ لا تتكلم هكذا.. يا سيد بيبرس. فستلقى كل عناية تتطلبها صحتك. هذا ما قاله النقيب وهو يجلس إلى جواره. وعلى كل حال فأنا تحت تصرفك لأستمع إليك في كل ما ترغب أن تقوله لي.

وتكلم آلن بلهجة مضطربة، وكأنه كان يخشى أن تنهار قواه بين لحظة وأخرى، وصرح بأنه كان قد أرسل إلى الصين في عام 1949 كمباحثي في المخابرات الأميركية، حيث انضم إلى بعثة من بعثات الصليب الأحمر في شانغهاي لكي يصل إلى شانغ كينغ، ثم قدم شرحاً لما قام به. فقال بأنه كان قد تقابل مع امرأة جميلة جداً اسمها ويلهلمينا فان ديرن في مقر القيادة العامة للديكتاتور الأحمر ماوتسي، وأنه علم أن هذه السيدة كانت زوجة أحد رجال البعثات الهولندية المقيمة في هونكيو. ولقد فوجىء بيبرس عندما أدرك بأن هذه التي يقال عنها زوجة لأحد رجال البعثات الهولندية على علاقة جيدة مع أقرب المقربين من ماوتسي تونغ. وأنه عمل على مراقبتها عن كثب، وعرف بأنها كانت صديقة حميمة لـ مانغ تسيه وهو أستاذ اللغات للديكتاتور. فقرر الاتصال بها على أمل محاولة تشجيعها للعمل في سبيل مصلحة المخابرات السرية الأميركية، ولقد صرح بيبرس بصوته

الضعيف عن الدور الذي قام به فقال:

ـ لقد كنت أدرك بأن هذه المحاولة هي مجازفة خطيرة، ولكنها فيما إذا كانت فعلاً زوجة أحد رجال البعثات الهولندية، فهذا يعني أن لديها الاستعداد للعمل لصالح المعسكر الغربي.

ثم عرف بيبرس بعد ذلك، من خلال الأحاديث التي دارت بينهما بأن ويلهلمينا فان ديرن لم تكن في الواقع إلا باندا ماكليود، وأن المنظمات السرية للمخابرات الأميركية قد تمكنت من ضمها إليها عندما كانت في باتافيا، فلماذا اعترفت له بذلك بتلك السرعة المدهشة؟.. وفسّر ذلك بأنه من المحتمل في أن يكون نشاطها متعلقاً بأعمال مكافحة الجاسوسية للكشف عن الجواسيس المشتبه بهم...

وتابع بيبرس حديثه فقال:

ـ كانت باندا تعرف أن اسمي مدرج في لائحة المشتبه بهم، والذين سيعمل الشيوعيون على اعتقالهم بعد ذلك بقليل. ونتيجة لذلك فقد أدركت باندا بأنها تستطيع المجازفة والوثوق بي، بل أنها أقدمت على ما هو أخطر من ذلك عندما استدعتني لأعمل على مساعدتها للقيام بعمل عاجل، فقد تعطل جهاز اللاسلكي للإرسال، وقد تمكنت من إصلاحه لها وذلك لكي تتمكن من متابعة نقل تقاريرها.

وفي لحظة من اللحظات، عملت باندا على إنذار بيبرس بضرورة مغادرته لمدينة شانغ كينغ فيما إذا كان بإمكانه استخدام الوسائل الأمينة لتحقيق ذلك، وكان أكثر الطرق أمناً في تلك الفترة هو السفر عن طريق كوريا.

ـ بعد ذلك قمت بزيارة باندا وشرحت لها الطريق والمكان الذي سأختفي فيه، لأنها كانت تفكر أيضاً بأنه من المحتمل أن تضطر قريباً للفرار عندما ستجد اسمها قد أدرج في لائحة المشتبه بهم، هذا ما

قاله بيبرس بصوته الذي كان يناله الوهن أكثر فأكثر.

وفي الواقع، فقد كانت الزيارة التي قمت بها على درجة كبيرة من الخطورة لأن الشيوعيين كانوا يطاردونني، وكانت باندا تخشى أن تقع بالفخ. وتابعت حديثي إليها بقولي:

- «إنني بحاجة لمدة ثلاثة أسابيع لكي أصل إلى مينغ سونغ، وآمل أن يخدمني الحظ فأتمكن من مقابلة صديق قديم من رفاق الدراسة يعمل حالياً مع إحدى البعثات الإنكليزية وهو صاحب السيادة هاربر. وبعد ذلك بمدة شهر واحد وصلت باندا بدورها إلى مينغ سونغ».

وتلاحقت بعد ذلك الأحداث وتتابعت بإيقاع سريع جداً، فبعد أن تم اعتقال صديقها أستاذ اللغات مانغ تسيه شعرت باندا بأن الخطر الكبير يتهددها لو تمهلت في مغادرة شانغ كينغ، فسافرت حاملة معها معلومات دقيقة وتفصيلية عن الهجوم الشيوعي المتوقع قريباً على كوريا.

وكان من الممكن تقدير ذلك نتيجة للتحضيرات والاستعدادات التي كانت واضحة المعالم حتى في القرى الصغيرة كقرية مينغ سونغ مثلاً، وبما أن التقارير التي بعث بها كل من بيبرس وباندا لم تلق ما تستحقه من الجدية والاهتمام، فقد قرر آلن الاتجاه نحو الجنوب لإنذار رئيس شبكته في مصلحة الاستخبارات واطلاعه على الموقف الذي كان على درجة كبيرة من الخطورة.

ولكن آلن اتخذ قراره في وقت متأخر جداً، إذ لم يكد القطار يصل إلى المحطة الثانية من خط سيره، حتى تم إجبار كافة الأوروبيين على مغادرة القطار وإرسالهم إلى أحد المعسكرات. وانفجرت الحرب بعد ذلك بيومين اثنين فقط. وقد تم استجواب بيبرس لمدة عدد من الأسابيع، ولكن الشيوعيين لم يتمكنوا من استخلاص أية معلومات

هامة منه، وكانوا يجهلون بأنه كان قد أقام لفترة قصيرة في مينغ سونغ. وعلى الرغم من الشكوك التي ساورتهم بنشأته، فإنهم لم يتمكنوا من العثور على الدليل في أنه كان يعمل في الجاسوسية، فعملوا على اعتقاله بانتظار فترة من فترات الهدنة.

وقبل أن يقضي بيبرس نحبه تفوه بآخر طلباته وهو يقول:

ـ هل من الممكن أن تؤكدوا لي بأن هذه المعلومات التي ذكرتها لكم ستعملون على نقلها إلى جاك ماك دونالد من مكتب المخابرات الأميركية في واشنطن وأن تذكروا له كل ما قلته؟...

ومن البديهي بأن هناك رجل آخر كان يعمل في المخابرات الأميركية اسمه جوزيف ماكالسكي سبقه في الكشف عن سر باندا ماكليود. ومن سخريات القدر بأن تكون وفاة الابنة بذات الطريقة التي تمت فيها وفاة والدتها.

وقد جاء التقرير الذي نطق به آلن بيبرس وهو على فراش الموت ليوضح تماماً كل غموض أحاط بموضوعها، وبذلك أصبحت الصورة كاملة أمام رؤساء المنظمات السرية في واشنطن. لقد تدخل القدر فنسق الأمور بشكل خارق للطبيعة فعلاً، كي يلقي طريق باندا مع طريق بيبرس في شانغ كينغ ثم ليفترقا بعد ذلك، من أجل أن يجمعهما الطريق مرة ثانية للحظات قليلة، وعلى الرغم من أن الطريق قد جمعهما ولكن السبب الذي كان يسعى إليه كل منهما كان مختلفاً عن الآخر، إذ أن بيبرس كان قد اختار الدور الذي قام به بملء حريته وإرادته، كما يختار كل إنسان الطريق الذي يصل به إلى قدره، بينما كانت باندا ابنة ماتا هاري قد سارت في طريقها المحتوم لأنها امرأة ولدت وعاشت كمأساة من مآسي الحياة.

الفهرس